كلمـــات

□ ١ □

في بلد يطمح أن ينبنيَ على أساس التقدم والاشتراكية، تطرح مسألة الثقافة نفسها بإلحاح : اين موقع الثقافة فـي عملية البناء هذه ؟. بمعنى آخر : هل اليدُ التي تحمـل الفأس ، والأخرى التي تعانق البندقية ، والثالثة التي ترفع الحجر ، والرابعةُ التي تتأبط حقيبة الغد ، ... هل هذه كلها أهمّ ، في عملية بناء المجتمع الجديد ، من اليد التي تمسك بالحبر والورق ؟!. أوضح أكثر : مادام الإنسانُ هو الذي يبني ، فما الذي يبني الانسان ؟. بلا تردد ، أجيب : الثقافة .

ولأن الثقافة تبني الانسان الذي ، بدوره ، يبني المجتمع، تتقدم مسألة الثقافة لتسأل عن موقعها في سلمِ الأولويات.

□ ٢ □

وفي بلد يتصدى لحمل امانة وطن ، ابى حملها الآخرون، تطرح ذاتها ، بإصرار اكثر ، مسألة الثقافة : ماذا عليَّ أن أحمل من أمانة الوطن ؟!. بمعنىً آخر : مادامت الأمانة هي المواجهة ، فما دور الثقافة في عملية المواجهة ؟!. يضعنا ذلك في صيغة سؤال جديد : هل بالأسلحة المتطورة وحدها يغزونا العدو ، أم ، أيضاً ، بثقافته المتطورة ؟!. تنبني على ذلك اسئلة أخرى : ماطبيعة حربنا مع العدو ؟ أهي حرب وردّ حرب ؟ أهي احتلال وردّ احتلال ؟. بالتالي : ماطبيعة هذا

الغزو الذي هو فريد نوعه في التاريخ ؟. وإذن ، فكيف ينبغي أن تكون طبيعة المواجهة ؟.

والثقافة ، مادورها في صياغة هذه الطبيعة ؟

□ ٣ □

نملك بعض الأجوبة :

من تعريف الغزو نبدأ . هو أكثر من غزو همجي شرس، أكثر من نازي ، وأكثر من متوحش . هو ، أيضاً ، أكثر من استيطاني . ذلك أنه لايبغي الأرض فقط ، بل الانسان الذي على الأرض . وهو لايبغيه ليحتويه ، بل ليجتث وجوده من الأعماق . وهو اجتثاث لايحدث مادام للانسان جذر ضارب في الأرض . ولا جذر أقوى من الثقافة . هكذا يستهدف الغزو ضرب الثقافة العربية أولا ، كي لاتنبت مرة أخرى شجرة الحياة . للأسلحة المتطورة وظيفتها : قطع الأغصان والجذوع. ووظيفة الثقافة المتطورة اقتلاع الانسان . غزو مسلح بنظرية حق تاريخي مزعوم ، تنقلب فيه القوانين : الغازي صاحب الحق ، والمغزو هو الغازي !!

□ ٤ □

إذن ، ليس بالأسلحة المتطورة وحدها تكون المواجهة ، بل بالثقافة المتطورة أيضاً . أعني : بالإنسان . الانسان ، لا بماهو يد تحمل الفأس والبندقية والحجر والكتاب فقط ، بل بما هو طاقة إبداع كاملة ، بما هو ذات فاعلة قادرة متحركة حرة واعية طلقة مندفعة واثقة مؤمنة مبدعة قابضة على مصيرها بالفأس والبندقية والحجر والكتاب . خلف البندقية اليد . خلف اليد تكمن القوة الغامضة السحرية التي اسمها الانسان . خلف تلك القوة تكمن الثقافة ، صاعدة ، دون أن ترى ، كما النسغ من الاعماق .

شعب بلا ثقافة ، كما شجرة بلا نسغ .

رئيس التحرير

الدراسات والبحوث:

أبو شبكة
«الشاعر المتمرّد»

الدكتورة: نجاح العطار

الأمن الإسرائيلي
والأمن العربي

علي سليمان

أزمة
اللسانيّات واللسانيّين
في الوطن العربي

مازن الوعر

أبو شبكة
« الشاعر المتمرّد »

الدكتورة : نجاح العطار

الكبرياء والحب والالم ، وشعر كلماته حرائق ، والافاعي فحيح في السطور ، والليل والفجر وحلم يترامى على اطراف الافق ، وصلوات ، بعد ذلك ، وناقوس قرية يدق في دير للراهبات .

ليست هذه صورة للتناقض ، بل للانسجام الذي يجمع ، رغم التضاد ، عناصر وجود كامل ، فهو الى الله تارة ، والى الشيطان طورا ، لكنه ، حتى في الجحيم الذي يقاربه ، يظل في مملكة هذا العالم ، ومع الثورة المبكرة ، انتفاضا على الظلم ، على تشوهات المجتمع ، وعلى « قضاة عور قضاة العور » .

بودلير جديد ، قالوا عنه ، لكن زهرة الشارون لا تشبه زهرة الشر، فبينهما « مهجةٌ كدموع الفجر صافية » ، وبينهما وعي بأن وظيفة الشعر ان تكون صرخة مظلوم ، قبل أن تكون حمى عبث ، وفي هذه نفسها ، غوص الى عمق ، بحث عن علة ، « .فرب انثى يخون البؤس هيبتها / والبؤس اعمى ، فتعيا ثم تنقلب » ، ورب سلوك ، له مــن الدوافع الاجتماعية ، مايستوجب لا نقض النتيجة بل السبب ، اعني ضرورة قطع شجرة الفساد ، لا التلهي بكشط قشورها فقط .

الياس أبو شبكة ، وقل وترا شعريا ، نادرا ما عرفته قيثارات الشعر العربي ، لا يمشي في الناس مهرجا ، ولا مداحا ، ولا متسولا كلمات الثناء . انه الصوت الذي يأتي الطغاة والباعة في الهياكل ، سوطا ونذيرا ، مؤمنا ان الزمن في تحركه الى أمام ، ينقل الانظمة معه ، وفي حركة التغيير الحتمي ، يمشي بالوجود صعدا ، وان على الشعر ان يكون مساعفا لهذا التغيير ، مسرعا به ، عاملا من عوامل حدوثه ، لا متفرجا على تخوم الساح والمعركة دائرة ، فالشاعر ما خلق ليكون شاهدا ، بل ليحمل وثيقة استئناف ضد ماهو قائم ، ضد ماهو راكد، وضد كل المواضعات العقلية والاجتماعية التي خلفها الزمن وراءه ، فصارت محنطات في متاحف التاريخ .

هذا الغريب الاطوار ، الناذر نفسه للخروج على المألوف ، الراحل في الاشعة والضباب ، الماشي بالعواصف اينما حل وارتحل ، ولد في مدينة « بروفيدانس » في الولايات المتحدة ، في شهر كانون الثاني من عام ١٩٠٣ .. صبيحة ذلك اليوم ، كانت غير عادية ، في الطبيعة والولادة على ال واء . الام ،نائلة غصن من عجلتون ، في كسروان ، ما كانت تدري ان هذا الذي يضطرب نزقا في احشائها سيكون شاعرا موسوما بخاتم ملك حينا ، وخاتم ابليس حينا آخر . حملت به في زوق مكايل ،

على ربوة قرب جونيه ، وسافرت مع زوجها يوسف ابو شبكة الى الولايات المتحدة في رحلة وصفت بأنها للترويح عن النفس . ما كانت تقدر انها ستلده في الغربة ، لكن الوليد الذي سيظل في غربة نفسية عمره كله ، شاء ان يرى النور هناك ، وأن يرحل جنينا ووليدا ، عبر المحيطات ، هو الذي من نسغ جبل وبحر كان ، فلما انتهت الرحلة عاد به والده الى بيتهما في « زوق مكايل » في بناية تدل على يسر صاحبها، فحيطانها مدهونة ، وارضها مفروشة بالبلاط الرخامي ، وغرفها واسعة عالية ، والدار فسيحة ، معممة بالقرميد الاحمر ، تطل على البحر ، وتصغي الى اغنيته الابدية ، يملكها وجيه في قومه ، له تجارة وارض لا في لبنان وحده ، بل في السودان أيضا .

هنا ، في حياة العباقرة والمبدعين ، لا تستقيم المساطر التي يقيسون بها الاحياء . تتكسر الموازين والمعايير كلها . وكما النظرية الادبية شيء هامشي في صفحة الابداع ، كذلك النظريات التربوية ، شيء هامشي على جوانب عيش مجنون ، لا يخضع لعلة ومعلول ، ولا نملك ، حياله ، ان نردّ ألما الى مرض ، ولا كآبة الى اعياء ، أو مزاجا الى نشأة ، فثمة ، عند من ينشئون الوجود كلاما ، مصادر مجهولة ، دوافع غريبة ، لا نملك حيالها الا ان نسلم ان العبقرية نتاج ظواهر خاصة ، رغم ان الموهبة نتاج عمل كما قال تشيكوف ، اعني بالعمل ، والوسط ، والوسيلة ، يمكن ان تحيا ، كما يمكن ، دونها ، ان تموت .

ابو شبكة شب مرفها ، منعما ، في عائلة ميسورة ، لكنه ، في الآتي القصير من العمر ، شكا الالم والكآبة ، وضج باهابه ، وبمحيطه ، وتمرد على كل شيء ، ولم تخمد جذوة « الطين في الطين » الا وقد انضجتها نيران ذات الوان من الشقاء ، وذات سعير ، في النفس والقلب واليد ، وذات اشواق في اللاغم والكلمات ، فكأنه عاش ليحترق وليحرق ، ولينهدم ويهدم في آن .

لقد شاءت الاقدار ، في قسوة غير متوقعة على الشاعر ، ان يموت الاب ، يوسف ابو شبكة ، اغتيالا بين بور سعيد والخرطوم ، وهـو يقصد العاصمة السودانية ، ليتفقد املاكا له هناك ، ثم لا تلبث الام نائلة ، ان تموت ايضا ، وتأتي مظلة من ضباب ، فيها مطر شقي ، ورعد وبرق ، وفيها سواد فحمي ، فتخيم على البيت الابوي .

وكان الاب ذا تأثير كبير على الشاعر ، وهو يهدي اليه مجموعتـه الشعرية الاولى « القيثارة » قائلا : « كنت في العاشرة من عمري يوم توارى وجهك اللطيف الى الابد ، وكنت لا ازال ادفأ بين جناحيك ، وها انا اليوم في الثانية والعشرين ، في عهد الشباب ، في عهد الجهاد والالم .. أفتش في بلادي فلا أجد نصيرا ، ولا احد يدرك مبادىء نفسي وما طبعت عليه ، الا فئة قليلة ، هي مثلي في آلامها وبلاياها » .

ولم تكن للشاعر سوى اخت تدعى فرجيني ، سيكتب لها أن تعيش في بيت الاسرة المهجور ، ذاك الذي كان معمما بالقرميد ، وفيه مزود بقر شعري ، اذا لم ترتفع فوقه نجوم ، فان شاعرية ستنبثق منـه ، تضيء النجوم ذاتها ، وسيكون هناك، من حكام لبنان ، الف هيرودس يطلب دم الطفل ، لا ذبحا بل قتلا عن طريق الصبر ، عن طريق ظلم تحداه شاعر هو صنومايا كوفسكي ، الذي تعجل القضاء على الشر ، فكان الشر رصاصة من مسدسه ، كما كان الشر سرطانا خبيثا في رئة صاحب « افاعي الفردوس » .

لقد أصيب الشاعر بصدمة ، بعد اغتيال والده وموته المبكر ، تحولت مع الايام الى نوع من كآبة دائمة . وفي العام الدراسي ١٩١١ ــ ١٩١٢ دخل مدرسة عينطورة ، بعد أن درس ثلاث سنوات ، اعلنت بعدهـا الحرب العالمية الاولى ، فانقطع عن الدراسة ، ثم عاد الى مدرسـة عينطورة في العامين ١٩٢١ ــ ١٩٢٢ ، وامضى سنتين ، طلق بعدهما

حياة التلمذة بعد ان انهى الصف الرابع الفرنسي والثالث العربي ، لخلاف بينه وبين احد الاساتذة ، لكنه كان قد اتقن اللغتين معا وبتفوق .

انني انفر ، في التعامل مع الشعر ، من ان تكون الحكاية اداتي ، ان اذكر في سرد مشوق او ممل ، سيرة حياة ، واختم دفة الكتاب . لا . الشعر الذي هو كوكب وحده ، في فلك وحده ، يحتاج الى مرصد ما تعارف عليه بشر ، لانه العين السحرية التي وحدها ترى سحر السحر ، وتقنص من الهنيهة جزءها المضمر ، وهذه العين النسرية التي يحتاجها الناقد والدارس ، يعيشها وهج الشعر ، وعندئذ تتلمس الاشياء تلمسا ، بانامل مضيئة ، تخترق السطح الى القاع ، وتخرج مثقلة بدراري البحر .

على ان انامل الدارس التي يتلمس بها سيرة شاعر ، لا تستطيع ، في الاخلاص للصورة ، ان تأتي بمثلها . ومن الخير ان الياس ابو شبكة قد رسم لنفسه صورة هيكلية بالكلمات فقال : « قامة رقيقة منتصبة ، جبين بين العريض والمعتدل ، ابتدرته الغضون منذ عشر سنوات ، وتسنمت ذروته شعور مشعشعة ثائرة ، كأنما هي نموذج لما في الصدر من براكين .. بعيد مابين الحاجب والحاجب ، وانف كبير ، وخدان هزيلان ، الا اذا ضغط الطوق على العنق فيستمدان من هذا الاخير بعض السمنة . اما بشرة الوجه فتتحير بين السمرة والحنطة ، وتطفو عليها سحابة من شحوب .. واذا انحدر نظرك عن راسي ، بصرت بكتفين ترتفعان تارة وتهبطان اخرى ، كأنهما موجتان في بحر هائج » .

عارفوه يقولون عنه إنه لم يكن هادئا طيعا في المدرسة ، بل غريب الاطوار ، ثائرا يتبع هواه ، يعن له مثلا ان يتأمل زرقة البحر الصافي ، خلال الغابات ، فيفعل ولا يتردد ، غير آبه بالقانون المدرسي وبالنظام ، ولطالما اثار تصرفه هذا نقمة معلميه ، فانبوه وانبوه ، ولكن على غير

طائل ، لان الشاعر المتمرد بطبيعته ، لم يكن سهل القياد .. ولئن انقطع عن المدرسة ، فهو لم ينقطع عن الدرس ، بل واصله ، فطالع الادب الفرنسي الرومانتيكي ، وتعشق الفرد دوموسيه ، ولا مارتين وغيرهما .

يضيفون انه كان قوي الثقة بنفسه ، وفيا لاصدقائه ، متكبرا حتى العجرفة ، لا يشكو امره اذا ساء ، ولا يتبرم بحظه اذا عبس . تظهر انفته في أدق تصرفاته ، في مشيته ، في شموخ رأسه ، في وقع قدميه وفي وقفته على المنبر ، وقد جعلته انفته هذه يترفع عن المادة ، فلا يعفر جبينه لامرىء مهما علا قدره ، ولهذا عاش فقيرا بفقره ، محتقرا صغار النفوس وان عزّوا .. عاش مثالا ، متمردا لا يعرف للاستقرار طعما ولا للانضباط معنى « لا يعرف متكأ غير عصاه ، ولا انيسا غير ظلمة لياليه ، ولا مذبحا غير مذبح الشعر يصلي امامه » .

ويقول بطرس البستاني في مجلته « البيان » : « ماكدت القى الياس أبو شبكة لاول مرة بعد ان صار من اصدقاء « البيان » الا تجلّت لي نفسه بكآبتها وانفعالها وبراءة كبريائها ، ولا اذكر اني رأيته مرة يضحك ملء فمه ضحكة غبطة وارتياح » .

وكان ميخائيل نعيمة يرى في « افاعي الفردوس » تحفة نادرة ، وقد قال في حديث له عنها : « دين الشاعر ما كان يوما رياء ، وعزة نفسه التي ما عرفت الزلفى ، وعبقريته التي ماانحدرت يوما الى المستنقعات ، كل هذه تأبى عليه التمرغ في حماة الشهوات الخسيسة » .

اما مارون عبود فقد قال عنه : « .. في خلقه اباء حتى العنجهية . يريك نفرات هي بنت عم الجنون كلالة ، في احشائه آلام متقدة ، آلام من الحب ، آلام من اعباء الحياة . حب مجنون يشمخر كوقيد البلان ، يتعالى حتى يدرك السقف ، ثم يهبط رويدا رويدا .. » .

ان هذا التمرد المتوهج ، الذي لا ينطفيء حتى يتسعّر ، يعطي ذلك الجسد مشبوب العاطفة صفة البركان الدائم ، لهذا نجد كلمات النار ، اللهب ، الحرائق ، البراكين ، الجحيم ، السعير ، الديجور ، تتردد كثيرا في شعره ، وخاصة في « افاعي الفردوس » ، فهو يعتصر الكلمة من قلبه ، في انفعال عالي التوتر ، كأنه الشحنة الكهربائية التي يكون من تفجرها الرعد والبرق .

وفي ممارسة تلك الكبرياء العنيفة التي تضطرم في صدره ، والتي صوحت عمره ثم اختصرته اختصارا مفجعا ، كان يعجب ببيت أبي فراس الحمداني :

اذا الليل اضواني بسطت يد الهوى
واذللت دمعا من خلائقه الكبر

كما كان يردد قول شوقي : « ياليت شعري هل قلت الذي اجد ! » لشكه في انه استطاع ان يصور معاناته ، تلك التي استشعرها عذابا في الحب ، وشقوة في السلوك ، وخللا في النظام الاجتماعي ، ونفرة من الزلفى والتدليس ، ومقاومة للظلم ، ومعاداة مكشوفة للظالمين .

لقد كان في حرب مع محيطه ، وغربة في بيئته ، الا ما كان ذا علاقة بالطبيعة ، وبالعامل ، والفلاح ، اي الناس البسطاء ، الكادحين ، ولم يكن يوما في صلح مع المواضعات الاجتماعية المتخلفة ، او مع التقاليد السلفية ، ولعله لم يعرف الصلح مع الواقع ، في سعيه الى جعله واقعا افضل ، من طريق الموقف الشعري ، والموقف السياسي معا .

من هنا ، عد ابو شبكة رومانتيكيا ، وكان رومانتيكيا ثوريا بغير شك ، استطاع بثقافته العربية والفرنسية ، ان يطور الرومانتيكية العربية ، في شعر يعد تجديدا في الشعر العربي لعصر النهضة العربية ،

كما كان شعر أبي نواس تجديداً للاغراض الشعرية في العصر العباسي . وتبلغ نزعته التجديدية ان تكفر بنفسها من جهة ، وأن تثور على نفسها من جهة اخرى ، فهو يرفض المدارس والمذاهب الادبية كلها ، لانهـا « لا تعيش ، كما يقول ، الاعلى هامش الادب ، كما يعيش العرض على هامش الجوهر ، أو كما يعيش الديكتاتور الزائل على هامش الامـة الازلية » . ان الشعر ، بالنسبة اليه « كائن حي ، تحتشد فيه الطبيعة والحياة ، فلا يقاس ولا يوزن » وفي هذه النظرة ، صبوة سباقة الى الخروج عن عمود الشعر العربي ، وطموح الى ذاك الجديد الذي جاءنا به الشعر الحديث منذ مطلع النصف الثاني للقرن العشرين .

وقد دحض الشاعر امكان تحديد الشعر بالطريقة الفلسفيـة ، واعتبر ذلك شكا في الشعر نفسه مادام المرء لا يلزم جانب التفلسف الا عندما يخالجه الشك ، واعتبر الوجود الحقيقي وجود الماهية ، والشعر قوة مجهولة غامضة ، الشاعر وسيطها ، لان « للنفس اويقات تصفو بها ، فينعكس عليها اذ ذاك ، من الطبيعة ، جمال محجوب ، صعب التحديد ، يجب أن نكتفي منه بما يهتف في الشاعر من اسرار ، فيبوح لسانه بالمعاني الشريفة » وفي هذا ، كما ترون ، ايمان بنظرية الانعكاس في الادب ، لا الانعكاس الخارجي ، بل الانعكاس في الذات ، التي عنها يصدر الابداع ، وهي نظرية تقدمية قال بها كبار الفلاسفة الاشتراكيين .

ان المقدمة التي كتبها ابو شبكة لديوانه « افاعي الفردوس » بعنوان « حديث في الشعر » تنم لا عن تمرده فقط ، بل عن عمق ثقافته ايضا ، والنقاد مازالوا يعتبرون هذه المقدمة ، من اجمل ماكتب حول الشعر ، ومن اصح النظريات التي تنتهي برفض الوحي الشعري ، والايمان بالواقع الذي ينعكس من الماهيات ، ومن الطبيعة المؤنسنة التي هـي مصدر كل فكر وجمال .

وسنسرف على انفسنا اذا نحن تتبعنا ، عرضا ومناقشة ، آراء الشاعر ونظريات الفلاسفة حول الشعر نفسه ، فغرض هذه المحاضرة ان تتحدث عن الشاعر المتمرد ، بلمحة عن حياته ، ولمحة عن شعره ، ولمحة عن مواقفه النضالية ضد الانتداب الفرنسي ، وطغيان حكام الانتداب في النصف الاول من قرننا هذا ، وهي الناحية التي اغفلها النقاد ، التقليديون ، لخوفهم من أن يضطروا الى الاعتراف بأن للشعر كما للفن كله ، وظيفة اجتماعية ، وان يكون شعر « ابو شبكة » نفسه من ادلتها البارزة .

يقول الناقد اللبناني محمد دكروب في كتابه « **جذور السنديانة الحمراء** » نقلا عن البيان الاعلامي « لحزب الشعب اللبناني » الذي كان الشاعر من مؤسسيه : « .. ثم القى الرفيق الياس ابو شبكة قصيدة عنوانها « العامل الثائر » وصف بها العمال وصفا مؤثرا استعاد الحضور أبياتها مراراً بالتصفيق » .

كان ذلك في الاول من ايار عام ١٩٢٥ ، وبمناسبة اول احتفال بعيد العمال في لبنان ، وقد وصف المؤرخ التقدمي اللبناني المرحوم يوسف ابراهيم يزبك في كتابه « حكاية أول نوار » جو الحفلة والقصيدة بقوله : « وان الشاعر الخالد الياس أبو شبكة ، رحمه الله ، كهرب الجو وهو يشير الى كبار الموظفين البلديين الزاحفين في خدمة المستعمر ، ويزار في وجوههم :

فهم الذئاب وفي سبيل وظيفة ... تمشي اظافرهم على اكباده

(يعني اكباد الشعب)

الى ان يقول :

من يسترق قومـا يعيش بمالهم ... فلتبصق الدنيـا على الحـاده

يضيف :

يـا عاذلي ليس اعتقادك محكمـا بالشـاعر البـاكي على أمجـاده
فالشعر، لو ادركت، وحي حقيقة والشاعـر والرسام طـوع قياده

بعضهم ، في محاولة للطعن في الشعر اذا اقترب من السياسة ، وفي الشاعر اذا التزم النضال الوطني والاجتماعي ؛ يريدنا ان نصدق ان الفن يضار من الفكر ؛ بل ينكر عليه احتواء المعاني ، كأنه يجرده من ماهيته ؛ ويجعله أثيرا لا يدرك ، وقد اثبت ابو شبكة ، والجمالية في شعره عالية ، ان الشعر يقال في جميع الاغراض ، ويحتفظ بجماليته اذا كان صادقا ، ونحن تمسنا في قصائد هذا الشاعر السياسية شحنة شعرية ، تبلغ من التأثير أنها توقظ ، وتفجر احيانا ، احاسيس وطنية وانسانية في المتلقي ؛ تجعله يعيش ما يسمع عيشا وجدانيا كاملا . وقد قال ابو شبكة شعرا سياسيا طوال حياته ، ولم يكن شعره هذا أدنى في مستواه من شعره الغزلي ؛ بل من شعره الآخر البالغ الروعة في أفاعي الفردوس ، وقد نشر قصيدة بعنوان « الحر » في مجلة الطريق اللبنانية في ١٩٤٣/٧/١ ، يوم كان هتلر يجتاح اوروبا كلها ، ويهدد الشرق العربي في زحف قواته من العلمين ، قال في هذه القصيدة :

لبيك يا قلب ، ماض فيك ناداني خبـأت في عطره حبي وايمـاني
ايام كان الهوى الفرّيد يضحك بي ويرتمي مـرح الدنيـا بالحـاني
وكـان للنـاس آمـال مجبـرة تفككت عـن كلاّب وأرسـان

ثم يصف حوارا بين الانسان الحر والطاغية ، يهدد فيه هذا الاخير ويتوعد ، فيقول له الشاعر :

خفف عتوك واغسل قلبك الجاني للظالم يـوم وللمظلـوم يومـان
عرش العتي على بركان منكـره شتيمة رخمت في قلـب سكران

وفي ختام القصيدة يسوق هذا النذير الذي يتحدى الطاغية ، غير آبه بالموت الذي هو نهاية كل حي ، وسيان جاء اليوم أو غدا . يقول له :

أما سمعت هبوب الريح ؟ ان له
صدى تزحف أشباح وأكفان

فدمدم الحاكم الغضبان وارتسمت
عليه أشباح غيلان وحيتان

وصاح : ان يك ذا حد لسانك بي
فلي لسان عليه الموت حدان

فحملق الحر في العاتي ، وقال له :
اقضي غدا او اموت اليوم سيان

فكمل ما ابتغي الا تقاطعني
دعني أكمل دفاعي أيها الجاني

وتأتي الذكرى السابعة والعشرون لثورة اكتوبر ، عام ١٩٤٤ ، مضاءة بوهج النصر على الجحافل الهتلرية ، فيلقي ابو شبكة قصيدة بعنوان « الثورة العظمى » في حفل كبير في بيروت ، يقول فيها :

هذى الروائع من ذاك اللظى خلق
ما أضعف السيف حين الخلق يمتشق

ما في الحديد ولا في النار منتصر
كلاهما في لهيب الحق يحترق

الله أكبر ، كم في الفكر من شعل
حذار في ظلمه أن تبرق الحدق

★ ★ ★

هذا الشباب رضاع الحق في دمه
فكيف يسلم من في عرقه رنق

مضى الى المجد لم يشهد له مثل
ولم تشق لإنس مثله طرق

بطولة حارت الدنيا بروعتها
اسكرة هي في النيران ام شبق ؟

هم الصعاليك أقصى المستحيل لهم
فلو أقام باحلاق الردى ، مرقوا

في كل جبهة صعلوك بدا ملك
وكل امنية منه بدا شفق

* * *

بوركت يا نهضة للشعب ثائرة
هذي الروائع من ايمانها عبق

ان البقاء على الايمان مرتكز
الاقوياء مضوا والمؤمنون بقوا

وفي ٢٤ نيسان من عام ١٩٤٦ ، يفجع الادب العربي بالمفكر والناقد الكبير عمر فاخوري ، صديق الشاعر الذي كان مريضا ، والذي سيموت بعد اشهر من ذلك ، فينهض الياس من فراشه ، ويذهب الى حفل التابين ، حيث يلقي قصيدة تعد عمارة شعرية ، يحمل فيها على الادب المصقع ، والفلسفة التي تزهق الروح ، والشاعر الذي يشبه شعره نقيق الضفدع ، ويتحدث عن مراحل تطور عمر فاخوري ، وايام الحرب التي تحدى عمر فيها الفاشية ، وترأس عصبة مكافحة النازية والفاشية في سورية ولبنان ، ويقول :

ونبهــه صـوت مـن الـروح صـارخ
فتى النـور مـاذا انت بالنـور صانـع
احين يـرى الطغيـان في الارض عائثـا
نـام الاديب الحـق او يتسكــع ؟
فكشــر عـن نـاب ضحـوك تخالـه
لظى جمـرة مـن فحمـة الليل تفـرع

الى ان يقـول :

اخي عمـر الثاوي على الحب والرضـى
لقـد اورق الحلـم الـذي كنت تـزرع
كتابـــك مفتـــوح ووجهـك ماثـــل
وقبـــرك منشـور النـدى متضـــوع
ويـا وطنـا بالحـب تكسـو اديمـه
فيحرمنـــا حتـى رضـــاه ويمنـــع
اكـذب نفسي عنـك في كـل مـا ارى
واسمـع اذنـي منـك مـا ليس تسمـع

وكما كان ، في الكفاح ضد المستعمرين والطغاة ، ثائرا ، كان في حبه للمرأة ثائرا ايضا . ان ديوانه « غلواء » ينطوي على حب مجنون للمرأة ، يكاد ، لجنونه ، أن يصل بحبه لها درجة العبادة . واذا كان في افاعي الفردوس قد تصور المرأة خائنة ، تنفث في لحمه ودمه سمها الزعاف ، فانه يعتبرها أيضا اما وحبيبة ، « اذا مرطيفها مر الطهر والادب » وهو ، في افاعيه ، يعتمد أساطير من التوراة ، مثل قصة شمشون ، وسدوم وعمورة وغيرهما ، فكانه ، اذ يتحدث عن الآخرين، يتحدث عن نفسه ، في هذه الاشعار التي كانت فتحا في الشعر العربي الحديث كله .

يقول جورج غريب في كتابه « الياس ابو شبكة » ان « ثورة على الباطل ، على الضلال ، على الشهوة ، تندلع في كل قصيدة من قصائد افاعي الفردوس ، فيضمحل باندلاعها الباطل ويصبح حقا ، وينصهر الضلال فيمسي هديا ، وتنصهر الشهوة فتصير عفة ومحبة » .

ان المرأة « وردة » التي تعيش في « غلواء » هي نفسها في أفاعي الفردوس .. تغدر بشمشون ، وتتقلب في اروقة الجحيم ، وتقيم الصلاة الحمراء ، وفي النهاية تمر بالكوخ العفيف الذي يحتضنه الربيع ، والطهر والرفيف الشاعري الذي لا أحلى ولا أندى .

ولعل قصيدة شمشون ، وكلكم يعرف الاسطورة ، هي اجمل قصائد هذا الديوان ، واقواها ، واكثرها احكاما ، في الغرض الشعري الذي يرى في المرأة دليلة ويخاطبها قائلا :

ملقيـه بحسـنك الاجـور   وادفعيـه للانتقـام الكبير
ان في الحسـن يـا دليلـة أفعى   كـم سمعنـا فحيحها في سرير
أسكرت خدعـة الجمال هرقـلا   قبـل شمشون بالهوى الشرير
والبصير البصير يخدع بالحسن   وينقـاد كـالضرير الضرير

وهو يتصور الدنيا سجنا ، لا من تشاؤم ، فعل المعري ، بل من ضيق بالزمن ، بالرتابة ، بالمشاعر المتوثبة في صدره ، لامتلاك الكون في لحظة عناق ابدي . ثم لا يلبث بعد ان يتخلص من الكابوس ، أن يسترجع صفاءه ، ويعود الى الامل ، مؤكدا ان الجمال ، في النفس ، هو العنصر الثابت ، فالقاذورة ليست من الروح ، هذه التي في جوهرها معبد . إن القاذورة ، في آخر المطاف ، كتلة غيم اسود تبددها الريح التي تمهد لشروق الشمس .

حلمت بدنيــا ـ ليتهــا لا تبدد لذائــذ احلامي ولا كان لي غــد
واوقظت مذعورا الى شر هاجس كاني روح ، في جثــام مشــرد
فالفيت دنيا من فواجعها الورى على بابها لوح من الــرق أســود
قرأت عليه أحرفا خطهــا اللظى يروعك منها اثنان ((سجنمؤبد))

لكنه سرعان ما يعود ، وهو يودع براءته الاولى ، الى التغني بهذه البراءة التي يتنور لها قلبه الطفلي :

وداعا عذارى الحب فيخيم الهوى جمــالك محظور وعدنك موصــد
فقدتك حتى في اغاني مزهــري وكــان لشــعري منك ما يتجدد
الا اغلقي الفردوس في وجه شاعر يضــم طنابيــر الجحيم وينشــد
لئن تــك نار البغض تلظى بعينه ففي قلبــه النوار للحــب مزود
كذلك يبقى في دجى النفس ثابتا جمال لــه في قبة النفس فرقد

ويقول في قصيدته « هيكل الشهوات » مخاطبا المراة بفهم عميق ، لا للظروف المادية التي تجور عليها فتجنف بها عن سواء السبيل ، بل لان الموبقات التي دفعها اليها المجتمع الظالم تجعلها ضحية هذا المجتمع ، مثل آلاف ضحايا الظلم الاجتماعي :

وحق طفلك لــم اشمت بامــراة زلت بهــا قدم أوغرهــا ذهــب
فرب انثى يخون البؤس هيبتها والبؤس اعمى ، فتعيا ثم تنقلب
لي مهجة كدموع الفجــر صافية نقاوتــي والتقــى ام لهــا واب
لــي ذكريــات كاخلاقي تؤدبني فــلا يخالجني روع ولا كــذب
ابقى لي الامس من غلواي عفتهــا ولم يزل في دمي من روحها نسب

* * *

لا تقنطي ان رأيت الكاس فارغة يوما ففي كل عام ينضج العنــب

* * *

اما انا ، ولو استسلمت امس الى خمر الليالي،فقلبي ليس ينشعب
قد اشرب الخمر لكن لا ادنسها وأقرب الاثم لكن لست ارتكب

ويأتي « حديث في كوخ » في آخر الديوان ، ليبشر بذلك النزوع الصوفي الى الطهر ، الى الحياة الريفية ، حياة الربيع حيث يصحوالغصن من نومة الشتاء ، ويورق القلب ويزهر ، محاولا ان ينسى آثامه ويعانق وجودا آخر ، الى الفردوس لا الى الجحيم ينتمي :

سمعتني اقول شعرا شقيا يستفز الآلام في سامعيه
فتلاشت وتمتمت في سكون (م) الليل : «الله ! ماالذي يشقيه ؟!»

وبعد ان تذكره بماضيه ، وبشعره الذي جدل من الافاعي قلادة تهواها ، يسألها ان تترك قلبه الشقي ، القلب الذي فرغ من الحب ولا يريد ان يعاوده :

قلت : فيم تفكرين ؟ فقالت : في يراع سحر الهوى من ذويه
في يراع علمته الحب حتى صرت أهواه ، صرت من عاشقيه
فذكرت الماضي وقلت لقلبي : « انها يا شقي : تهواك فيه »

* * *

ايها الفجر ، ياحبيب الشقيين م ويا مشعل الهوى والشباب
ايها الشاطىء المسر الى الموج م حديث العشاق والاحباب
ايها الكوخ ، والعيون السكارى بخمور لم تمتزج بعذاب
لا تجسي قلبي فلم يبق فيه من بناء الماضي سوى اخشاب

* * *

وانصرفنـــا ، وقبـــل ان اتوارى عن جمال الشاطي وعن ساكنيه
قلــت للمـــــراة التـــي آلمتنـــي حين قالت : « الله ! ما يشقيه؟ »
« لــي قلــب افرغتــه فاتركيــه في الهــوى فارغــا ولا تملئيه »

هكذا يبقى ابو شبكة ، رجل في الفردوس ، ورجل في الجحيم ، والنفس التي تطوف في اقبية الشر ، تعتادها في كل لحظة ، اشراقة طهر ، مهما تغرب ، فانها الى اشراق من جديد ، ذلك انه عرف الحب الحقيقي ، حب غلواء ، وتزوج بعد غرام مشبوب دام تسع سنوات ، من امراته اولغا التي قلب اسمها الى « غلواء » ونظم فيها ديوانا من الشعر ، أنكر ، فيما بعد ، أن يكون له ظل من واقع او حقيقة . لكن النقاد يميلـون الى ان تجربته معها هي أحد مصادر شعره العظيم ، وان اسمها كان آخر ما تلفظ به حين أسلم الروح .

ففي يوم الاثنين ٢٧ كانون الثاني ١٩٤٧ ، وكان في المستشفى ، وكانت اولغا تبكي في غرفة مجاورة ، طلبها اليه ، فيما كان يحتضر ، فلما جاءت ووقع نظره عليها ، اخرج آخر عبارة من شفتيه هي : مسكينة يا أولغا ! واغمض عينيه الى الابد ، اغمضهما ذاك الذي قال :

اعشق الصدق، لا اقول سوى الحق ولــو جــار في الحيـــاة عليـــا
في فــؤادي القــوي روح الـــــه ولــو انــي ولــدت مــن ابويــا
فالسماء التي انـــارت شـــبابي وضعـت مهجتـي علـى شفتيا

لقد شك ابو شبكة حياته كلها . كان نهبا مقسما حسب تعبيره ، وكان يبحث عن الوثوق بأظافر ادماها صخر اليقين . كان الشك طريقه ، وكان القلق يعصف بروحه فلا تكاد تستقر على حال . مع ذلك لم يلعن القلق فعل بودلير . لم يقل عنه انه وحش مفترس ، بل تقبله في سبيل

ما هو اعز : الشعر ! في سبيل الفن الذي لا يكون حين النفس هامدة ، منطفئة ، على صلح مع ذاتها ودنياها . يرى بعض النقاد أن الشاعر قد احب غلواء او غيرها فامتلأ قلبه كما الدن في أواخر الخريف ، ترى هل امتلأ حقا ؟ ومن هي المراة القادرة على ان تملأقلب شاعر احلامه الى غياب فحضور ، الى موت فحياة ، فيما هو يدق طنابير الجحيم وينشد ، وفيما هي تسرح يدها الصفراء فوق هوى ، « يسيل في محجريه الجهد والتعب » .

التمرد هنا عصفة روح ابدية ، والجسد غصن يلوي به الشك ، ويلوي به اليقين ، فهو في عز التأرجح الى آخر العمر يقول :

الغرام الذي اطال شجوني حار قلبي به وحارت عيوني
لا اطيق الغرام في الف وجه فاذهبي ، ما عرفته يكفيني
اخرجيني من مقلتيك وخليني تعالي ، في مقلتيك ضعيني
انا في مقلتيك أسعد .. اشقى فيهما فاذهبي ولا تشقيني
انا أهوى الشقاء .. لا لست اهواه ، تعالي ، لا ، بل دعيني
من تكونين انت ؟ اجهل ، بل اعرف ، فامضي عني ، ومن شئت كوني

هكذا القلب ، وقد صوحته الآلام ، يغدو القلق والشك والخيبة صليبه الذي يمشي به من المهد الى اللحد ، وهكذا تنقضي حياة شاعر ، هي نفسها حكاية شعرية غير منظومة بعد ..

أيها الشاعر .. تراك ، في قبرك ، قد وصلت الى يقين ؟

الأمــــن الإســـرائيلي والأمــــن العَــــربي

علــي سليــمان

في كــل حــرب خاضتها اسرائيل ضــد العرب ، وفي كل احتلال ، او عمل عســكري محدود او واسع قامت به ، كانت تتذرع دائما بذريعة واحدة ، هي ذريعة « الامــن » ، وكانت دائما ، تسوغ حروبها واعتداءاتهــا المتكررة وعملياتهــا التوسعية ، بضــرورات الامن . وتقدم هذه الاعتداءات وهذه الحروب التوسعية ، للراي العام العالمي ، بانها ليست اكثر من عمل وقائي ، املته ضرورات الامن ومشروعية الدفاع عن النفس ، وانها مجرد اجراء احترازي ، ارغمها على القيــام بــه ، محيطها العربي المعادي .

وليس من شك ، في ان اسرائيل قد نجحت الى حد كبير ، وبخاصة في بداية الاستيطان والتوسع ، بتسويغ وتبرير اعتداءاتها واطماعها في الاحتلال والتوسع ، كما استطاعت ان تموه الاهداف الحقيقية لعملياتها « الامنية » هذه . وان تخفي مفهومها الحقيقي للامن ، وتطمس الفارق الحقيقي الكبير والجوهري ، بين المعنى الدعائي الذي تقدمه للعالم عن امنها ، وبين معناه الفعلي الذي كان يأخذ دائما شكل الاحتلال والتوسع وبسط الهيمنة .

الا ان التناقض ، او البون الكبير ، بين المعنى الحقيقي لفكرة الامن الاسرائيلي وبين معناها الدعائي الذي حرص قادة اسرائيل ، ومخططو الصهيونية ، على تقديمه للعالم . ما لبث ان انكمش وتضاءل ، بل لم يلبث ان افتضح ، مع تزايد وتبلور الاهداف والاطماع الاسرائيلية ، واضطرار هذه الاهداف والاطماع ، الى الخروج من السرية والتكتم ، الى المجاهرة والعلنية : بل صار من المستحيل في ظل الاحتلال الفاضح ، وفي ظل عمليات التوسع واملاء الشروط ، ان يبقى المعنى الحقيقي للامن الاسرائيلي طي الكتمان والغموض .

لقد نمت فكرة الامن الاسرائيلي وتطورت وتبلورت ملامحها وابعادها ، تبعا لتطور وتبلور الاطماع الاسرائيلية في المنطقة، وتبعا لتبلور استراتيجية الاحتلال الاسرائيلي ، حتى اصبح واضحا ان الامن الاسرائيلي والاحتلال الاسرائيلي ، هما وجهان لعملة واحدة . فضرورات الامن الاسرائيلية تفرض الاحتلال دائما ، والاحتلال يتطلب دائما المزيد من الاجراءات الامنية ! .

ومن يتتبع حركة التوسع الاسرائيلية منذ بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين ، يرى بوضوح كيف لبس الاحتلال الاسرائيلي دائما ثوب ضرورات الامن واختفى وراءه ، ويرى انه مازال حتى الان يحاول لبسه

والاختفاء وراءه ، كما يرى ان قادة اسرائيل الذين حرصوا دائما على تجاهل حدود اسرائيل ، وامتنعوا عن تقديم رسم تقريبي أو نهائي لهذه الحدود ، وابقوها قابلة للتطور والتبدل والاتساع . قد حرصوا ايضا على ان تبقى فكرة الامن الاسرائيلي فضفاضة ، غامضة ، غير محددة ، وقابلة دائما للتغير والتطور والتوسع .

في عام ١٩٥١ تحدث بن غوريون في مقدمة الكتاب السنوي الاسرائيلي عن حدود اسرائيل فقال : « ان اسرائيل دولة ليست مطابقة لارضها وشعبها ، وعلينا ان نقول ان الدولة قامت فوق جزء من أرض اسرائيل» .

اما في عام ١٩٧١ ، وبعد عشرين عاما من هذا القول ، فقد قالت غولدا مائير . « ان الحدود الدولية لاسرائيل ، تتحدد حيث يستوطن اليهود » .

وهذا القول لزعيمين ومؤسسين لاسرائيل ، يعني ، ان حدود اسرائيل « غير المعروفة » ، قابلة دائما للاتساع بمقدار ما تستطيع اسرائيل توسيعها ، بل انها ستبقى غير محددة ، بانتظار الظروف الملائمة لتوسيعها .

وفي ضوء هذا المعنى المفتوح والغامض وغير المحدد ، لحدود اسرائيل، انتقل الاحتلال الاسرائيلي وتدرج من شكل استيطان بعض القرى او المناطق في فلسطين ، الى مرحلة التقسيم في عام ١٩٤٧ ، الى احتلال سيناء عام ١٩٥٦ الى احتلال الجولان وسيناء وما بقي من فلسطين في عام ١٩٦٧ ، الى احتلال الجنوب اللبناني في عام ١٩٧٨ ، ثم الى احتلال ما يقرب من ثلثي الاراضي اللبنانية في حزيران الماضي . والانتقال من محاولة ابتلاع الجولان وفلسطين ومحاولة الهيمنة الجزئية على بعض المناطق العربية ، الى محاولة بسط الهيمنة الكاملة على المنطقة العربية كلها .

أما مفهوم الامن الاسرائيلي ، فقد تدرج وانتقل بدوره ، من شكل الاعتداء ، بحجة الدفاع عن حق العيش في الاراضي المقدسة ، الى حق حماية المستوطنين اليهود الجدد في هذه الارض ، ثم تدرج فاصبح ذريعة للدفاع عن « الكيان » الذي استمر في الاتساع ، من بضعة مستوطنات ، الى « دولة » ومن دولة ، الى كيان متحول قابل للتوسع ، بل الى كيان مصر على التوسع المتواصل والسيطرة المتزايدة .

لقد اتسع معنى الامن الاسرائيلي وتطور ، حتى صار من الصعب بل من المستحيل تقدير او معرفة مدى حساسيته ، ومعرفة ما يهدده ، او معرفة الحد الذي يقف عنده ، وحتى صار العدوان الاسرائيلي بموجب هذا المفهوم ، ضرورة ، ليس للدفاع عن « الدولة » فحسب ، بل عن المناطق الجديدة التي احتلت بحجة الامن ، والتي تتسع باستمرار والتي اصبح الاحتفاظ بها ، ضرورة امنية للدفاع عن مناطق قد احتلت من قبل.

وهكذا اصبح كل احتلال جديد ، او عملية اعتداء اسرائيلية جديدة، كبيرة أم صغيرة ، تنفذ بحجة ضرورات الامن ، باعتبارها عملية وقائية لا مجال لتفاديها أو تجنبها ، أو التخفيف من قسوتها ، مثلما اصبحت ضرورات الامن ، دافعا ومبررا لتوسع جديد ، يحتاج بدوره الى توسع لاحق ، يحمي او يساعد على حماية ما سبقه ! .

ويبدو ان حدود الامن الاسرائيلي ، قد تجاوزت هذا كله ، الى محاولة بسط الهيمنة الكاملة ليس على المنطقة العربية وحدها ، بل على منطقة اوسع بكثير ، تشمل تركيا وايران وباكستان وافريقيا الشمالية والوسطى ... ففي محاضرة القاها وزير الدفاع الاسرائيلي ارئيل شارون في ندوة معهد الدراسات الإستراتيجية التابع لجامعة تل ابيب حول المشاكل الاستراتيجية لاسرائيل في الثمانينات ، ونشرتها صحيفة معاريف الاسرائيلية بتاريخ ١٩٨١/١٢/١٨ ، حدد ارئيل شارون « مشاكل

اسرائيل الامنية » في الثمانينات فقال : ان هذه المشاكل تنبع من المخاطر التالية : المواجهة العربية ، والتوسع السوفيتي . وأكد ان مواجهة هذه المخاطر الامنية تتطلب توسيع المصلحة الاستراتيجية الامنية الاسرائيلية في دائرتين ، أو في مجالين جغرافيين اخرين ، لهما تأثير امني ، عدا الدائرة التقليدية التي تحيط باسرائيل .

الدائرة الاولى ، تتعلق بالدول العربية التي قد ترسل قوات خاصة الى منطقة المواجهة ، أو حتى بواسطة تنفيذ عملية جوية وبحرية مباشرة ضد اسرائيل .

اما الدائرة الثانية . فتشمل تلك الدول الخارجية التي قد يؤثر مركزها وتوجهها السياسي ـ الاستراتيجي ، على الامن الاسرائيلي تأثيرا مباشرا ، اي ان من الضروري كما يقول شارون ، توسيع مجال المصلحة الاستراتيجية الامنية الاسرائيلية في الشرق الاوسط ، على شواطىء البحر المتوسط والبحر الاحمر ، حتى يشمل في (الثمانينات) دولا كتركيا وايران وباكستان ومناطق الخليج « الفارسي » وافريقيا وخاصة دول افريقيا الشمالية والوسطى .

وهذا يتطلب كما قال شارون ، ضمان قدرة اسرائيل في الحفاظ على ميزان القوى ، وتفوق كيفي وتكنلوجي ، يفوق اي ائتلاف حربي عربي مشترك .

ان توسيع المصلحة الاستراتيجية الامنية الاسرائيلية ، حتى تشمل كل هذه الرقعة الواسعة والخطيرة من العالم ، وخلال ثلث قرن ، يكشف مدى طموح الاطماع الاسرائيلية ونية اسرائيل في السيطرة ، خلال الفترة المتبقية من هذا القرن .

ويمكن من خلال استراتيجية الثمانينات هذه ، فهم أبعاد الغزو الاسرائيلي للبنان بانه خطوة واسعة في تطبيق نظرية الامن الاسرائيلية التي

كشف عنها شارون في محاضرته التي اشرنا اليها وليس اجراء امنيـا ، ستعود أسرائيل بعده الى الانسحاب من لبنان .

في رواية « خربة خزعة » للكاتب الاسرائيلي « يزهار سميلانسكي »، شهادة حية وواقعية ، تكشف الاسلوب الذي اتبعته اسرائيل في اقامة كيانها ، تقد تحدث هذا الكاتب عن الطريق التي تمت بها عملية تشريد او قتل سكان قرية عربية في فلسطين ، ليسكنها ويمتلكها مهاجرون يهود . هذه العملية التي تحدث عنها « سميلانسكي » وشارك هو نفسه فيها كجندي في جيش الاحتلال ، هي اختصار او تكثيف للاسلوب الذي اقامت به اسرائيل كيانها كله ، فقد تكررت قصة « خربة خزعة » في مئات القرى والمناطق العربية في ديرياسين،وفي كفرقاسم ، وقبية ، ونحالين .. ثم اتسعت وازدادت اتساعا ، حتى وصلت الى الحدود التي وصلت اليهـا الان .

في بداية الاحتلال الاسرائيلي ، كان القتل والتشريد والتوسع ، يتم باسم حق اليهود بالعودة الى ارض الميعاد ، الا ان نظرية الامن الاسرائيلية تجاوزت مهمة العودة الى ارض الميعاد ، واصبحت تعني حق الدفاع عن هذه الارض ، ثم حق الدفاع عن « أرض ميعاد » غير محددة ، وحق شن ما اسماه قادة اسرائيل « بالحرب الوقائية » التي تستند على افتراض ، ان العرب ينوون شن حرب ضد اسرائيل ، وما داموا ينوون ذلك ، فان من حق اسرائيل ، ان تبادر الى شن هذه الحرب الوقائيـة لتحقيق اكثر من هدف في مقدمتها :

ــ تدمير الجيوش العربية ، كلما بدات في بناء قدراتها الذاتية ، وارغامها على البدء من الصفر ، وتحطيم معنوياتها وايصالها الى حالـة من الانكسار والعجز والياس ، تكون اهم ضمانة لامن اسرائيل واستمرار تفوقهـا .

– احتلال اراض جديدة ، تكون بمثابة بعد استراتيجي جديد ، وموقعا متقدما تستخدمه اسرائيل وتنطلق منه ، في اية حرب « وقائية » قادمة باتجاه عملية توسعية جديدة .

لقد ضمت الجولان ، بحجة ضرورات الامن ، وهي الآن في طريقها الى ضم الضفة الغربية وقطاع غـزة .

وبحجة الامن ايضا ، اشترطت تجريد سيناء من السلاح ، وعزلت مصر عن محيطها العربي وعن انتمائها ، وابعدتها عن الاسهام في معركة المصير العربي ، واعطت لنفسها حق قصف المفاعل النووي العراقي .

وبحجة الامن ، بدا قادة اسرائيل ، يتحدثون مؤخرا ، عما تسمح به اسرائيل ، وعما لا تسمح به في المنطقة في المجال السياسي والعسكري والاجتماعي ، لقد اقتضت استراتيجية الامن الاسرائيلية أن تقوم اسرائيل في عام ١٩٧٨ باحتلال تمهيدي لجنوب لبنان ، يشبه الى حد كبير احتلالها لسيناء عام ١٩٥٦ واقتضت في هذا العام أن تقوم بعمل « وقائي » آخر ، اكملت به ما بداته في عام ١٩٧٨ فقد احتلت في حزيران الماضي معظم الاراضي اللبنانية بحجة ابعاد مدافع المقاتلين الفلسطينيين عن سكان الجليل مسافة تتراوح من ٤٠ و ٤٥ كيلو مترا .

وتاكيدا لصحة هذه الذريعة الامنية الكاذبة ، اسمت اسرائيل ، هذه العملية « سلامة الجليل » او أمن الجليل .

إلا ان الهدف الحقيقي للغزو ، ما لبث ان تكشف وما لبث ان تطور ، من ابعاد مدافع المقاتلين الفلسطينيين ، الى إبادتهم ، والى اخراج القوات السورية من لبنان وابعاد النفوذ السوفيتي ، وتنصيب حكومة « قوية » في لبنان ، عليها ان تقيم معاهدة سلام مع اسرائيل ، على غرار اتفاقيات « كامب ديفيد » مع مصر .

ولكن في هذه المرة تعقد المعاهدة تحت حراب الغزاة وبشروطهم .

اما الآن وبعد اخراج المقاومة الفلسطينية من بيروت ، فقد تكشفت الاهداف الاسرائيلية اللاحقة التي كانت تحاول اسرائيل اخفاءها من وراء غزو لبنان ، لقد نقلها فيليب حبيب المبعوث الامريكي للمسؤلين اللبنانيين ، ونشرتها وكالة الانباء اللبنانية المركزية بتاريخ ١٩٨٢/١٢/٥ . وقد جاءت في سلسلة من الشروط والمطالب تلغي استقلال لبنان وسيادته على أرضه . أبرز هذه الشروط :

١ ــ حق اسرائيل في الاحتفاظ بنقاط مراقبة في جبل الباروك مع الطرق الموصلة اليها .

٢ ــ حق اسرائيل في الاستطلاع فوق الاراضي اللبنانية .

٣ ــ إقامة منطقة منزوعة السلاح ، داخل الاراضي اللبنانية وحدها ، يتراوح عمقها بين ٤٥ و ٥٠ كيلو مترا ويحق للجيش الاسرائيلي والجيش المحلي الانتشار فيها .

٤ ــ فتح الحدود اللبنانية الاسرائيلية أمام الناس والبضائع وتشكيل لجنة لإقامة علاقات طبيعية ، في مجالات الاقتصاد والسياحة والجمارك والزراعة والاتصالات اللاسلكية والنقل الجوي والبحري وإقامة مكتب للعلاقات .

٥ ــ توقيع معاهدة سلام وتطبيع العلاقات بين الطرفين .

ان هذه الشروط توضح ان « الهدف الامني » الذي دفع اسرائيل الى غزو لبنان ، لم يكن فقط حماية سلامة الجليل من مدافع الفلسطينيين ، بل نقل لبنان من خانة العروبة الى خانة الصهيونية ، بعد تدمير دوره الحضاري والثقافي والاقتصادي والاندفاع باتجاه بسط الهيمنة الاسرائيلية على المنطقة .

بل ان علماء الآثار في اسرائيل اكتشفوا آثاراً عبرية في الجنوب اللبناني ، تحمل الدليل على حق اسرائيل التاريخي والإلهي ، بهذه الارض تمهيدا للاستيطان والضم . !

في ندوة اقامتها صحيفة « معاريف » الاسرائيلية بتاريخ ١٩٧٣/٢/١٥ مع عدد من قادة اسرائيل العسكريين . قال اسحق رابين : « على اسرائيل ان تفضل عنصر الامن ، على ورقة السلام ، لان عنصر الامن هو مفتاح تحقيق السلام من جانب الدول العربية » .

وقال ، موشى دايان في الندوة نفسها : « لا بد ان تكون هناك سيادة مكان سيادة ، ويهودمكان عرب .. وإلا فكيف سنقيم الدولة » ؟ ! .

وقال دايان في حديث نشرته صحيفة « يديعوت احرنوت » الاسرائيلة بتاريخ ١٩٧٦/٣/١١ . « يجب ان نحاول الوصول الى خيار ذري حتى يعرف العرب اننا نستطيع تدميرهم » .

ان اسحق رابين يسخر من « ورقة السلام » ويدعو الى التمسك بورقة القوة التي تخضع العرب وترغمهم على الاعتراف والتسليم بما تريده اسرائيل .

اما دايان ، فانه لا يرى الا طريقا واحدة لاقامة « الدولة » هي الغاء السيادة العربية والوجود العربي ، ليحل محلهما سيادة اسرائيل ووجود اليهود . ويرى ان ذلك لا يتحقق الا بالقوة ايضا ، ولهذا فانه ينادي باللجوء الى الخيار الذري الذي يلغي امكانية ان يكون « المكان » للعرب ، أو للعرب واليهود معا ، انه لليهودي وحده .. وإلا فأين ستقيم اسرائيل دولتها ، وكيف تبسط سيادتها ؟ ! على حد قول دايان .

ان وجود اسرائيل بهذا المعنى ، يعني إلغاء الوجود العربي . وسيادتها ، تعني طمس السيادة العربية . وامنها ، لا يتحقق ، إلا على

اساس قيام الوجود الاسرائيلي مكان الوجود العربي والسيادة الاسرائيلية مكان السيادة العربية . اي ان الامن الاسرائيلي يعني الغاء الوجود العربي .

لقد ساعد قادة اسرائيل وشجعهم ، على اعلان هذه المعادلة ، عاملان رئيسيان :

ـ تنامي قدرة اسرائيل العسكرية المستندة على دعم للولايات المتحدة الامريكية المطلق .

ـ استمرار حالة التخاذل والعجز العربية وضياع الهدف ، واستمرار النزاعات والنزيف .

بل ان هذا الواقع ، الذي تزداد فيه قوة اسرائيل وقدرتها على فرض شروطها وبسط نفوذها وتزداد فيه حالة التخاذل العربي والقبول المتصل بالتخلي عن « السيادة والمكان » للاسرائيليين ، هو الذي اكسب نظرية الامن الاسرائيلية المزيد من التطرف والتعنت واكسبها الحساسية العدوانية التي ظهرت عبر تصريحات وتهديدات قادة اسرائيل ، قبيل غزو لبنان ، بل تمهيدا لهذا الغزو .

فقد كشف هؤلاء ، عن مفهوم جديد متطور ، شديد الحساسية والعصبية والتطرف « للامن الاسرائيلي » ، يعتبر كل اعتداء يقع على اي اسرائيلي سواء داخل الاراضي المحتلة او خارجها ، عبر الحدود اللبنانية الاسرائيلية او عبر غيرها من الحدود ... اعتداء على امنها ، سترد عليه بأقسى الاساليب ...

ولقد ردت اسرائيل فعلاً بأقسى الاساليب واشرس انواع العدوان ، عندما قامت في مطلع حزيران الماضي بغزو لبنان متذرعة بمحاولة اغتيال

السفير الاسرائيلي في لندن ، فقد اتهمت اسرائيل منظمة التحرير بمحاولة الاغتيال وبخرق اتفاقية وقف النار في الجنوب ، وقامت بتنفيذ حكمها ليس على منظمة التحرير الفلسطينية وحدها ، بل على لبنان ، واصبح من ضرورات أمنها ، ان تبقى في لبنان ، وان تبسط سيطرتها عليه ، وتجعل من اراضيه موقعا متقدما باتجاه المزيد من الاحتلال وبسط النفوذ والهيمنة والاخضاع ، بعد ان كانت ضرورات امنها تقتضي ابعاد مدافع المقاتلين الفلسطينيين مسافة خمسة واربعين كيلو مترا ! .

ويبدو الآن ، ان نظرية الامن الاسرائيلية قد تجاوزت الحرب الوقائية التي اعتادت اسرائيل ان تلجا اليها دائما ، وتستخدم فيها المدافع والطيران وتقصف الاهداف العسكرية والمدنية وتحتل المزيد من الاراضي .. الى استخدام نوع جديد من « الحرب الوقائية » بالاضافة الى الشكل التقليدي ، يمكن تسميته بالحرب الثقافية والاجتماعية . هدف هذه الحرب ، تشويه الثقافة العربية وتغذية أو تكريس واقع التمزق والتناحر والتخلف الفكري والعلمي في الوطن العربي . فقد اكتشف قادة اسرائيل ان الهزيمة العسكرية ضد العرب ، لا يمكن ضمان فاعليتها واستمرارها ، مالم ترافقها هزيمة اخرى على الجبهة الثقافية والحضارية .

ولهذا ، فان اسرائيل ، وهي تخوض حربها « الوقائية » بالاسلحة التقليدية ، لتوسيع رقعتها الجغرافية واثبات تفوقها العسكري والتكنولوجي والحاق الهزيمة بالحاضر العربي ، فانها ايضا تخوض حربها « الوقائية » الاخرى ضد الماضي العربي ، ضد التاريخ ، وضد الحس الحضاري للانسان العربي ، لتخضع الماضي وتهزم حقائق التاريخ ، لتضمن اخضاع الجغرافيا العربية واخضاع الحاضر والمستقبل العربيين.

واسرائيلعندما تعود الآن ، الى اعماق تاريخ هذه المنطقة ، فانها لا تعود لتكتشف «حقها الإلهي » في الاراضي العربية ، ولا لتثبت حضور

اليهود التاريخي فيها ، انها تعود الى أعماق تاريخ هذه المنطقة ، لتكشف لنا تاريخ الاقتتال والتمزق العربي ، انها تعود اليه ، لتبعث وتستثمر كل التناقضات والخلافات والتشويهات والصراعات القبلية والمذهبية والاجتماعية والسياسية وكل الاخفاقات والتراجعات وبواعث اليأس ، ولترسخ في اذهاننا فكرة واحدة هي ، ان تاريخنا العربي لم يكن اكثر من سلسلة من الحماقات والصراعات والفتن والاقتتال القبلي والطائفي . وان من البدهي أن يكون حاضرنا ومستقبلنا انعكاسا لهذا التاريخ الطويل من التخبط والحماقات ..

هذه الحرب الامنية الحديثة ،ضد العرب ، لم تعد حربا مقتصرة على الحدود الجغرافية او حربا في الحاضر وصولاً لامتلاك المستقبل ، لقد اصبحت حربا شديدة التعقيد والتطور ، تتوجه الى اعماق التاريخ لاخضاعه واحتلاله باعتبار ذلك اكبر ضمانة لامتلاك المستقبل واحتلاله .

وحرباً لاحتلال الزمن العربي والارادة العربية والذاكرة الحضارية العربية ، استكمالاً وترسيخا لاحتلال الارض واخضاع الانسان ..

ان اسرائيل في حربها « الامنية » الحديثة هذه ، تريد أن تنتزع منا ، حتى امكانية استنادنا على تاريخنا وماضينا ، اذا خذلنا الواقع الراهن ، وعجزنا عن الاستناد عليه ، أو خذلتنا ارادتنا ووعينا ، أو خذلنا وعي وإرادة وذاكرة الحاكم العربي .

وهي في هذا النوع من الحروب تستخدم اطول جبهة اعلامية ، وتجند لها احدث وسائل واساليب الحرب الاعلامية والنفسية والثقافية لابراز الجوانب السلبية في تاريخنا وفي تراثنا السياسي والثقافي ، ولتشويه ، او تزوير الكثير من الحقائق التاريخية ، تارة عبر بعض المستشرقين المعادين للعرب والاسلام وللشرق كله ، وتارة عبر بعض علماء الآثار او بعض البعثات الاثرية الغربية الصهيونية او المائلة لها .

ومن يتابع البرامج المتنوعة التي تبثها الاذاعة الاسرائيلية بالعربية يقف على جانب من هذه الحرب ويرى بوضوح كيف يستخدم الفكر الصهيوني والتقدم العلمي والثقافي والفني والدعائي ، الاسرائيلي والصهيوني ، للاسهام في إفساد او تعطيل الذوق العربي والفكر العربي والسلوك العربي . عبر برامج اذاعية او تلفزيونية مدروسة وموجهة للمستمع العربي ، يشارك في وضعها مئات المتخصصين ، تروج لاكثر انواع المفاهيم والعادات والتقاليد والافكار .. تخلفا وانغلاقا وتعارضا مع الحياة والابداع ، ومع تراثنا الحضاري . وتقدمه لنا باعتباره جزءاً اصيلاً وهاما من تراثنا الثقافي والفكري والاخلاقي ، كما تقدم او تروج ، عبر هذه البرامج ، لاكثر انواع الفناء والشعر والموعظة والنوادر ... اسفافا وابتذالاً وسقوطاً ...

فاسرائيل تدرك ، ان « امنها » لا يمكن ان يتحقق او يستتب ، مهما حققت على الجبهة العسكرية من انتصارات ، ومهما فرضت على الجبهة السياسية من شروط ومكاسب ضد العرب ، مالم تلحق بهم الهزيمة الحاسمة على الجبهة الثقافية والحضارية ، هزيمة الفكر والثقافة والذوق ، وهزيمة الوعي والذاكرة التاريخية .. ومالم تحكم من حولهم دوائر التخلف والعجز والجهل والفجاجة الفكرية الثقافية والفنية ، ومالم تحصن وجودها بكل هذه الحواجز والاسوار ..

جغرافياً ، تريد اسرائيل ان تحصن وجودها بحاجز جغرافي منيع ، من الجبال او الانهار او الصحارى يحميها ويحفظ امنها ، ويبعدها عن انتقام او عقاب محيطها المقهور .

عسكرياً : تعمل دائما على خلق « سور امني » ، من الاسلحة المتطورة المتفوقة على العرب جميعا ، من بينها السلاح الذري ، والتحالف الاستراتيجي مع الولايات المتحدة الامريكية . وهذا ما أكد عليه موشى

دايان في عام ١٩٧٦ عندما قال : يجب ان نحاول الوصول الى خيار ذري، حتى يعرف العرب اننا نستطيع تدميرهم .

اجتماعياً : تعمل على خلق حاجز امني من المنازعات والخصومات العربية ، حاجز من الانقسامات والفرقه والتمزق والتناحر يعفيها من مواصلة القتال ويساعدها على اخضاع محيطها ويضمن لها مواصلة التفوق والتقدم على هذا المحيط ...

ثقافياً : تسعى بكل الوسائل لخلق حاجز امني من الجهل العربي ومن الامية والجمود والتخلف .

صناعياً : تريد ان يقتصر اهتمام المجتمع العربي على الاستهلاك ، وان يبتعد عن التفكير في الانتاج ، بل ان من اهداف حروب اسرائيل المتواصلة ، تدمير كل احتمال لقيام صناعة عربية متطورة وابقاء هذه الصناعة في حدودها البدائية ... وهدر كل الثروات العربية في الاستهلاك ...

أي ان اسرائيل تريد وفق نظريتها الخاصة والفريدة للامن . ان تقيم من حولها بالاضافة الى حواجز الامن الجغرافية والعسكرية ، حواجز امنية اخرى ، من العجز العربي والشلل العربي ، واليأس العربي ... حواجز من التمزق الاقليمي والمذهبي والطائفي، لتضمن استمرار وجودها واحتلالها وتفوقها وتقدمها وهيمنتها ...

والمعادلة الامنية التي تريد اسرائيل فرضها في المنطقة ، تريدها ان تكون على النحو التالي :

ــ امن في اسرائيل ، يقابله في الجانب العربي خوف وقلق وتناحر وانقسامات وفتن وصراعات اقليمية ومذهبية وطائفية ..

— تقدم في اسرائيل ، يقابله في الجانب العربي تخلف مستمر في كل المجالات او تطور سطحي او شكلي او استهلاكي .

— قوة في اسرائيل ، يقابلها في الجانب العربي ، ضعف وعجز ويأس ولا مبالاة . بل أن الامن الاسرائيلي يتطلب الغاء حتى الوجود العربي . « لا بد ان تكون هناك سيادة مكان سيادة ، ويهود مكان عـرب . وإلا فكيف سنقيم الدولـة » ؟ ! .

في حديث مع ارئيل شارون ، وزير الدفاع الاسرائيلي ، اجرتـه معه مجلة « باري ماتش » الفرنسية بتاريخ ١٩٨٢/٢/٢٥ تحدثشارون عن بعض مطالب او شروط اسرائيل الامنية .

من هذه الشروط :

١ — عدم السماح لاي بلد عربي بامتلاك قنبلة نووية . وهذا مافعلته عندما دمرت المفاعل النووي العراقي .

٢ — ثمة صمام « أمان » آخر لاسرائيل — كما يقول شارون — هو الوضع الاقليمي السائد في المنطقة . اي واقع التجزئة والانقسام .

٣ — لن تسمح اسرائيل بتزويد الاردن بأسلحة امريكية متطورة .

٤ — لن تسمح اسرائيل بان تتحول سيناء الى قاعـدة عسكريـة مصرية .

٥ — لن تسمح اسرائيل «باحتلال» لبنان على أيدي القوات السورية .

٦ — لن تسمح اسرائيل ايضا بدخول قوات عراقية الى الاردن .

هذه هي بعض ممنوعات شارون وبعض شروط اسرائيل الامنية ، وبعض مالاتسمح به دفاعا عن امنها . اما بقية الشروط فانها قادمة وسوف يجيء الوقت المناسب للكشف عنها !!

ان هذه الشروط تعني حتى الان ، ان على العرب ان لايفكروا ابدا باقتناء سلاح متطور ، وان لا يفكر قطر عربي بنجدة قطر مجاور اذا تعرض لتهديد خارجي ، وان يصرف العرب انظارهم عن فكرة الوحدة او محاولة تغيير الواقع الاقليمي العربي المجزأ . .

بل انها لاتسمح لمصر ، وهي الدولة العربية الوحيدة التي عقدت معها معاهدة صلح ، ان تتصرف بحرية فوق اراضيها المتاخمة لاسرائيل .

بتعبير آخر ، اذا اراد العرب ، ان يصلوا الى « السلام » مع اسرائيل ويتجنبوا حروبها الانتقامية . فان عليهم ، ان يتخلوا عن روابطهم المصيرية ، ويكفوا عن العمل المشترك ، او التفكير بالوحدة او التقدم وبناء القوة الذاتية الرادعة ، وعن التفكير في استرجاع ماقامت باحتلاله من الاراضي العربية .

فالسلام مع اسرائيل ، يعني حسب مفهومها للامن والسلام ، ان لا يطرأ اي تغيير جذري او جوهري على واقع التخلف والتجزئة والعجز العربي ، ويعني ان يستمر العرب في حالة العجز والتخلف والتجزئة . . .

ويجب ان نعترف ، بان اسرائيل ، قد حققت حتى الان ، انجازات كثيرة في طريق تحقيق نظريتها للامن ، في ظل غياب الاستراتيجية العربية وتغييب دور الجماهير العربية وقهر ارادتها . .

لقد كانت اسرائيل ترى ان الوحدة او التنسيق بين الجبهتين السورية والمصرية ، يهدد امنها ووجودها . . وقد نجحت ، ولو مؤقتا ، في ابعاد مصر ، بل نجحت في عزلها وتكبيلها باتفاقيات كامب ديفيد ونهج السادات .

وكانت تخشى ان يقوم العراق ، مقام مصر في مواجهة اسرائيل وفي تعويض ماخسره العرب بسبب خروج مصر من الصف العربي او خروجها من موقع المواجهة . الا ان العراق انغمس بعد عزل مصر وبعد اخراجها

من موقع المواجهة مع اسرائيل ، في حرب يائسة ومدمرة مع ايران ،شلت دوره وطاقاته . بل استنزفت الكثير من الطاقات العربية وادت الى المزيد من الانقسامات في الصف العربي والمعسكر المؤيد للقضية العربية ، وقد عجزت كل المحاولات عن ايقافها وايقاف ماينجم عنها من نزيف مأساوي.

وكانت اسرائيل تخشى من صيغ التعايش الديني والاجتماعي في المنطقة العربية باعتبار هذا التعايش يفضح كيانها العنصري الديني والعرقي المنغلق ويهدد هذا الكيان . وها هي تنجح في استثمار الجهل العربي والتخلف العربي لتغذية الاحقاد ونزعات التعصب لضرب هذا التعايش .

لقد عملت على قيام دويلات طائفية عنصرية تكون على شاكلتها في المنطقة ، وها هي تطيل المكوث في لبنان للاشراف على تنفيذ هذا الانجاز الامني الكبير ، وتوكل للرائد سعد حداد القيام بهذا الدور في جنوب لبنان كما توكله لبعض عملائها في جبل لبنان . . .

وكانت تخشى من الوحدة العربية او التضامن العربي ، وها هي ترى عجز العرب حتى عن اللقاء ، الا على حساب قضيتهم وحقوقهم .

* * *

ولكن هل استطاعت اسرائيل حقا ان تحقق « امنها » رغم كل انجازاتها ومكاسبها على هذه الطريق ؟ . هل وصلت اسرائيل الى حالة الاحساس بالامن او الاحساس بالمناعة ، او الثقة بما احاطت به كيانها من حواجز وضمانات امنية ؟ وهل اطمأنت الى جدوى احزمة الامن العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي حاولت ان تحكمها من حولها ؟!

ثم الا يحسن التساؤل : عن السبب النفسي الكامن وراء تنامي نزعة العدوان والقتل والتدمير والتوسع ونزعة التسلح المتفوق لدى اسرائيل

رغم كل انتصاراتها العسكرية وتفوقها ، ورغم حالة التمزق والتفكك والعجز والتراجع العربية . لماذا تزداد مخاوف اسرائيل ويزداد قلقها « الامني » ، كلما اقتربت من تحقيق اهدافها واطماعها ـ لماذا تحس دائما بافتقاد الامان ، كلما بدت وكأنها قد فرضت على العرب شروط امنها ، او امتلكت وسائل الامان ؟

لماذا يزداد قلق اسرائيل ؛ لماذا لم تستطع ان تطمئن الى « امنها » رغم عزل مصر،واستنزاف العراق،وضم الجولان،وابتلاع فلسطين بكاملها، واحتلال لبنان ، وتحييد معظم الجبهات العربية ، وتعطيل امكانية ايجاد توازن استراتيجي بينها وبين مابقي من الجبهات من خلال شن الحروب « الوقائية » ورغم كل مايعانيه العرب من مختلف انواع التمزق والانقسام والعجز عن الفعل او عدم الرغبة في الفعل ؟!

ولماذا لاتهدا مخاوفها في ظل الاتفاق الاستراتيجي مع امريكا وتكديس الاسلحة المتطورة ؟

لماذا يتولد لديها الشعور بافتقاد الامان كلما اتسعت وقويت عسكريا وبشريا ، وحصلت على شروط اكثر ملاءمة لأمنها ؟

باعتقادي ، ان مصدر القلق والخوف ، وافتقاد الامان عند اسرائيل، لا ينبع من الواقع العربي الراهن ، فالواقع العربي الراهن لا يثير قلق اسرائيل ومخاوفها ، انه ينبع من حقائق تاريخية وجغرافية وبشرية موضوعية ، يدركها قادة اسرائيل جيدا ، لكنهم يواجهونها بالعنادوالمكابرة ومحاولة استباق حركة التاريخ لتغيير مسارها والسيطرة عليها ، انهم برغم مكابرتهم وعنادهم واصرارهم على تحقيق أهدافهم ، يدركون ، ان حقائق التاريخ والجغرافيا ، قد يمكن طمسها برماد الزمن ، او برماد الحروب ، او برماد التخلف ، او بركام الدمار واليأس ، او بخيانة او تواطؤ او تخاذل بعض الحكام العرب ، الى حين ، لكنهم يدركون ايضا ،

ان ذلك لايمكن ان يستمر ، وان مسار التاريخ ، ومسار الاحداث في المنطقة ، سيتغير مع نمو الوعي العربي ، ونمو الارادة العربية ، ومع تغيير الشروط المفروضة على الانسان العربي ..

وباعتقادي ان قادة اسرائيل قلقون دائما على الأمن ، لانهم يدركون ايضا ، ان عنصر او عامل القوة ، الذي تستخدمه اسرائيل في توسيع رقعتها وفرض شروطها ، هو عامل يمكن ان ينقلب او يتغير ، لانه مرهون باستمرار بعض العوامل والظروف المتغيرة . ثم ان احساس اسرائيل المتصل بافتقاد الامان ، يعود ايضا الى عنصر الاحتلال نفسه ، الذي اتخذته اسرائيل وسيلة لضمان وجودها وأمنها واستخدمت خلاله كل اساليب القهر والاذلال ضد الانسان العربي ...

ان هذه العناصر التي تستخدمها اسرائيل لتعزيز وجودها وضمان أمنها ، هي نفسها العامل الذي يقوض الامان الاسرائيلي ، ويجعله مستحيلا . حتى ان علاقاتها مع أنور السادات بعد كامب ديفيد ، كانت لا تقوم على الثقة والاطمئنان والاحساس بالامان ، رغم كل ما قدمه من خدمات مجانية ، ورغم كل ما اظهره واكده لها من اخلاص . بل استطيع القول، ان هذه العلاقة كانت تقوم على الشك والمخاوف من قبل اسرائيل . والا فلماذا جردت سيناء من السلاح وزرعتها بقوات حلف الاطلسي ؟ ولماذا دمرت مدينة « يميت » واقتلعت حتى الاشجار والنباتات قبل ان تنسحب منها ؟!

ولماذا تعمل الان، بكل الوسائل لاضعاف الجيش المصري ، وتحشد عددا كبيرا من قواتها على الحدود المصرية ؟

ولماذا تخشى حتى من وكلاء الولايات المتحدة الامريكية في المنطقة ؟.

الا يعني ، تزايد القسوة الاسرائيلية ، وتزايد عمليات القتل والتدمير والاحتلال ، وتزايد التسلح ، وتزايد احكام القيود ، حول محيطها

العربي ، حتى حول لبنان ، وتزايد التصلب في « شروط السلام » .. ان اسرائيل تزداد احساسا بافتقاد الامان بدلا من تزايد احساسها به؟!.

الا يعني ، ان اسرائيل غير واثقة وغير مطمئنة من كل قيودها واسلحتها وضماناتها ، ومن مناعة وجدوى أسوار الامن من حولها . والى شكها العميق بجدوى هذه الضمانات الامنية كلها ؟!.

الا يعني ، تشددها في شروطها ، حتى مع الذين تحالفوا معها من الحكام العرب ، انها تشك بجدوى هذه الشروط . وبقدرتها على الصمود والاستمرار في وجه الحقائق التاريخية والحقائق الاجتماعية ، وكل الحقائق والقوانين التي تتحكم بمسيرة التاريخ ؟!

لقد قويت اسرائيل ، واتسعت رقعة احتلالها وسيطرتها ، وفرضت على الكثير من العرب شروطها التي كانت مرفوضة منذ سنوات ، بل منذ شهور ، الا ان مشكلتها بقيت مستمرة . لقد بقي احساسها بالقوة والتفوق على محيطها العربي ، لايرافقه احساس حقيقي بالامن ، بل يمكن القول . ان اسرائيل تزداد احساسا بالحاجة الى الامن ، كلما توسعت وكلما زادت من رقعة احتلالها .

ان اسرائيل التي تحتل بحجة الامن او بحجة ايجاد او تامين سياج امني جديد ، يحقق لها المزيد من الامان . تجد نفسها دائما وبعد كل احتلال أو عدوان أمام حدود جديدة غير آمنة « وغير معترف بها » وأمام مشردين او مقهورين جديدين قد احتلت اراضيهم ودمرت منازلهم. وقتل الكثير من اهلهم ، انضموا الى آخرين قد احتلت اسرائيل ارضهم ودمرت منازلهم وقتلت الكثير منهم ، ولن يسكتوا جميعا على القتل والاحتلال والتدمير . وستجد نفسها مجددا ، أمام الحاجة الى المزيد من القتل والتشريد والتدمير والاحتلال لتحمي « الحدود الامنية »

السابقة بحدود امنية جديدة ، او لتحمي الاحتلال السابق باحتلال لاحق ، ولتدفع الى الوراء ، فوجا جديدا من المشردين والمقهورين الذين ينتظرون مع غيرهم ،الفرصة السانحة والظروف الملائمة للانتقام ولاستعادة الحقوق .

ورغم هذا . بل رغم وعي قادة اسرائيل لهذا كله ، فانهم ماضون في البحث عن الامان ، ولكن ، في الوسيلة التي تجعل الامن مستحيلا ، ولهذا نراهم يزدادون اصرارا واستعدادا للسير في طريق التفوق ، وفي طريق استباق حركة التاريخ والسيطرة على مسارها ، وفي تدمير الاحتمالات والعوامل التي من شأنها ان تقلب او تغير المعادلة الراهنة بين العرب واسرائيل ، او تعيد حركة الحياة والتاريخ الى مسارها الصحيح ..

ولكن ماذا فعل العرب ، بل ماذا يفعلون الان ، لمواجهة مخاطر نظرية « الامن الاسرائيلي » التي تستند على التفويض الالهي في الاحتلال والتوسع والقتل والتشريد من جهة ، وعلى حماية وتغذية كل عوامل الانقسام والتمزق والاقتتال بين العرب ، وكل بواعث التخلف والجمود من جهة أخرى ؟

الاجابة لاتحتاج الى الاطالة ، فالعرب لم يفعلوا الكثير في هذا الاتجاه بل لم يفعلوا حتى الان مايبشر بتغيير قريب لهذه الصورة ، او للمعادلة الاسرائيلية العربية المغلوطة . ان التغيير الوحيد الذي طرا ، لم يكن ايجابيا ،فغالبية الانظمة العربية،بدات بالاقتراب من الشروط الاسرائيلية وبالمطالبة بالتعقل وبالتصديق على المعادلة الاسرائيلية العربية المغلوطة وبتقبلها واقرارها ، بدلا من رفضها والعمل على تغيير الظروف العوامل

المكونة لها ، ضمن استراتيجية عربية موحدة مدعمة بكل الاسباب والعوامل الكفيلة بضمان الامن العربي .

لقد انتقل هؤلاء ، من الاستهانة بالعدو ومن الاعتماد على حتمية انتصار الحق العربي . الى الاعتماد على القوى الخارجية بل علـى الولايات المتحدة الامريكية في لجم العدوان الاسرائيلي وايقاف اندفاعـه التوسعي . ونسوا او تناسوا ، ان امريكا واسرائيل شريكتان ، وان الاستهانة بالعدو،لا تضعف العدو أو تهزمه،بل تزيد من فرص نجاحه،وان الاعتماد فقط على فرضية انتصار الحق أو اعادته بالوكالة عن طريق القوى الخارجية ، هو امر مستحيل ، ونوع من انواع خداع النفس وسبب في استمرار ضياع هذا الحق .

فالطريق الى تحقيق الامن العربي لايمر عبر الفرضيات والحتميات المعزولة عن ارادة الانسان ووعيه او عبر استدرار عطف الاعداء ولايمر عبر العواصم الكبيرة او الصغيرة . انه يمر اولا عبر بناء الانسان العربي المسلح بالوعي والارادة الحرة وبالاعتماد على استراتيجية عربية موحدة وملزمة ، مدعمة بكل ماتحتاج اليه من الانواع الممكنة من الدعم العربي والعالمي ..

لقد رسمت اسرائيل اهدافها واستراتيجيتها وعملت على توفير كل المقومات التي تضمن تحقيق هذه الاستراتيجية والاهداف . واستخدمت مختلف العناصر والعوامل والاسباب ، في اطار رؤية محددة وواضحة وخلال جهود متواترة لاتنقطع ولا تتراخى ، وها هي الان تنتقل من موقع الى آخر ، مقتربة اكثر من تحقيق اطماعها التوسعية وبسط نفوذها وهيمنتها ..

أما العرب ، فانهم مازالوا يؤكدون من خلال ممارساتهم ومواقفهم ، وكانهم بلا اهداف اوقضية ، او كانهم لايعملون على تحقيق اهدافهم .

لقد ظهر هذا بوضوح وجلاء أكثر اثناء غزو اسرائيل للبنان رغم ما يحمله هذا الغزو من مخاطر ، ليس على أمن لبنان واستقلاله وسلامة اراضيه ، وليس على القضية الفلسطينية التي يزعم العرب جميعا انها قضيتهم الاساسية والجوهرية ، بل على بقية العواصم العربية وعلى مستقبل الامن العربي .

ان من أكبر مفارقات الواقع السياسي العربي الراهن ، ان العرب يزدادون انقساما وفرقة ولا مبالاة ... كلما ازدادت الحاجة الى تماسكهم وتضامنهم . وكلما ازداد حجم الاخطار والتحديات والتهديدات من حولهم ، وانهم يصبحون اكثر اهمالا للمقرارات الجماعية التي يتخذونها ، كلما اصبحت الحاجة اكبر للتقيد بها وبتنفيذها !

ان اسرائيل تحاول في سياستها العدوانية التوسعية ، ان تحول المستحيل الى واقع ، بينما يحول العرب في سياستهم المتراخية المغمضة، الممكن الى مستحيل ...!

لقد كان ممكنا ، ان يكون التضامن العربي ، عنصرا فعالا ومجديا في مواجهة الاطماع والمخططات الاسرائيلية ، لكن التضامن العربي الذي تدعو اليه جميع الانظمة العربية وجميع الشعوب العربية ايضا ، بقي امكانية تنتظر التحقيق ، بقي شكلا كلاميا مجردا يعوزه الفعل ..

ولقد كانت الوحدة بين مصر وسورية في عام ١٩٥٨ خطوة استراتيجية واعية في هذا الاتجاه ، لكنها لم تصمد ، بل لم توفر لها شروط الصمود ، فسقطت وعجز العرب عن استعادتها او عن الاستفادة من دروسها . وانتقلت مصر بعد ذلك الى الاتجاه المغاير حتى دخلت معتقل كامب ديفيد .!

وكان ممكنا أن تكون الثروات العربية الهائلة عاملا من عوامل التقوية الذاتية : فتساعد في بناء الانسان العربي ، بناء وعيه وارادته وتفجير

امكانياته . وعاملا من عوامل الضغط السياسي والاقتصادي على القوى التي تمول وتسلح العدوان الاسرائيلي على العرب ، لكن ذلك السلاح بقي معطلا بل كثيرا ما استخدم في تخريب الانسان العربي واضعاف ارادته وحوافزه .

ومازال الرد العربي على استراتيجية اسرائيل التوسعية العدوانية، ان لا تكون لهم استراتيجية أو تضامن او اتحاد . بل كان ردهم على التحدي الاسرائيلي ، المزيد من الانغماس في الخلافات والانقسامات والتمزق والمزيد من الاستهانة بالمسؤولية الوطنية والتاريخية ،والاندفاع في الصراعات الشخصية العابثة ومحاولة منحها المبررات الموضوعية والاخلاقية والايديولوجية ، والمزيد ايضا من الاستجابة او التكيف مع شروط الغزاة .. رغم كل مالدى العرب من طاقات وامكانيات وقدرة على التأثير والفعل ..

ولكن اذا كان العرب قد عجزوا حتى الآن عن رسم استراتيجية عربية موحدة ملزمة ، تضمن امنهم وسلامة اراضيهم فهل يجوز ان نصرف الانظار عن هذا الهدف المصيري ؟ ان حجم التحديات وتسارع الخطر الداهم المتمثل بالزحف الاسرائيلي المتسارع باتجاه العواصم العربية والذي تمركز بالامس القريب في قمم جبال لبنان مطلا براسه واسلحته واطماعه التوسعية ورغبته في الهيمنة على المشرق العربي كله ، يحتم على العرب المبادرة العاجلة لرسم استراتيجية عربية موحدة وملزمة تضمن الامن العربي وتقف في وجه المد الصهيوني الامبريالي الزاحف على كل الجبهات الجغرافية والسياسية والاقتصادية والثقافية ، تكون بمثابة اجراء امني وقائي عاجل يمكن ان تكون خطوطها الرئيسية على النحو التالي :

١ ـ تشكيل قوة عسكرية عربية موحدة ، من جميع الاقطار العربية ، يتم الاتفاق على عدد أفرادها ، وتوضع تحت قيادة عربية

عسكرية ومدنية موحدة لها صفة الاستقلال عن كل التأثيرات الاقليمية والقطرية ، وصلاحية اتخاذ القرار . وتكون مهمتها التعاون مع الجيوش النظامية الاخرى ، في الدفاع عن الاراضي العربية وعدم السماح باحتلال اي جزء من هذه الاراضي . وهذا من شانه ان يجعل المعركة مع العدو معركة قومية لا يمكن التهرب من الاسهام فيها بل يحتم على كل قطر عربي الدخول فيها كطرف اساسي وليس كطرف مساند .

٢ ـ تخصيص موازنة خاصة لهذه القوات تسهم فيها جميع الاقطار العربية وتوفر لهذه القوات كل ما يلزمها من تدريب واعداد وتسليح .

٣ ـ يتم توزيع هذه القوة على الحدود العربية المهددة ويمكن نقلها من جبهة الى اخرى ، حسب ضرورات الامن القومي وحسب وتقدير قيادتها الموحدة .

٤ ـ تحدد وتحصر مهمات هذه القوة ، في صد العدوان الخارجي. وتلتزم التزاما كاملا ودقيقا بعدم التدخل في الشؤون الداخلية لاي بلد عربي .

٥ ـ يمكن أن تتطور هذه القوة ، من قوة دفاع وردع ، الى قوة هجوم لتحرير الاراضي العربية المحتلة بالاشتراك مع جميع القوات العربية الاخرى .

٦ ـ احداث صناعة عسكرية عربية حديثة ، وتوفير كل مستلزمات هذه الصناعة ، ويتم توزيع انتاجها على الاقطار العربية ، حسب موقع كل قطر في مواجهة الاخطار والتهديدات الخارجية وحسب الضرورات الامنية ، ويمنع استخدام هذه الاسلحة في اي خلافات محلية او عربية.

ان مثل هذه الصناعة من شأنها ان تحرر الارادة العربية من احتمالات احتكار الاسلحة ، أو تقنينها . كما تحرر القرار العربي من التأثيرات الخارجية .

٧ ــ تخصيص مالا يقل عن عشرة بالمئة من ثروات كل بلد عربي لتمويل الحاجات العسكرية العربية وحاجات الامن العربي .

٨ ــ الاتفاق على سياسة اعلامية وسياسية وثقافية موحدة حيال بعض القضايا العربية الجوهرية للتعريف بهذه القضايا ودعمها في مختلف المجالات ، والاتفاق على التكلم حولها بلغة موحدة في المحافل العربية والدولية ، بهدف تكوين رأي عربي وعالمي موحد حيالها .

٩ ــ الاتفاق على منهج عربي تعليمي موحد ، يتم تدريسه في مختلف مراحل التعليم ، حول مسألة الصراع العربي الاسرائيلي وابعاد الخطر الصهيوني عن المصير العربي .

١٠ ــ يمكن ان تكون هذه الاستراتيجية بداية او نواة لاستراتيجية عربية اشمل واوسع ، تتجاوز مسألة الامن العربي والدفاع عن الاراضي العربية ، الى استعادة جميع الاراضي العربية المحتلة وتوحيد الوطن العربي وتطويره وازدهاره .

ان مثل هذه الاستراتيجية ، قد تواجه الكثير من العقبات ومحاولات التعطيل ، وقد لا تعطي النتائج المرجوة منها على المدى القريب ، لكنها قد تشكل محاولة جدية وفعالة ضد خطر الاطماع الاسرائيلية ، وضمانة امنية تقف في وجه نظرية الامن الاسرائيلية القائمة على البطش والاحتلال.

ولكن قد يتساءل الكثيرون ، ومن يضمن الالتزام العربي بتنفيذ هذه الاستراتيجية في غياب ارادة القتال ، وبروز « استراتيجية التنازلات »؟. وكيف يمكن تنفيذها ، في ظل تغييب ارادة الانسان العربي ؟. ومن يضمن ان لا تلاقي مثل هذه الاستراتيجية ، مالاقته جميع الاتفاقيات العربية من خذلان وفشل اذا ما تم الاتفاق على رسمها ؟

ونحن هـل يمكننا ان نقول : الا ان الوعـي والاخلاص والاحساس بالمسؤولية التاريخية والمصيرية ، هي الضمانة الوحيدة لرسم مثل هذه الاستراتيجية وتوفير شروط واسباب نجاحها ..

أزمة اللسانيّات واللسانيّين في الوطن العربي

مازن الوعر

١ ـ مدخل :

انعقدت في جامعة محمد الخامس بالرباط ـ المغرب وبالتحديد من ٢٨ تموز وحتى ٢٠ آب ١٩٨٢ الدورة العالمية السابعة للسانيات . وقد سبق للدورة اللسانية ان انعقدت ست مرات متواليات في اماكن مختلفة من الوطن العربي . فقد انعقدت مرتين في جامعة القاهرة في مصر (١٩٧٣ ـ ١٩٧٥) ومرتين في معهد بورقيبه للغات الحية في تونس (١٩٧٦ـ١٩٧٨) ثم مرتين في جامعة دمشق في سورية (١٩٨٠ ـ ١٩٨١) .

والواقع تعتبر الدورة العالمية السابعة للسانيات هذه استمرارا لتلك الدورات اللسانية السابقة . لقد ادار الدورة العالمية السابعة للسانيات الدكتور عبد الجليل الحجمري مدير المدرسة العليا للاساتذة (كلية التربية) التابعة لجامعة محمد الخامس . وقد نظمت هذه الدورة العالمية اللسانية السابعة بالتعاون مع المؤسسات العربية والاجنبية التالية :

١) مؤسسة فورد الاميركية .

٢) مكتب الشؤون التربوية والثقافية في وزارة الخارجية الاميركية .

٣) المجلس الثقافي البريطاني بالرباط .

٤) مكتب الخدمات الثقافية في السفارة الفرنسية بالرباط .

٥) الاوبلف (اتحاد الجامعات الناطقة جزئيا او كليا بالفرنسية) .

٦) المركز الثقافي الالماني بالرباط .

٧) الاليكسو (المنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم) .

٨) مكتب تنسيق التعريب بالرباط .

٩) معهد بورقيبة للغات الحية بتونس .

حضر الدورة العالمية السابعة للسانيات مختصون ومهتمون من العالم العربي (سورية ـ الكويت ـ الاردن ـ البحرين ـ السعودية ـ مصر ـ تونس ـ المغرب) والعالم الغربي (اميركا ـ بريطانيا ـ كندا ـ اسبانيا ـ فرنسا) .

ويمكننا حصر الموضوعات اللسانية التي دارت مناقشاتها في هذه الدورة حسب التالي :

(١) اللسانيات النظرية (العامة)

أ ـ الصوتيات

ب ــ النحويات
جـ ــ الدلاليات

(٢) اللسانيات التطبيقية (التعليمية)

أ ــ تعليم اللغة الام
ب ــ تعليم اللغة الاجنبية
جـ ــ أساليب التعليم والامتحانات .

(٣) اللسانيات النفسية (السيكولوجية)

أ ــ العلاقة بين علم اللسانيات وعلم النفس
ب ــ اللغة كظاهرة نفسية .
ج ــ المناهج الحديثة في علم اللسانيات النفسية .

(٤) اللسانيات البيولوجية (الدماغية)

أ ــ العلاقة بين علم اللسانيات وعلم البيولوجيا
ب ــ علم اللسانيات كفرع من العلوم الطبيعية .
جـ ــ علم اللسانيات البيولوجية وعلاقته بالنحو التوليدي والتحويلي .

(٥) اللسانيات والادب

أ ــ اسقاطات علم اللسانيات على الشعريات
ب ــ اسقاطات علم اللسانيات على البلاغة
جـ ــ اسقاطات علم اللسانيات على الاسلوبيات .

لقد نوقشت كل هذه الموضوعات اللسانية من خلال مسارات لغوية ثلاثــة .

١) المسار العربي (باللغة العربية) .
٢) المسار الانكليزي (باللغة الانكليزية) .
٣) المسار الفرنسي (باللغة الفرنسية) .

لقد كان الاطار العام لهذه المسارات الثلاثة واحداً بمعنى أن جميع هذه المسارات حاولت مناقشة الموضوعات اللسانية التي ذكرناها من قبل على الرغم من اختلاف وسيلة الاتصال والتبليغ والبيان . وقد قسمت المسارات الثلاثة الى دروس عامة ثم الى موائد مستديرة . ويمكننا حصر الموضوعات اللسانية التي قدمها الباحثون اللسانيون في الدروس العامة والموائد المستديرة حسب التالي :

ا ـ الدروس العامة :

(١) الصوتيات العامة :

١ ـ داوود عبده ـ الكويت (بالعربية) .
٢ ـ ادريس السغروشني ـ المغرب (بالعربية) .
٣ ـ فرولي Frawley ـ امريكا (بالانكليزية) .
٤ ـ ل. سلكيرك Selkerk ـ امريكا (بالانكليزية) .
٥ ـ ج. بوس Boas ـ فرنسا (بالفرنسية) .

(٢) النحويات العامة (التراكيب) .

١ ـ عبد القادر فاسي فهري ـ المغرب (بالعربية والفرنسية) .
٢ ـ احمد الادريسي ـ المغرب (بالعربية) .
٣ ـ احمد العلوي ـ المغرب (بالعربية) .
٤ ـ ت. بلور Bloor ـ امريكا (بالانكليزية) .

(٣) الدلاليات والمنطق .

١ ــ أحمد المتوكل ــ المغرب (بالعربية والفرنسية) .

٢ ــ طه عبد الرحمن ــ المغرب (بالعربية) .

(٤) اللسانيات التطبيقية .

١ ــ ي. هاتش Hatch ــ اميركا (بالانكليزية) .

٢ ــ د. ايسكي Eskey ــ اميركا (بالانكليزية) .

٣ ــ كورينتي Korentie ــ اسبانيا (بالعربية والفرنسية) .

(٥) المصطلحية والمعجمية والتعريب .

١ ــ علي القاسمي ــ مكتب تنسيق التعريب (بالعربية) .

٢ ــ محمد المعموري ــ تونس (بالعربية والفرنسية) .

(٦) اللسانيات النفسية .

فرولي Frawley ــ أميركا (بالانكليزية) .

(٧) اسقاطات علم اللسانيات على الادب والبلاغة .

١ ــ كمال أبو ديب ــ الاردن (بالعربية) .

٢ ــ حمادي صمود ــ تونس (بالعربية) .

٣ ــ ف ــ هيرمان Hermann ــ بريطانيا (بالانكليزية) .

ب ــ الوائد المستديرة .

(١) التيارات الحالية في التراكيب .

عبد القادر فاسي فهري ــ المغرب (بالعربية)

(٢) الدراسات الصوتية والحرفية عند العرب .

ادريس السفروشني ــ المغرب (بالعربية) .

(٣) تدريس اللغة العربية لغير الناطقين بها .
علي القاسمي ــ مكتب تنسيق التعريب (بالعربية) .

(٤) مشكلات التعريب في الوطن العربي .
عبد العزيز بن عبد الله ــ مكتب تنسيق التعريب (بالعربية) .

(٥) مدخل الى علم اللسانيات البيولوجية وعلاقته بالنحو التوليدي والتحويلي .
مازن الوعر ــ جامعة جورج تاون الولايات المتحدة (بالانكليزية) .

(٦) النظرية الدلالية وتطورها عند العالم الاميركي ولتركوك W. Cook
مازن الوعر ــ جامعة جورج تاون الولايات المتحدة (بالانكليزية) .

(٧) قضايا شعرية .
كمال ابو ديب ــ الاردن (بالعربية) .

(٨) التداخل اللغوي بين العربية والاسبانية ــ
الفار كلميس (بالفرنسية) .

(٩) التقسيم المثلث لاجزاء الكلام .
الكاين شانتيس (بالعربية) .

(١٠) بعد الذكاء الشفوي .
مريانو ديبله (بالانكليزية) .

(١١) التخطيط اللغوي .
مركوس مرين (بالفرنسية) .

(١٢) النظرية المعيارية في النحو التوليدي .
دي مونتي (بالانكليزية) .

(١٣) النظرية الدلالية في اللسانيات .
دي مونتي (بالانكليزية) .

والواقع يمكن للباحث اللساني من خلال هذه الدروس العامة والموائد المستديرة ان يلاحظ تطور الثقافة اللسانية في العالم العربي تلك الثقافة التي بدات تشق طريقها في الثقافة العربية المعاصرة .

ولكن لابد لكل جديد ثقافي وافد الى الوطن العربي ان يمر في ازمات تعرقل مسيرة الثقافة والفكر والتطور . وفيما يلي سأحاول سبر التطورات اللسانية والازمات المتولدة عن هذه التطورات وذلك من خلال الدورة العالمية السابعة للسانيات .

٢ ــ اللسانيات وازمة النظرية العربية اللسانية :

اذا كان للكلمة الحرة ان تجد متنفسا لها في الفكر الديموقراطي الحديث ، فانه يمكننا الانطلاق منها للحكم على الدورة العالمية السابعة للسانيات . وابادر لاقول بأن هذه الدورة كانت ناجحة **تنظيميا وعلميا .**

فمن الناحية التنظيمية ، فقد حاول العاملون على هذه الدورة تهيئة الجو الفكري والنفسي والاجتماعي الذي يمكن له ان يشجع المختصين باللسانيات وشؤونها تشجيعا مثمرا وبناء . ولا يسعنا في هذا المجال إلا ان نشكر الدكتور عبد الجليل الحجمري والعاملين معه لجهودهم الجبارة التي ذللت كل المصاعب التي يمكن أن تواجه الندوات الثقافية والمؤتمرات العلمية .

أما من الناحية العلمية ، فقد كانت الدروس العامة والموائد المستديرة منظمة ومنسقة ومنسجمة مع بعضها بعضا من حيث الموضوع اللساني المدروس . وهكذا يمكن للمشارك العربي أن يستوعب ويفهم المبادىء العامة لعلم اللسانيات من خلال المسارات الثلاثة العربية والانكليزية والفرنسية . اضف الى ذلك انه يمكن للانسان العربي أن

يشارك في الدورة حسب مستواه الثقافي ومستواه اللساني والعلمي . فقد قسمت المواد والبحوث اللسانية الى مستويين اثنين : مستوى ابتدائي تدور موضوعاته حول المبادىء الاساسية للسانيات ومستوى اعلى تدور موضوعاته حول المناهج والمدارس اللسانية الحديثة . فاذا اخذ على سبيل المثال المسار العربي فانه يمكننا القول بأن الانسان العربي في هذا المسار يستطيع ان يفهم ويستوعب المستويات اللسانية التالية :

١ ـ الصوتيات ـ مبادؤها ـ مناهجها القديمة والحديثة .
٢ ـ النحويات ـ مبادؤها ـ مناهجها القديمة والحديثة .
٣ ـ الدلاليات ـ مبادؤها ـ مناهجها القديمة والحديثة .

لقد شرح الدكتور داوود عبده والاستاذ ادريس السغروشني مثلا المبادىء العامة للصوتيات العربية ومدى تطبيق المنهج الصوتي العربي والغربي الحديث على البنية الصوتية العربية .

أما فيما يتعلق بالنحويات العامة أو ما يسمى في اللسانيات الحديثة بـ « علم التراكيب » فقد حاول الدكتور عبد القادر فاسي فهري شرح التراكيب والجمل العربية من وجهة نظر تحويلية وتوليدية . وقد حاول الدكتور فاسي فهري وضع النظرية التحويلية والتوليدية لعالم اللسانيات الاميركي نعوم تشومسكي N. Chomsky في إطار معرّب ومهذب ومشذب . وقد حاول الدكتور فاسي فهري تطويع النظرية اللسانية للمادة اللغوية العربية المدروسة . وبهذا يمكن للإنسان العربي ان يستوعب هذه النظرية اللسانية الحديثة من خلال تطبيقاتها العملية على التراكيب العربية . اضف الى ذلك ان الدكتور فاسي فهري حاول سبر المشكلات النحوية الناتجة عن تطبيق بعض المبادىء النظرية اللسانية على اللغة العربية وتركيباتها وجملها . وقد حاول ايضا ضبطها وتقييدها تقييداً يخضع لقوانين لغوية منظمة ودقيقة .

اما فيما يتعلق بالدلاليات العامة ، فقد حاول الدكتور احمد المتوكل شرح مبادئها واسسها شرحاً وافياً مستفيضاً مستفيداً بذلك من النظرية الدلالية للعالم اللساني Dik تلك النظرية المعبر عنها بـ « النحو الوظيفي » « Functional Grammar » (١) . لقد حاول الدكتور المتوكل تطبيق هذه النظرية على التراكيب العربية موضحاً التراكيب الدلالية للعربية ثم العلائق التي تنظم تلك التراكيب . لقد اعتمد منهج الدكتور المتوكل على التراث العربي الدلالي أو كما كان يسميه العرب القدامى بـ « البلاغة » . فقد كان من خلال شرحه وعرضه للنظريات الدلالية الحديثة يقارن بينها وبين المفاهيم الدلالية والبلاغية التي اتى بها العرب القدامى . وهذا بالطبع كان يقوده لتوضيح بعض المبادىء العامة للمنهج الدلالي عند العرب القدماء .

وهذا لا يعني بالطبع بأن الدكتور المتوكل كان يعرض النظرية التراثية الدلالية عرضاً وصفياً فقط وإنما كانت نظرته للدلاليات العربية نظرة نقدية فاحصة استطاع من خلالها أن ينصف التراث العربي الدلالي انصافاً تاريخياً وواقعياً في الوقت نفسه .

والواقع رغم البحوث الصوتية والنحوية والدلالية الناجعة التي قدّمها وشرحها الباحثون اللسانيون فان أزمة النظرية العربية اللسانية الحديثة من حيث الإطار المنهجي كانت واضحة . هذه الازمة المنهجية يمكن أن تعالج من خلال مستويات ثلاثة .

فمن حيث المستوى الصوتي ، يمكن للباحث اللساني ان يلاحظ انه ليس هناك نظرية صوتية عربية في الثقافة العربية المعاصرة يمكن لها ان

(١) لمزيد الاطلاع على هذه النظرية الدلالية باللغة الانكليزية يمكن للقارىء الرجوع الى :
Dik., S. (1980) . Functional Grammar .
Ed. North Holland , Amsterdam .

تأخذ بالحسبان اللغة العربية ككل أو كجسم كامل . اضف الى ذلك انه ليس هناك نظرية صوتية تراثية يمكن لها ايضاح المنهج الصوتي الذي اخذ به العرب القدامى في دراساتهم الصوتية والصرفية للغة العربية .

إذن يستطيع الباحث ان يستنتج بأن ازمة النظرية الصوتية العربية الحديثة إنما تعود لغياب المنهج الصوتي الحديث ذي الابعاد المتكاملة ثم لغياب المهنج الصوتي القديم الذي اخذ بـه العـرب القدامى . فليس هناك اي عالم لساني صوتي معاصر ـ حسب معارفي ـ استطاع أن يعيد صياغة المنهج الصوتي الذي أخـذ بـه العرب القدامى اللهم الا" بعض المحاولات الجادة والناجعة التي بذلها استاذنا الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح والنتيجة هي أن المنهج الصوتي الحديث سيكون غامضاً تماماً بغياب المنهج الصوتي القديم (٢) .

على اية حال تبقى الجهود التي بذلها الدكتور داوود عبده والاستاذ ادريس السغروشني محاولات تجريبية على طريق وضع المنهج الصوتي الكامل الذي يستطيع ان يأخذ بحسبانه كل القضايا المتعلقة باللغة العربية وصياغاتها الصوتية والصرفية سواء أكان هذا المنهج الصوتي حديثاً ام قديماً .

اما من حيث المستوى النحوي فانه يمكننا ان نلاحظ الشيء نفسه الذي لاحظناه في المستوى الصوتي ذلك هو غياب النظرية العربية النحوية المتكاملة التي تستطيع ان تأخذ بحسبانها كل القضايا التركيبية للغة العربيـة .

(٢) لمعرفة المنهج الصوتي العربي القديم (طبعا معرفة جزئية) يمكن للقارىء الرجوع الى البحث الذي كان كتبه صاحب هذه السطور وهو بعنوان :

« الصوتيات العربية من خلال نموذج لغوي واحد » المنشور في مجلة المعرفة الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في القطر العربي السوري السنة العشرون العدد ٢٤٠، شباط ١٩٨٢ ص ٨ ـ ٤٣ .

وتبدو محاولات الدكتور فاسي فهري محاولات مثمرة وجادة ولكنها محاولات فردية تحتاج الى عمل جماعي يسهم فيه عدد من علماء النحـو (العربي والغربي) من العرب المعاصرين وذلك لوضع منهج نحوي حديث لقواعد اللغة العربية . اضف الى ذلك انه يتوجب علينا إعادة صياغـة المنهج النحوي العربي القديم الذي اخذ به النحاة العرب القدامى لشرح الظاهرة النحوية للغة العربية وتركيباتها . فاذا فعلنا ذلك فاننا سنكون واثقين تماماً من صحة المنهج النحوي الحديث ودقته وموضوعيته .

والواقع إنه من خلال حديث شخصي مع الاستاذ الفاضل الدكتور عبد القادر فاسي فهري فانه كان طرح نقطة مهمة جدا في البحث اللساني المنهجي والتي اوافقه عليها تماماً وهي **الانتقال من مرحلة الترجمة اللسانية عن الغرب الى مرحلة التفكير العربي اللساني . هـذا التفكير اللسـاني ينبغي ان يكون ذا طابع عربي في مبادئه وافكاره ومصطلحاته المعجميـة .**

والحقيقة انه لا يمكن تحقيق هذه القفزة العلمية إلا إذا استوعبنا تماماً العلوم اللسانية الغربية الحديثة وفهمناها فهماً عميقاً . اضف الى ذلك انه لا بد لنا من ان نسبر التراث العربي النحوي سبراً عميقاً . وبعدها فاننا سوف نأتي الى صيغة واضحة لمنهج عربي لسـاني نحوي حديث قادر على وصف الظواهر التركيبية في اللغة العربية ثم شرحها شرحاً دقيقاً وضبطها ضبطاً يمكن ان يسهم في تطوير البحوث النظرية والتطبيقية الهادفة لتعليم العربية للناطقين ولغير الناطقين بهـا .

ولا أبالغ إذا قلت بأن الاعمال اللسانية النحوية التي يطورها الدكتور فاسي فهري إنما تمثل لبنة من لبنات ذلك المنهج النحوي الحديث الذي نتوخاه في المستقبل .

اما من حيث المستوى الدلالي فانه يمكننا القول بأن الازمة المنهجية الدلالية لدراسة البنى الدلالية للغة العربية انما هي نفسها التي تحدثنا عنها في المستوى الصوتي والمستوى النحوي . ذلك انه إذا اردنا تفسير البنية الدلالية للجمل العربية ككل فانه لابد من منهج لساني دلالي ذي ابعاد متكاملة وذي مبادىء واسس عامة يمكن لها تفسير الدلالة وشرحها شرحاً دقيقاً في التراكيب العربية . اضف الى ذلك انه لا بد من إعادة صياغة المنهج اللساني الدلالي العربي القديم وذلك من اجل منهج لساني دلالي حديث افضل وانجح في الدراسات الدلالية . وتبقى محاولات الدكتور المتوكل محاولات فردية ينبغي أن تؤطر في قالب جماعي اساسه المناقشة والبحث والتنقيب بحيث يشترك في هذا القالب الجماعي علماء الدلالة (العربية والغربية) من العرب المعاصرين .

والحق يقال ، تعتبر الاعمال التي يقوم بها الاستاذ الفاضل الدكتور احمد المتوكل في الدلاليات أساساً قوياً من أسس المنهج اللساني الدلالي الذي نريد أن نتوصل اليه .

والواقع يبدو لي ــ وهذه البدوة محض علمية ــ بأن الاعمال النحوية الحديثة التي يقوم بها ويطورها الباحث الدكتور عبد القادر فاسي فهري ثم الاعمال والبحوث الدلالية الحديثة التي يقوم بها ويطورها الباحث الدكتور احمد المتوكل إنما تكمل بعضها بعضاً تكميلاً متناسقاً ومنسجماً يؤدي الى الطريق الصحيح والسليم لبناء النظرية العربية اللسانية الحديثة .

من هنا ينبغي أن يكون هناك نوع من التعاون والتنسيق العلمي بين هذه البحوث النحوية وتلك البحوث الدلالية . ولكي نحقق هذا التنسيق والتطور النحوي الدلالي فانه ينبغي ان تترجم الاعمال النحوية والدلالية

التي قام بها الدكتور فاسي فهري والدكتور المتوكل من الفرنسية الى العربية(٣) .

والواقع تشكل البحوث الصوتية التي يقوم بها بعض الباحثين العرب كالاستاذ الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح مدير معهد اللسانيات والصوتيات بجامعة الجزائر لبنة من لبنات انظرية اللسانية التي نهدف اليها .

فاذا كان ذلك التناسق والانسجام الذي نتوخاه بين المنهج الصوتي (الحاج صالح) والمنهج النحوي (فاسي فهري) والمنهج الدلالي (المتوكل) فاننا سنكون في الطريق السليم لبناء النظرية العربية اللسانية الحديثة .

والحقيقة ان مايدور في ذهني بشأن هذه النظرية العربية اللسانية الحديثة هو مشروع كبير وضخم لا يمكن ان يتم في سنوات قليلة بل انه يحتاج الى جهد وعمل وخطط متواصلة اساسها العمل الجماعي العربي ولكن قبل البدء في هذا المشروع الثقافي اللساني ينبغي أن تسبقه خطوة مهمة جدا ، وذلك للاتكاء على ارضية لسانية صلبة . تلك هي الانطلاق

(٣) من المفيد ان يذكر المرء في هذا المجال بان العمل النحوي الحديث الذي قام به الدكتور عبد القادر فاسي فهري انما كان عبارة عن رسالة للدكتوراه تقدم بها الى جامعة السوربون وقد كانت بالفرنسية ثم اعيد نشرها في كتاب (بالفرنسية) صدر عن مطبوعات كلية الاداب بالرباط وعنوانه هو :

Linguistique Arabe : Forme et Intarpretation . (1982) .

ثم ان العمل الدلالي الحديث الذي وضعه الدكتور احمد المتوكل انما كان ايضا عبارة عن رسالة للدكتوراه تقدم بها الى جامعة محمد الخامس بالرباط ، وقد كانت بالفرنسية ثم اعيد نشرها في كتاب (بالفرنسية) صدر عن مطبوعات كلية الاداب بالرباط وعنوان الكتاب هو :

Reflexions Sur La Theorie Da La Signification : dans La Pensée Linguistigue Arabe . (1980) .

من التراث العربي اللساني لا على انه تراث عربي فحسب بل على أساس تراث انساني ايضا يغني النظرية اللسانية الحديثة ويعطيها بعدا فكريا عميقـا .

هذه الانطلاقة عن التراث العربي اللساني ينبغي أن تكون من ثلاثة مستويات تحليليـة :

١ ـ المستوى الصوتي :

ينبغي هنا جمع كل ماقاله العرب القدامى عن الصوتيات في جميع فروعها وابعادها النطقية والسمعية والفيزيولوجية والفيزيائية . اضف الى ذلك انه ينبغي علينا ان نصفي هذا التراث الصوتي تصفية علمية موضوعية لاتسمح بالتكرار والاعادة . ذلك لان هدفنا هنا هو اعادة صياغة المنهج الصوتي العربي وليس جمع الاعلام الصوتيين الذين تحدثوا عـن الصوتيات العربية .

٢ ـ المستوى النحوي :

ينبغي علينا هنا ان نجمع البحوث النحوية العربية القديمة جمعـا دقيقا لايسمح باعادة وجهات النظر النحوية التي رددها العرب النحويون فمثلا اذا اردنا معرفة ماقاله سيبويه في النحويات فانه ينبغي الا نعيد ماقاله ابن يعيش والزمخشري وغيرهما من شراح سيبويـه اللهـم الا الاجتهادات والاقتراحات النحوية التي اتى بهـا هـؤلاء الشراح . ان الاجتهادات النحوية التي اتى بها ابن يعيش مثلا انما تعد عملا جبارا يدل على عمق الفكر النحوي عند ابن يعيش واقترابه تماما من الاعمال التي

يعوم بها عالم لساني معاصر كـ نعوم تشومسكي N. Chomsky (٤) .

٣ ـ المستوى الدلالي :

ينبغي علينا هنا ان نبحث عن كل ماقاله العرب القدامى في شأن الدلاليات ، وهذا بالطبع سيقودنا لنبش التراث البلاغي ثم تصفيته تصفية علمية تستطيع ان تلخص الافكار الدلالية العامة التي اتوابها . فمثلا اننا لا نحتاج لما قاله المتأخرون في هذا المجال لان ما كانوا قالوه انما هو نسخ واعادة وتكرار لما قاله المتقدمون اللهم باستثناء بعض الاجتهادات والمقترحات الدلالية المهمة التي ينبغي ان تؤخذ بعين الاعتبار . وينبغي على التصفية العلمية الموضوعية ان تفرق بين ما قاله العرب القدامى في التركيب الدلالي للجملة العربية وبين ما قالوه في التركيب الاسلوبي للجملة العربية . ذلك لان العرب القدامى ـ حسب فهمي وقراءتي للتراث البلاغي ـ فهموا البلاغة العربية حسب الشكل التالي :

	الدلاليات ـ مهمتها تفسير البنية الدلالية للجملة العربية .
البلاغة	(جزء من النظرية الدلالية في علم اللسانيات) .
العربية	**الاسلوبيات** ـ مهمتها تفسير الزخرف الفني للجملة العربية
	(جزء من الادب والشعر الذي يستفيد من علم اللسانيات) .

---

(٤) لمعرفة التشابهات بين التركيب المنطقي للنظرية العربية النحوية عند ابن يعيش وبين التركيب المنطقي للنظرية النحوية الحديثة عند نعوم تشومسكي يمكن للقارىء مراجعة رسالة للدكتوراه (بالانكليزية) كان تقدم بها صاحب هذه السطور الى قسم اللسانيات الحديثة في جامعة جورج تاون ـ واشنطن :

Al - WAER , MAZEN (1982) ; «Toward a Modern and Realistic Sentential Theory of Basic Structures in Standard Arabic » . Ph. D dissertation , Georgetown University . U. S. A. (Forthcoming) .

ان هذه **الدلاليات** العربية ينبغي ان تضم الى المفاهيم الدلالية التي قالها العرب عند حديثهم عن النحويات . فابن يعيش عند حديثه عن البنية النحوية للجملة العربية مثلا تراه يستطرد للحديث عن البنية الدلالية للجملة العربية . ومن هنا فانه يفرق بين **الفاعل النحوي Syntactic Subject** **وبين الفاعل الدلالي Semantic Agent** « فالحائط » في جملة مثل « سقط الحائط » انما هو فاعل نحوي مرفوع على الرغم من انه مفعول به من الناحية الدلالية . ان الفاعل الدلالي في هذه الجملة محذوف وذلك لان اصل الجملة هو « سقط الحائط بفعل الريح » . « فالريح » هو الفاعل الدلالي في مفهوم ابن يعيش(٥) ان هذا البعد الفكري الدلالي العميق عند ابن يعيش يشبه تماما البعد الفكري الدلالي في نظرية دلالية حديثة جدا في اللسانيات الاميركية(٦) تلك النظرية التي وصفها تشارلز فيلمور C. Fillmore وعدلها آخرون احدثهم ولتر كون(٧) W. Cook في كتابه:

Case Grammar : Development of the Matrix Model .

---

(٥) انظر ابن يعيش (الفذ) المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ١٢٥٠ م .
شرح المفصل ج٢ ص ٦٩ . مطبعة عالم الكتب ـ بيروت ١٩٧.

(٦) لمعرفة التشابهات بين التركيب المنطقي للنظرية العربية الدلالية عند العرب القدماء وبين التركيب المنطقي للنظرية الدلالية في اللسانيات الاميركية ، يمكن للقارىء مراجعة رسالة للدكتوراه (بالانكليزية) كان تقدم بها صاحب هذه السطور الى قسم اللسانيات الحديثة في جامعة جورج تاون ـ واشنطن .

Al - 'WAER , MAZEN (1982) . «Toward a Modern and Realistic Sentential Theory of Basic Structures in Standard Arabic » . Ph. D dissertation , Georgetown University Washington D. C. Washington D. C. (Forthcoming) .

(٧) آ ـ لمعرفة المبادىء النظرية للمنهج الدلالي لعالم اللسانيات الاميركي ولتركوك راجع كتابه :

Case Grammar : Development of the Matrix Model : Georgetown Univristy Press (1979) .

ب ـ لمعرفة المبادىء التطبيقية للمنهج الدلالي لعالم اللسانيات الاميركي ولتركوك

وهكذا عندما ننتهي مـن عملية الجمع الصوتي والنحوي والدلالي ينبغي علينا ان نفكر باعادة صياغة المنهج العربي اللساني الذي انطلق العرب القدامى منه لدراسة اللغة العربية كلغة عالمية حسب المفهوم الفلسفي الاسلامي .

• فاذا ما انتهينا من اعادة صياغة المنهج العربي اللساني القديم فانه يمكننا عندها ان نفتح نوافـذ ثقافتنا اللسانية على مصراعيها للثقافـة اللسانية الغربية ثم استيراد المناهج اللسانية الغربية الحديثة علـى نحو ما كان العرب القدامى يفعلون . فقد كانوا يستوردون المناهج والنظريات الاجنبية (رومية ـ فارسية ـ هندية ـ اسبانية ... الخ) في كافـة العلوم البشرية ليدرسوها درسا نقديا فاحصا وعميقا ليضيفوا عليها اضافات علمية نابعة من طبيعة البحث التجريبي المضبوط .

ان الفرق بين المناهج العربية القديمة والمناهج العربية الحديثة انما هو فرق في الايديولوجية . فعندما كان العرب القدامى يفحون نوافذ ثقافتهم على الغرب والشرق فذلـك لانهـم كانوا يملكون الايديولوجية الثقافية والعلمية ... تلك التي تضع كل وافد جديد على محك النقد والعلمية والموضوعية والضبط المنهجي . فلا غرابة ـ انطلاقا من هـذه

يمكن للقارىء الرجوع الى بحثين دلاليين (بالانكليزية) كان قدمهما صاحب هذه السطور في الدورة العالية السابعة للسانيات ـ الرباط ـ المغرب وعنوانهما :

(1) « Teaching English as a Foreign Language From a Case Grammar Point of vier .

(2) « The Semantic and Syntactic Frame Structure of the verb « SEE » in Arabic and English : A Case Grammar Approach » .

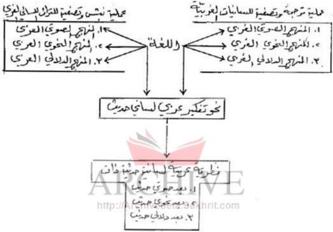
من المتوقع ان ينشر هذان البحثان (بالانكليزية) في مجلة اللسان العربي ـ مكتب تنسيق التعريب ـ الرباط ـ المغرب .

الايديولوجية ـ ان نجد في عصرهم فلاسفة كالسندي ، والمجوسي والزنديق والنصراني والرومي والزرادشتي واليهودي والمسلم يجتمعون كلهم في حلقة واحدة لمناقشة الذات الالهية وجودها التاريخي واللاتاريخي.

اما المناهج العربية الحديثة فانها تفتقر الى تلك الايديولوجية التي توفرت للقدماء . فليس هناك ايديولوجية ثقافية عربية متماسكة تستطيع ان تلفع كل العلوم الطبيعية والانسانية باطار ايديولوجي عربي اصيل . من هنا تأتي الاحاطة والحذر الشديد من كل وافد جديد الى قلب الثقافة العربية المعاصرة .

وينبغي ان نتذكر بان الامة العربية وثقافتها العربية تمر في مرحلة صعبة جدا من تطورها التاريخي وذلك لان هناك قوى عالمية اقوى منها علما وثقافة وتكنولوجيا ، الامر الذي يجعل الامة العربية موطن التقليد والتتبع والتطبع حسب نظرية ابن خلدون في علم الاجتماع . وهذا يختلف بالطبع عن الثقافة العربية القديمة التي كانت تتطور وتنتعش في ظل الدولة العربية القوية الضاربة جذورها من الصين شرقا وحتى الاندلس غربا .

والواقع اننا اذا رسمنا كل هذه الابعاد المنهجية للثقافة العربية القديمة والحديثة من جهة وللثقافة الغربية الاجنبية من جهة اخرى فانه سيكون لدينا تصور واضح وعميق للنظرية العربية اللسانية الحديثة التي نهدف اليها . وربما يتضح مشروع النظرية العربية اللسانية الحديثة الذي افكر به من خلال هذه الصورة :



٣ ـ اللسانيات وازمة التراث والحداثة اللسانية :

يلاحظ المرء انه في كل مؤتمر او دورة لسانية ، كثيرا ماتدور الاحاديث والمناقشات حول التراث اللغوي العربي المتمثل بالاعمال التي وضعها الصوتيون والنحاة والبلاغيون العرب القدامى ، وحول الحداثة اللسانية كعلم قائم براسه والمتمثل بالاعمال اللسانية الحديثة التي وضعها وطورها الصوتيون والنحاة والدلاليون الغربيون سواء في الولايات المتحدة او اوربا .

والواقع ان جوهر الصراع بين الاتجاهين اللسانيين يتلخص بالحقيقة القائلة بأن اللسانيين العرب المعاصرين الذين يؤيدون التراث اللغوي العربي واصالته يدعون بأنه لايمكن قيام اية حركة لسانية حديثة يريدها العرب في التاريخ الحديث الا اذا استلهمت اعمالها ومناهجها من النبع الاصيل لهذا التراث اللغوي بأبعاده الصوتية والنحوية والدلالية . اما اللسانيون العرب المعاصرون الذين يؤيدون علم اللسانيات الحديث كعلم قائم برأسه وافد من الغرب (منقولا للعربية اما عن طريق الترجمة او عن طريق النسخ) فان حجتهم هي أن هذا العلم اللساني ينبغي أن يؤخذ ككل وينبغي ان نترجم مبادئه واسسه ونطبقها على اللغة العربية كلغة من اللغات العالمية ، مثلها مثل اية لغة خاضعة لهذا العلم . ان فترة التراث اللغوي العربي ومناهجه بالنسبة لهذا الفريق انما هي فترة تاريخية فوضوية قد انتهت وينبغي علينا ان ندرسها ضمن اطارها التاريخي الفوضوي .

والواقع لقد شرح استاذنا الدكتور حسام الخطيب هذه المشكلة المتعلقة بكل فريق من ذينك الفريقين شرحا رائعا في الكلمة التي القاها في المؤتمر العام الثالث عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب في عدن وصنعاء وذلك عندما وضعها في هذا الاطار : « لو اخذنا باقوال كل طرف لوجدنا ان انصار الاصالة يتهمون كل جديد بأنه دسيسه اجنبية وافكار مستوردة وبدع مسقطة من الخارج بل يشيعون ان كل جديد في طراز الثقافة انما يستهدف شيئا واحدا هو القضاء على ثقافتنا واصالتنا . . . وبالمقابل لايكتفي انصار المعاصرة بدفع التقليديين بالتحجر الفكري والانقطاع عن روح العصر وعبادة الماضي وغير ذلك من الاوصاف ولكنهم ايضا يشيرون باصبع الاتهام الى منابع هذا التفكير ويربطون بين النفوذ الاستعماري وبين التمسك المتحجر بالقديم بحيث تصبح اذكاء روح الاصالة عملية الهاء مدبرة من قبل عملاء الثقافة المعادية بصرف انظار الناس عن الثقافة العصرية التي توظف لخدمة المجتمع . . . . . » .

ويتابع الباحث الدكتور حسام الخطيب ليطلع بنتيجة جد مهمة ترتبط ببحثنا حول التراث والحداثة اللسانية عندما يقول :

« وفي حالتي التمسك الشديد بطرفي المعادلة لن ينفع الانسان تمسكه لان المسألة ليست مسألة اهواء او حتى تفسيرات معتقدية . ان المسألة مسألة وجود واستمرار وهذا هو الجانب الحيوي في الثقافة ـ اذ لاينفع المجتمع ان يكون شديد التمسك بقيمة مقابل انقطاعه عن الوجود وكذلك انقطاعه عن قيمه يعرضه لخطر الانقطاع عن الوجود . ان المسألة هي مدى ما يمكن ان يساعد الموقف الثقافي على وجود المجتمع واستمراره لانه بغير الوجود ـ والمقصود الوجود القوي طبعا ـ لاتنفع اصالة ولامعاصرة » .

« ويظل صحيحا ان توصل الثقافة العربية الى صيغة فعالة لاقامة توازن خلاق بين الاصالة وبين المعاصرة هو الكفيل بخلق جو طبيعي من التفكير والابداع » (٨) .

ويبدو لي أن أساس الصراع بين الاصالة والمعاصرة اللسانية ليس صراعا بين الاعمال التراثية اللسانية الاصيلة التي وضعها العرب القدماء وبين المعاصرة اللسانية التي وضعها علماء اللسانيات المحدثون في الغرب ، ان الصراع في جوهره يكمن بين اللسانيين انفسهم : (كامتداد للازمة النفسية الفردية التي يعاني منها انساننا العربي) بين اللسانيين الذين يشدهم التاريخ القديم الى أقصى مسافات اليمين وبين اللسانيين الذين

---

(٨) لمزيد الاطلاع على الكلمة التي القاها الاستاذ الفاضل الدكتور حسام الخطيب امام المؤتمر الثالث عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب يمكن للقارىء الرجوع الى مقالته القيمة « الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة أشكال الغزو الثقافي » المنشورة في مجلة المعرفة ـ السنة العشرون ـ العدد ٢٣٩ كانون الثاني ١٩٨٢ ص ٦٤ ـ ٦٩ .

يشدهم التاريخ الحديث الى اقصى مسافات اليسار ، وبهذا فان المعادلة الثقافية اللسانية ستكون عرضة للاهتزاز والتفكك وستحقق « معاناة اقامة التوازن بين الاصالة والمعاصرة » .

وبقى صحيحا ان الاعمال اللسانية قديمة كانت أم حديثة انما تكمل بعضها بعضا في حقل التكوين الحضاري الفاعل والمنفعل في حركة التاريخ الجدلية .

ان الضجة المفتعلة الدائرة بين مايسمى بـ « التراث والحداثة » اللسانية انماهي ضجة وصرخة تبقى على هامش التراث وعلى هامش الحداثة بقدر ماهي في قلب اللسانيين وفكرهم تؤرقهم وتزعجهم وليس لهذا الارق والازعاج الا مبرر واحد ذلك هو غياب المنهجية الاخلاقية في البعد النفسي (الفردي ــ الجماعي) .

وينبغي علينا في هذا المجال ان نذكر بان عاملا مهما من عوامل هذا الصراع انما تستفيد منه القوى الهادفة الى تمزيق الثقافة العربية بأشكالها القديمة والحديثة والهاء الساحة العربية بالضرب على وترالقديم والحديث مع أن ظاهرة القديم والحديث في المعرفة البشرية انما كان حل إشكالها العرب القدماء .

فابن قتيبة في « شعره وشعرائه » اعتبر ــ منذ احد عشر قرنا من الزمن ــ أن معيار النقد في زمنه انما هو معيار آني مؤقت بل هو ومضة فكرية حاضرة مافتئا ان ستتغير لتصبح جزءا من أجزاء التاريخ والسلفية . وقد اعتبر ابن قتيبة الصراع بين الحديث والقديم صراعا آنيا مؤقتا وذلك لان الحديث في الحاضر لابد ان سيصبح قديما في حركة التاريخ الجدلية .

ان هذه النظرات الفكرية في حقل الشعر والنقد انما هي صحيحة تماما في حقل العلوم اللسانية والفيزيائية والكيميائية والرياضية .

فكل هذه العلوم كانت ومازال تخضع لناموس التطور العلمي الصاعد نحو الافضل والانجع في حركة التاريخ .

فاذا كان ذلك كذلك فانه لايمكن قطع اي وشيجة حضارية مهما كان نوعها بين الماضي والحاضر ... فاذا فعلنا ذلك كاننا سنكون ضد حركة التاريخ وحركة الفكر وطبيعة التكوين العلمي الحضاري والانساني من هنا يمكننا ان ندرس التراث العربي اللساني دراسة موضوعية وواقعية وعلمية ضمن الاطار التاريخي لحركة الزمن والواقع الذي انبثق عنه هذا التراث . فاذا فعلنا ذلك فانه يمكننا بعدها اعادة صياغة المنهج اللساني الذي اخذ به العرب القدامى لدراسة اللغة العربية التي اعتبروها لغة ازلية سابقة للتاريخ وللزمن وللواقع الامر الذي يجعلها « عالمية » . ان حل مشكلة أزمة التراث والحداثة متعلق بفهمنا للمنهج الفكري والفلسفي اللساني الذي اخذ به العرب القدامى في دراساتهم اللغوية . ولايمكننا فهم ذلك المنهج فهما موضوعيا وعلميا عادلا الا اذا جندنا انفسنا تجنيد الرهبان وذلك لسبر هذا التراث الضخم والجم والمبعثر . فاذا استطعنا اعادة صياغة هذا المنهج الفكري الفلسفي للسانيات العربية القديمة صياغة علمية ومضبوطة فانه يمكننا بعدها ان نفتح نوافذ ثقافتنا العربية المعاصرة على المناهج اللسانية الغربية .

وبهذا يسهل علينا كثيرا مقارنة المناهج اللسانية القديمة بالمناهج اللسانية الحديثة ثم فهم المشكلة فهما علميا وموضوعيا نستطيع من خلالها ان نكبح جماحها ثم التغلب عليها وتحويلها الى تحليل لساني علمي بين القديم والحديث وذلك من اجل تطوير لساني افضل وانجع في الدراسات اللسانية المعاصرة .

ان الخطوة الاخرى في هذا المجال هي محاولتنا وضع نظرية عربية لسانية حديثة ذات ابعاد ايديولوجية واضحة مبنية على المناهج العربية

القديمة ومستفيدة في الوقت نفسه من التيارات الفكرية اللسانية الغربية المعاصرة .

ان النقطة المهمة والاساسية في هذا الطرح اللساني ـ الذي كان اكد عليه بعض الاخوة اللسانيين امثال الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح (صوتيات) والدكتور عبد القادر فاسي فهري (نحويات) ثم الدكتور احمد المتوكل (دلاليات) ـ هي **التفكير العربي اللساني** . لاحظ أننا لم نقل **التفكير اللساني العربي** ذلك لانه ينبغي علينا أن نكون ونشكل ونصوغ فكرا عربيا في اللسانيات وليس فكرا لسانيا نفرضه على اللغة العربية . وهذا ينضوي على ايجاد الاطار العربي اللساني ثم ايجاد المضمون اللساني ومحاولة تطويره وصياغته . **أنه ينبغي علينا وضع نظرية عربية لسانية تنبع من فكرنا العربي الضارب جذوره في حركة التاريخ والتكوين الحضاري ، ومن حاضرنا المتمثل في كينونة هذا التاريخ والتكوين الحضاري في الثقافة العربية المعاصرة . هذه النظرية العربية اللسانية ينبغي أن تعكس ماضينا المتالق (بعلميته ـ بمنهجيته ـ بموضوعيته ـ باخلاقيته ـ بتقليد الغرب له) وأن تعكس حاضرنا الذي يمثل (استمراريتنا ـ كينونتنا ـ وجودنا ـ قابليتنا للتطور الحديث) .** .

وهذا بالطبع يختلف تماما عن ترجمة نظرية لسانية ووضعها في اطار عربي . ان الفرق بين صياغة نظرية عربية لسانية وبين ترجمة نظرية لسانية ووضعها في اطار عربي انما هو فرق في النوعية اللغوية . ذلك لان اية نظرية علمية او انسانية لايمكن ان تكون الا نتاج واقع وزمان معين . ان الخطوة الاساسية الاولى في بناء امة نظرية لسانية علمية هي الانطلاق من لغة واحدة لمعرفة بنيتها وحركيتها ثم وضع النظرية اللسانية الخاصة بها . وبهذا يمكن أن نصوغ عدة نظريات لسانية مختلفة نابعة من لغاتها المختلفة .

وبعدها تأتي الخطوة الثانية وهي مقارنة هذه النظريات اللسانية العالمية . فما توافق من مبادئها سيشكل بالطبع نظرية كلية شمولية للغات البشرية كلها (خذ على سبيل المثال الظاهرة الصوتية بأبعادها النطقية والفيزيولوجية والسمعية والفيزيائية التي تعد ظاهرة كلية – عالمية وشمولية) . وماتعارض من مبادئها فانه سيبقى خصوصية لغوية متميزة تابعة للغة معينة (خذ على سبيل المثال ظاهرة الاشتقاق العجيبة في العربية والتي تعد ظاهرة خاصة وفريدة في اللغة العربية) .

وهذا بالضبط ما دعا اليه عالم اللسانيات الاميركي نعوم تشومسكي Noam Chomsky عندما قال : (لقد ترجمت قولته من الانكليزية الى العربية) « يمكن للقواعد (اللغوية الخاصة) ان تختلف من لغة الى لغة اخرى ضمن الضوابط التي تعرفها القواعد الكلية المفروضة . ولكنه غالبا ماكان يفترض بأن شروط القواعد (اللغوية الخاصة) هذه انما هي غير مختلفة .

ان هذا الافتراض على نحو ما يمكن أن يكون اعتباطيا (عكسيا) . فليس هنالك اي سبب أولي يجعلنا بالاّ نفترض العكس(٩) .

وفي كتابات أخرى لتشومسكي يدعو فيها الى انه لا يمكننا بناء نظرية شمولية وكلية للنحو إلاّ اذا انطلقنا من نظرية نحوية خاصة تنبع من كل لغة من لغات العالم(١٠) .

---

(٩) انظر مقالة تشومسكي (بالانكليزية) .

Chomsky , Noam (1977 : P 75) «On WH Movement» in wasow, Culicover and Akmajian , eds , Formal Syntax . Academic Press.

(١٠) لمزيد الاطلاع حول هذا الموضوع يمكن للقارىء الرجوع الى مقالتنا التي رد فيها تشومسكي على اندريه مارتينه عالم اللسانيات الفرنسي بهذا الصدد : « حول بعض القضايا الجدلية لنظرية النحو التوليدي والتحويلي » المنشورة بالعربية والانكليزية والفرنسية في مجلة اللسانيات التابعة لمعهد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر ، المجلد رقم ٦ عام ١٩٨٢ .

والواقع ان مشروع النظرية العربية اللسانية ذات البعد التراثي والبعد المعاصر ينبغي أن يكون ذا نوعية لغوية عربية ذات أبعاد تثليثية واضحة :

١ ـ نظرية عربية صوتية غنية قادرة على تفسير الظواهر الصوتية للغة العربية ثم شرح هذه الظواهر الصوتية بأبعادها النطقية والفيزيولوجية والسمعية والفيزيائية .

ان الاعمال الصوتية التي يقوم بها ويطورها بعض الباحثين العرب المعاصرين امثال استاذنا الفاضل الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح في معهد اللسانيات والصوتيات التابع لجامعة الجزائر والاستاذ ادريس السفروشني في جامعة محمد الخامس بالرباط انما يُعد خطوة مهمة ولبنة قوية من لبنات بناء النظرية الصوتية .

٢ ـ نظرية عربية نحوية غنية قادرة على تفسير الظواهر النحوية والتركيبية للغة العربية ثم شرح العلائق التركيبية الموجودة في الجمل العربية ثم التحولات الطارئة على مثل هذه الجمل .

ان الاعمال التي يقوم بها ويطورها بعض الباحثين العرب المعاصرين امثال الدكتور عبد القادر فاسي فهري في جامعة محمد الخامس بالرباط تعد خطوة مهمة وسليمة على طريق بناء النظرية العربية النحوية .

٣ ـ نظرية عربية دلالية غنية قادرة على تفسير الظواهر الدلالية والمعنوية للغة العربية ثم شرح العلاقات الدلالية المكونة للجمل العربية السليمة والمفهومة . وينبغي ان يكون مثالنا في هذه الدقة المنهجية البلاغيين العرب القدامى امثال الفذ عبد القاهر الجرجاني .

والواقع ان الاعمال الدلالية التي يقوم بها ويطورها بعض الباحثين العرب المعاصرين امثال الدكتور احمد المتوكل في جامعة محمد الخامس بالرباط تعد أساسا من أسس النظرية العربية الدلالية التي نطمح اليها .

وهكذا يتبين لنا بأن الازمة اللسانية المعاصرة ليست أزمة متعلقة بالتراث (الاصالة) اللساني ولا بالحداثة (المعاصرة) اللسانية . انه على العكس من ذلك ، ان العلاقة بين الاصالة والمعاصرة انما هي علاقة ديناميه فاعلة ومتفاعلة في التكوين الحضاري والانساني . فلكي يستمد علم اللسانيات ـ كعلم قائم برأسه ـ شرعيتـه وعلميته وموضوعيته ومنهجيته ، فانه لابد أن يستند على التراث اللساني العربي والانساني في الوقت نفسه . ويتبع هنا بأن أي انفصام بين التراث العربي اللساني وبين الحداثة العربية اللسانية سيولد أزمة منهجية في الثقافة العربية المعاصرة . فأي دعوة مجوسية ضد التراث العربي اللساني انما هي دعوة لتفتيت الامة الواحدة والثقافة الواحدة والهوية الواحدة التي نسعى لتحقيقها في عصر الهويات وعصر الامم .

انه لا غرابة ابدا ان نرى عالما لسانيا أميركيا معاصرا ك نعوم تشومسكي Noam Chomsky يقف وقفة دهشة وعجب من التراث العربي اللساني النحوي والدلالي عندما قرأ وعلق على عمل لساني كنت قد تقدمت به كرسالة للدكتوراه ؛ (ولا أفاخر بذلك ابدا) ذلك العمل الذي اعتبره انا عملا يقف على هامش التراث العربي اللساني النحوي والدلالي الضخم والثر . ففي رسالة كان بعثها لي العالم الاميركي الفذ والمتواضع نوم تشومسكي في ٢٦ نيسان ١٩٨٢ قال فيها :

« It is obviously a serious , impressive and important Piece of work'. I was Particularly intrigued by the Comments interspersed throughaut on the Arab Grammarians . That alone makes it a very valuable contribution , a part from the Linguistic work , Which Looks Most interesting ,

---

(١٤) للاطلاع على رسالة الدكتوراه هذه يمكن للقارىء الرجوع الى النسخة الاصلية المتطورة في كلية اللغات والعلوم اللسانية في جامعة جورج تاون ـ واشنطن العاصمة ـ الولايات المتحدة الاميركية تحت عنوان :

Al - WAER , MAZEN (1982) , «Toward A Modern and Realistic Sentential Theory of Basic Structures in Standard Arabic » (Forthcoming) .

وفي تعليق عام كان قال لي العالم الاميركي ولتركوك walter Cook جاء فيـه :

« We did nat know that Arab Grammarians had Said what you have Presented . There Should be more translated work of Arab Grammarians in to English » .

ومن خلال حديث شخصي مع الدكتور احمد المتوكل أستاذ الدلاليات في شعبة الفرنسية في جامعة محمد الخامس بالرباط كان قال لي بأنه كان أرسل رسالة الدكتوراه التي وضعها والتي تدور حول النظرية الدلالية عند العرب القدامى الى عالم اللسانيات الاميركي تشومسكي N. Chomsky . وقد كان تعليق تشومسكي للمتوكل (في رسالة بعثها له) بأن ما قاله العرب القدماء في حقل الدلاليات انما يعد فكرا فلسفيا عميقا لابد من الاخذ به في الفكر الدلالي المعاصر . وقد كان وعد تشومسكي للمتوكل بانه سيعتمد هذه النظرية الدلالية في الاعمال التي سيقوم بها في المستقبل(١٢) .

فاذا كان ذلك كذلك فلنصف اذن نحن اللسانيين العرب المعاصرين خلافاتنا الفردية الشخصية العاطفية التي نصبها على التراث وعلى المعاصرة ، ولنشمر سواعدنا للدراسة اللسانية العربية الجديدة والحقيقة التي هي جزء من ثقافتنا العربية المعاصرة . ولنتذكر قولة احد الباحثين العرب القدماء عندما قال ،، ما نمتُ وما قلتُ الاّ وعلى صدري الكتاب ،، .

تلك المقولة التي يطبقها علماء اللسانيات الغربية امثال تشومسكي وفيلمور ومكولي وكوك وغيرهم من اللسانيين الغربيين المعاصرين .

(١٢) من حديث شخصي بين الاستاذ الفاضل الدكتور احمد المتوكل وبيني في الدورة العالمية السابعة للسانيات ـ الرباط ـ المغرب .

٤ ـ اللسانيات وازمة المصطلح العلمي اللساني :

ان اي باحث عربي لساني حديث يريد ان يتصدى لبحث اي موضوع لغوي صوتي او نحوي او دلالي لابد وأن يصطدم بالمعضلة الضاربة جذورها في الثقافة العربية المعاصرة تلك هي ازمة المصطلح العلمي اللساني . وتزداد المشكلة تعقيدا اذا علمنا بان التطورات اللسانية الغربية انما تواكب التطورات التكنولوجية بنفس السرعة والعجلة .

وهذا بالطبع سيجعلنا دائما في المؤخرة ، ذلك لاننا نحن العرب مازلنا نبحث الآن عن ايجاد المصطلح اللساني المقابل الذي يمثل فترة التطور اللساني الغربي في الخمسينات والستينات من هذا العصر . مع العلم بأن مئات المصطلحات اللسانية قد تولدت في السبعينات والثمانينات ، من هذا العصر نتيجة التقدم الذي احرزته العلوم اللسانية في الغرب ولاسيما في الولايات المتحدة .

وهكذا فان مصطلحات متعلقة بعلوم لسانية حديثة كاللسانيات البيولوجية واللسانيات الرياضية واللسانيات والادمغة الالكترونية انما هي مفقودة تماما من الثقافة العربية اللسانية المعاصرة . وهكذا يتبين بأن مشكلة المصطلح العلمي اللساني وازمته انما تتعلق . بالسباق الزمني التكنولوجي ذلك السباق المرتبط بمواكبة التطورات العلمية والحضارية الاخرى المتشابكة والمعقدة . والواقع ان حل هذه الازمة ليس بالامر السهل . من هنا يبدو لي أننا نحن العرب ينبغي ان نركز على أمرين اثنين :

الاول : الرهبنة العلمية البحتة : اي اننا محتاجون الى جنود علماء يكرسون حياتهم لايجاد المصطلح العلمي (اللساني) . هذه الرهبنة ينبغي ان تشبه الرهبنة الاميركية التي يكرس اصحابها وعلماؤها جل حياتهم للبحث اللساني العلمي (المثال ألواضح على ذلك جنود معهد ماستشوستس للتكنولوجيا ورهبان جامعة جورج تاون في الولايات المتحدة) .

وينبغي علي ان اذكر في هذا المجال بأن الرهبنة العلمية الامريكية انما هي تقليد للرهبنة العلمية التي تحلى بها العلماء العرب القدامى (أمثال الحسن بن الهيثم والخوارزمي في الرياضيات ، والفارابي وابن رشد والغزالي في الفلسفة ، وابن سينا في الطب وابن خلدون في علم الاجتماع وأبو العلاء المعري في فلسفة الشعر وفلسفة العالم الفيزيائي والميتافيزيائي) .

والواقع لم يكن في اذهان هؤلاء العلماء اي تطلع اقتصادي او سياسي ، بل لقد كان همهم ارضاء الحقيقة والتاريخ ، من هنا اذا استنفد احدهم طاقاته العلمية تجده يقول في خاتمة بحثه « والله أعلم » تلك العبارة المنهجية التي تذكرني بعبارات العلماء الامريكيين المنهجية عندما يقولون « لا اعرف » كجواب لمن يسألهم عن حقيقة لا يعرفونها .

الثاني ، التخطيط الزمني السليم والدقيق والمؤدي الى وضع خطط زمنية معينة لكل موضوع لساني نريد أن نجد المصطلح العلمي اللساني القابل له . فمثلا يمكننا وضع خطة زمنية من عام ١٩٨٣ الى عام ١٩٨٥ وذلك لحل مشكلة المصطلح اللساني المتعلق باللسانيات العامة (النظرية) ومناهجها الحديثة التي تطورت في السبعينات والثمانينات من هذا العصر .

وهذا بالطبع سيتم بالتنسيق والتعاون مع المؤسسات والمنظمات العربية كالمنظمة العربية للثقافة والتربية والعلوم ومكاتب تنسيق التعريب في الوطن العربي ومجامع اللغة العربية في دمشق والقاهرة وبغداد وعمان .

والواقع ينبغي ان يشرف على هذه الخطط والاعمال اللسانية لسانيون مختصون بكافة الفروع والعلوم اللسانية الحديثة والقديمة ، وبكلمة اخرى ، ان من يريد ان يتصدى لهذا العمل ينبغي ان يتصف بالاصالة والمعاصرة اي انه ينبغي ان يحقق التوازن الثقافي بين الاصيل

القديم وبين المعاصر الحديث ذلك التوازن الذي اقترحه الاستاذ الفاضل الدكتور حسام الخطيب اثناء تحدثه عن « معاناة اقامة التوازن بين الاصالة والمعاصرة »(١٣) .

والواقع ان ازمة المصطلح العلمي اللساني تبدو ازمةصارخة وواضحة في المؤتمرات والندوات اللسانية العربية . اننا نلاحظ هنا ان كل باحث لساني له مصطلحاته الخاصة به تلك المصطلحات التي هي عبارة عن جهد شخصي وتأويل فردي . فليس مستغربا ان يجد القارىء العربي أن المصطلح اللساني العربي يحمل عدة تسميات لمفهوم غربي واحد . ويكفي المرء ان يعلم بأن هناك عدة تسميات ومصطلحات عربية لسانية لمفهوم غربي واحد يُعبر عنه بالانكليزية بـ مصطلح واحد هو « Linguistics » . فالقارىء العربي سيجد من الحيرة ما يبعده عن تقبل اي اثارة لسانية عندما يصطدم بمصطلحات لسانية مثل :

١ ــ علـم اللسان .

٢ ــ علـم اللسانيات .

٣ ــ علـم الالسن .

٤ ــ علـم الالسنية .

٥ ــ علـم اللغـة .

٦ ــ علـم اللغويات الحديثة .

فهذه المصطلحات اللسانية ناتجة عن عدم التمسك بهوية ثقافية واحدة ، بل انها ناتجة عن قلة التنسيق العلمي بين الباحثين في البلاد العربية واختلاف نظرتهم العلمية . فبعض اللسانيين العرب لا يمكن لهم

(١٣) لمعرفة طبيعة هذا التوازن الثقافي بين الاصالة والمعاصرة راجع الخطيب د : حسام « الثقافة العربية الراهنة وافاق تطورها في مواجهة الغزو الثقافي » . المعرفة . السنة العشرون العدد ٢٣٩ ، كانون الثاني ١٩٨٢ ص ٦٠ـ١٠٧ .

تقبل العمل الجماعي العلمي الذي هو اساس التفوق التكنولوجي الغربي. انهم يؤثرون العمل الفردي والتأويل الشخصي الذي يؤدي الى مزالق غير علمية وغير موضوعية .

وبكلمة اخرى ، ان مشكلة المصطلح العربي اللساني انما هي امتداد لمشكلات العرب الثقافية الراهنة تلك المشكلات المتعلقة بالهوية القومية والتجربة الحضارية المعاصرة التي تخوضها الامة العربية .

والحق يقال ، لقد وضع استاذنا الباحث الدكتور حسام الخطيب يده على قلب المشكلة عندما شرح طبيعتها وخواصها عندما قال :

« تتخذ المشكلة ابعاداً اشد تعقيداً او تضارباً ، وتأتي هذه الابعاد بالطبع امتداداً لأبعاد التجربة القومية والحضارية التي تخوضها الامة العربية . وباعتبارنا امة مجوزة متخلفة باحثة عن هوية حضارية معاصرة لا بد للغتنا من ان تعاني التجربة ذاتها وبذلك تزيد همومها على هموم لغات اخرى كثيرة في العالم نال اصحابها حدوداً مقبولة من التماسك القومي والتقدم الحضاري والمكانة الثقافية العالمية . وهكذا فان المسألتين القومية والحضارية وما يتفرع عنهما من مسائل ترتبان على اللغة العربية تبعات خاصة متميزة من ابرز ابعادها البعد القومي او الوحدوي والبعد الاجتماعي والبعد الثقافي » (١٤) .

ويبدو لي انه بالاضافة الى هذه الابعاد القومية والاجتماعية والثقافية ، هناك بعد آخر للمشكلة ذلك هو البعد النفسي الفردي والشخصي للانسان العربي ذلك البعد الذي يقوده الى اللامنهجية واللاعلمية .

---

(١٤) راجع : الخطيب د : حسام ، ملامح في الادب والثقافة واللغة مطبعة وزارة الثقافة والارشاد القومي (سورية) ١٩٧٧ ص ٣٥٨ ـ ٣٦١ .

والواقع لقد كان العرب القدماء في هذا المجال افضل منافي توجيه البعد النفسي الفردي توجيهاً جماعياً يقود الى الاخلاقية والمنهجية العلمية . والمثال الواضح على ذلك مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة وتطورهما الفكري اللساني المستقل عن الارتباط بشخصية أو فرد معين (١٥) .

هذا البعد الفردي ـ الجماعي ذو الطابع المنهجي العلمي الاخلاقي إنما اخذه البحث التكنولوجي الغربي عن منهجية الحضارة العربية بكافة مستوياتها المعرفية . وليست البحوث الدقيقة والمتماسكة التي مكنت الغرب من التقدم الهائل والسريع الا نتيجة لهذه الفردية ـ الجماعية في الطابع الاخلاقي والعلمي .

من هنا فانه من واجب العرب المعاصرين المختصين بالعلوم اللسانية دفع العجلة القومية والاجتماعية والثقافية والنفسية (الفردية ـ الجماعية) باتجاه التكوين الحضاري الفردي والبحث اللساني التقني الذي كان قدماؤنا روّاده عندما كانت راية الحضارة العالمية في أيديهم .

لقد ادى العرب القدماء دورهم الحضاري في هذا المجال واستطاعوا حل ازمة المصطلح العلمي بكافة فروعه وذلك لانهم تمسكوا بالايديولوجية العربية ـ الاسلامية في الابعاد الوحدوية والاجتماعية والثقافية والنفسية . لقد كانت مناهجهم في حل أزمة المصطلح العلمي هي نفسها التي اراها في بلد تكنولوجي كالولايات المتحدة من حيث الدقة ـ والموضوعية ـ والشمولية ـ والعلمية الاخلاقية .

---

(١٥) لمعرفة البعد الفردي والجماعي للنفسية العربية وتوجيهها توجيها ايديولوجيا يمكن للقارىء الرجوع الى مقالتنا « الابعاد الشعريةواللغوية والفلسفية لرسالة الغفران : دراسة تحليلية في ضوء علم اللسان الحديث » المنشورة في مجلة التراث العربي . الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد الرابع ـ السنة الثانية آذار ١٩٨١ ص ١٢٢ ـ ١٥٠ .

فاذا كنتُ متحمساً الى مناهج العرب القدامى فلستُ أدعـو الى نبش قبورهم وبث الحياة فيهم مرة اخرى ليكونوا روّاد الحضـارة العربية الحديثة بعد ان فشلنا نحن في صياغة اطرها وتحديد هويتها . إن دورهم الحضاري قد انتهى في عرف التاريخ وجاء دورنا نحن ، ذلك لأن عملية التاريخ وحركته لا يمكن ان تسير الى الوراء ، إن تاريخهم كانَ نتيجة واقع وزمان معين ، هذا الواقع والزمان المعين لا يمكن أن يُعاد مرة أخرى ليكوّن ويصوغ حضارة كلية حديثة .

ولكن إذا كانت قولة الفيلسوف اليوناني القديم هيرقليطس صحيحة من اننا « لا يمكن لنا إن نستحمّ بماء النهر مرتين » فانـه يمكن لنا في الوقت نفسه ان نستلهم منهجية العرب التاريخية في التكوين الحضاري لتكوين جزءاً لا يتجزأ من وجودنا الفكري والثقافي حاضراً مستقبلاً .

٥ ــ اللسانيات وازمة « صرخة العصر وموضته » :

هناك ازمة اخرى ليست لسانية ولكنها تقف على هامش اللسانيات كعلم قائم برأسه . هذه الازمة احببت أن ادعوها بـ « صرخـة العصـر وموضته » . واعني بذلك شغف المثقفين العرب المعاصرين أيّاً كانت اختصاصاتهم وحقولهم وعلومهم باللسـانيات و « موضاتها » الحديثـة على حد تعبيرهم .

والواقع إن صرخة اللسانيات وضجتها كعلم قائم برأسه بدأ يأخذ مكانه في العالم العربي ، إنما كانت صرخة لها فوائدها . ولكن سلبياتها كانت اخطر واعمق في الفكر العربي اللسـاني الحديث .

فمن حيث فوائد هذه الصرخة ، فقد استطاعت ان تلفت انتباه الكثير من المثقفين العرب الى علم اللسانيات الحديث ثم الى قضاياه اللغويـة المهمة جداً في حقول المعرفة البشرية الاخرى . وهكذا فقد أصبح مـن

المستحيل على اي دارس مثقف ينتمي الى حقول المعرفة الانسانية وحتى الطبيعية منها ان يتجاهل علم اللسانيات ومبادئه العامــة ؛

فالفيلسوف وعالم النفس وعالم البيولوجيا وعالم الرياضيات وعالم الادمغة الالكترونية ثم الشاعر والاديب كلهم محتاجون لمعرفة المبادىء العامة للسانيات ثم لمعرفة العلاقات الوشيجة المثمرة التي تربط علومهم بعلم اللسانيات . وهكذا بعد الثورة التشومسكية التي شغلت الفكر المعاصر من ستينات هذا العصر وحتى ثمانيناته تلك الثورة التي قلبت المفاهيم العلمية في العلوم الانسانية والطبيعية ، اقول إنه بعد هذه الثورة اصبح علم اللسانيات وكأنه العصا السحرية التي ضرب بها موسى عليه السلام البحر فشقه نصفين للولوج عبره الى الضفة الاخرى .

وبعبارة دقيقــة ان علمــاء اللسانيات الامريكيين يعتبــرون علــم اللسانيات بالنسبــة للعلــوم الانسانيــة كالرياضيات بالنسبة للعلــوم الطبيعية . فكما انه لا يمكن لاي عالم ان يبحث في احد العلوم الطبيعية كالفيزياء والكيمياء والبيولوجيا إلا اذا استعان بالرياضيات كوسيــلة علمية لضبط صحة نظرياته الطبيعية وموضوعيتها ودقتها فانه لا يمكن لاي عالم أن يبحث في احد العلوم الانسانية كالفلسفة وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا والنقد الحدث إلا اذا استعان باللسانيات كوسيلة علمية لضبط صحة نظرياته الانسانية وموضوعيتها ودقتهــا .

على انه في الوقت نفسه ينبغي للسانيات أيضاً ان تستفيد من الرياضيات الحديثة وذلك لضبط صحة نظرياتها الشمولية وجعلها اكثر موضوعية وعلميــة .

لقد عبّر عن هذه الحقيقة العلمية عالم اللسانيــات الامريكي نعــوم **تشومسكي** N. Chomsky اذكر من خلال حوار لغوي اجريته معــه في معهد ماسسوسس للتكنولوجيا في الولايات المتحدة انني سألته هــذا الســؤال :

« لقد ادعى عالم اللسانيات الفرنسي اندريه مارتينه **André Martinet** بانك لست عالماً في اللسانيات بل إنك عالم في الرياضيات وذلــك لانــك

تنظر الى اللغة من منظار رياضي وليس من منظار لساني لغوي . فما رأيك بهذا القول ؟ » (١٦) .

وقد كان جواب تشومسكي على هذا السؤال جواباً علمياً رائعاً لخص الفرق الشاسع بين اللسانيات الملمّة بالشعريات والاسلوبيات كما هو الحال عند بعض المدارس اللسانية الاوربية كالتي يمثلها الفيلسوف واللغوي البريطاني إيان روبنسون Ian Robinson (١٧) وبين اللسانيات الاميركية الملمّة بالرياضيات والاساليب الفيزيائية والتي يمثلها عالم اللسانيات الامريكي تشومسكي في آخر كتاب صدر له (١٨) يقول تشومسكي بهذا الصدد :

---

(١٦) لمزيد الاطلاع على الحوار اللغوي الذي اجراه صاحب هذه السطور مع عالم اللسانيات الفرنسي اندريه مارتينه في مونتريال ـ كندا ، يمكن للقارىء الرجوع الى مقالتنا « على هامش المؤتمر اللغوي الخامس للسانيات التطبيقية المنعقد في مونتريال كندا ١٩٧٩ » المنشورة في مجلة المعرفة . الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية السنة السابعة عشرة ، العدد ٢٠٣ كانون الثاني ١٩٧٩ ص ١٨٢ ـ ١٩٧ .

(١٧) لمعرفة النقد الذي وجهه ايان روبنسون لاتجاه تشومسكي الرياضي يمكن للقارىء الرجوع الى كتابه « جنازة النحويين الجدد » :

Robinson , Ian , (1975) . **The New Grammarians' Funeral** . U'niversity press , London .

(١٨) لمعرفة الاتجاه الرياضي التجريدي في النظرية اللسانية يمكن للقارىء العربي الرجوع الى كتاب تشومسكي « محاضرات حول نظرية العامل والربط الاحالي » .

Chomsky , Noam (1981) . **Lectures on Government and Binding** . Foris publications :
Dordecht , Holland .

ويستحسن بالقارىء الرجوع الى كتاب آخر لتشومسكي هو استمرار لنظرية العامل والربط الاحالي صدر حديثا تحت عنوان « بعض المفاهيم والتطورات لنظرية العامل والربط الاحالي » .

Chomsky , Naom (1982) . **Some Concepts and Consequences fo the Theory of Government and Binding** . The MIT Press, Cambridge . Mass .

« ليس عندي اية فكرة حول ما يعنيه مارتينه ، ولكنني على اية حال ابحث في المبادىء اللغوية العامة التي تقتضي ان تقدّم في صورة واضحة وجلية . إنني مقتنع تماماً ان البنية اللغوية إنما هي بنية معقدة مبنية على اساس من العلاقات الترابطية التي هي غاية في التجريد . وهكذا فانه ينبغي على النظرية اللسانية ان تحوي بنية استنتاجية بحيث يمكن شرح العلاقات المعقدة والمجردة في اللغات البشرية على اساس من المعايير التفاعلية المبنية على مبادىء عامة موحدة . إن الهدف الاخير لهذه المعايير التفاعلية هو وصف الخواص والمميزات اللسانية للغات البشرية في اطر وانظمة رياضية دقيقة .

إنه يمكنك أن تقول الشيء نفسه لعلماء البيولوجيا ، إنه يمكن ان تدّعي انهم ليسوا علماء بيولوجيا ، بل إنهم علماء رياضيات وذلك لانهم يحاولون أن يجعلوا نظرياتهم اكثر دقة وموضوعية (باستخدام الرياضيات) . إنه ينبغي على أي عالم في حقل المعرفة البشرية ان يكون دقيقاً وموضوعياً في نظرياته وذلك لانه كلما اقترب العلماء في نظرياتهم من الدقة والموضوعية المتناهية كان من الممكن تقدير المنهج الرياضي الذي يجعل النظرية اكثر علمية . وهذا يعني انه ينبغي علينا أن نقيّم النظرية اللسانية من وجهة نظر تجريدية رياضية بحتة » (١٩) .

والواقع لقد ذهب عالما اللسانيات الامريكيات ايريك لينيبرج Eric Lenneberg ونعوم تشومسكي Naom Chomsky ابعد من ذلك . فقد اعتبر هذان العالمان انه ينبغي على علم اللسانيات ان يكون

---

(١٩) لمعرفة الحوار الذي أجراه صاحب هذه السطور مع عالم اللسانيات الامريكي نعوم تشومسكي يمكن للقارىء الرجوع الى مقالتنا « حول بعض القضايا الجدلية لنظرية النحو التوليدي والتحويلي » المنشورة بالعربية والانكليزية والفرنسية في مجلة اللسانيات التابعة لمعهد العلوم اللسانية والصوتية بجامعة الجزائر المجلد رقم ٦ عام ١٩٨٢ .

فرعاً من العلوم الطبيعيّة وبالخصوص فرعاً من علم البيولوجيا يدرس دراسة علمية تشريحيّة (٢٠) .

والواقع ان هذه الصرخة والضجة الكبيرة الملفقة بالعلم والتي أحاطت علم اللسانيات قد افادته كثيراً وقوّت عوده وشدّت ساعده ، بل لقد حثت الباحثين للتعمق به وتطويره تطويراً ناجعاً ونافعاً وذلك من خلال دراسات لغوية عديدة .

والواقع إن علمية اللسانيات وارتباطها بالعلوم الطبيعيّة الحديثة ثم الثورة العلمية التي دارت حولها في ستينات هذا العصر وثمانيناته إنما اعطت علم اللسانيات مكانة خاصة في بلدان مثل الولايات المتحدة وأوربا والاتحاد السوفياتي . لقد عبرّ عن هذه المكانة العلمية وشرح طبيعتها العالم الاميركي توماس كون Thomas Kuhn في كتاب « بنية الثورات العلمية »
« The Structure of Scientific Revolutions » (٢١) .

فالطبيعة العلمية التجريبيّة والفيزيائية والرياضية لعلم اللسانيات حسب راي كون إنما كانت من الاسباب الهامة التي جعلت علم اللسانيات يبتعد عن مسار العلوم الانسانية ويقترب من مسار العلوم الطبيعيّة التجريبيّة . هذه الطبيعة العلمية لعلم اللسانيات إنما اخذت شكلها التام والواضح بالثورة التي قام بها تشومسكي عام ١٩٥٧ عندما وضع اللسانيات في إطار رياضي وفيزيائي وبيولوجي .

---

(٢٠) لمعرفة الاسس العلمية البيولوجية الموضوعة لجعل علم اللسانيات فرعاً من علم البيولوجيا يستحسن بالقارىء الرجوع الى البحث الذي قدمه صاحب هذه السطور في الدورة العالية السابعة للسانيات المنعقدة في جامعة محمد الخامس بالرباط من ٢٨ تموز الى ٢٠ آب ١٩٨٢ . وعنوان هذا البحث هو « حول الأسس البيولوجية للطاقات اللغوية » .

(٢١) لمعرفة التغيرات العلمية الطارئة على العلوم الطبيعية والانسانية راجع : الكتاب القيم الذي كان كتبه توماس كون :

Kuhn, Thomas , (1970) . **The Structure of Scientific Revolutions** . The university of Chicago Press , Chicago .

والحقيقة لقد كان توماس مصيبا ، عندما وضّح هذه المسألة العلمية المتعلقة باللسانيات . ولا ادل على ذلك من ان علم اللسانيات بأطره الرياضية والفيزيائية والبيولوجية استطاع أن يجذب قطاعا بشريا كبيرا بدأ يهتم بهذا العلم . وهكذا فانه لا يمكن مثلا لأي دارس ان يختص باللسانيات في معهد مثل معهد ماستشوستس للتكنولوجيا في الولايات المتحد الا اذا كان على المام عام بالرياضيات والمنطق والفيزياء .

ولكنه في الوقت نفسه فان صرخة اللسانيات العلمية وضجتها في العالم العربي كان لا بد ان تجلب لعلم اللسانيات اضراراً كثيرة تزداد يوماً بعد يوم . لقد استطاع علم اللسانيات في بلدان الدول النامية كبلدان العالم العربي أن يجذب قطاعاً بشرياً كبيراً من ذوي النفوذ الاجتماعية والاقتصادية والسياسية (وليس اللسانية أبداً) . فقد استطاع ان يدخل من نوافذ هذا العلم الضيقة شخصيات كثيرة أساءت الى هذا العلم والى مبادئه واسسه (٢٢) . بل إن استخدام هذه الشخصيات في الاختصاصات البعيدة عن اللسانيات لعلم اللسانيات وتطبيقاته على بعض الحقول التي يعملون بها إنما أساءت لا لعلم اللسانيات فحسب بل الى الفروع الانسانية التي يعملون عليها أيضاً .

فالكثير من الباحثين في حقول غير لسانية ــ ونتيجة لهذا الخطأ المنهجي و « الصعق اللساني » بدؤوا يعتبرون حقولاً كالشعريات والنثريات والاسلوبيات وما أشبه ذلك علماً لسانياً او على الاقل فروعاً من علم اللسانيات ، مع العلم ان علم اللسانيات هو علم قائم براسه له أسسه ومناهجه ومبادئه التي لا علاقة لها ابداً بالشعر . والنثر والاسلوب .

(٢٢) حتى إنني اذهب أكثر من ذلك لاقول بان هذه الشخصيات جعلت من اللسانيات اضحوكة ومهزلة في الوطن العربي . هذه الأضحوكة والمهزلة دفعت التقليديين المتحجرين لأن يعتبروا اللسانيات دسيسة أجنبية ينبغي أن ترمى في بلاد « الواق الواق » . وبالطبع كانت اللسانيات الحقيقية ضحية الجهل والتخلف العلمي الناتج عن غياب المنهجية الفردية ــ الجماعية .

ولكن هذا لا يعني ابداً عدم استفادة الشعريات والنثريات والاسلوبيات والفلسفة وعلم النفس وعلم الانثروبولوجيا وما اشبه ذلك من علم اللسانيات والعكس صحيح تماما . ذلك لان العلوم الانسانية الطبيعية تستفيد من بعضها بعضاً وتطور بعضها بعضاً في حقل المعرفة البشرية (٢٢) .

ولكن ما اقصده هنا هو عدم التخصص ثم عدم الإلمام بمناهج علم اللسانيات ومبادئه الحقيقية والاكتفاء بالتلبس باللسانيات وأطرها كـ « موضة » من « موضات » العصر .

وبكلمة اخرى إن ما اعنيه بهذا الصدد هو بالضبط ما عناه الكاتب العربي الروائي الكبير حنا مينه عندما عبّر عن تجربته الشخصية الفردية التي اعتبرها تجربة جماعية في هذه الكلمات :

« لقد عانيت من الاغراءات طويلاً وصمدت لها طويلاً ، تعلمت من الغربة أن الاخذ « من كل شيء بطرف » يتعارض مع التخصص الذي هو مزية عصرنا . ومع انني ، بعد عودتي من هذه الغربة مباشرة ، وفي سبيل لقمة العيش ، كتبت مسلسلات اذاعية بالفصحى والعامية ، ورسمت ادواراً لأم كامل وأبي فهمي وغيرهما من الممثلين ؛ إلاّ أن لعبة التشتت انتهت . ما أن صار لي عمل مستقل ، يكفيني كي أعيش بتواضع او على الكفاف ، رفضت خاطرة الصباح التي كنت اكتبها ،

---

(٢٢) لمعرفة الاشعاعات اللسانية وتطبيقاتها على الاسلوبيات والنثريات والشعريات تطبيقاً علمياً رائعاً يمكننا الاستشهاد بعملين دقيقين في هذا المجال وهما :

(a) Chapman, Raymond (1973) . **Linguistics and Literature : An Introduction to Literary Stylistics** . Littlefielld, Adams, Company New Jersey .

(b) Freeman . D. C (1970) . **Linguistics and Literary Style** . Holt , Rinehart and Winston . New York .

والبرنامج الاذاعي حول القصة ، وكتابة الاذاعيات ... ثم رفضت ، حين تحسن وضعي المعيشي كتابة المقالة الاسبوعية ، وكثيراً ما ارفض المقابلات الصحفية والدعوات لالقاء محاضرات ، واخسر دخلاً طيباً من جراء ذلك؛ لكنني اعوضه بما تدر علي رواياتي . وفي النهاية اعتذرت عن كتابة السيناريو الاذاعي أو التلفزيوني أو السينمائي لاي من رواياتي . قلت : انا كاتب رواية فقط ، ونجاحي هنا على فرض تحققه ، قد لا يكون هو ذاته في كتابة السيناريو ذلك ان كتابته اختصاص ، والمثل يقول : « اعط خبزك للخباز ولو أكل نصفه » .

ومرة جاءني احد الاصدقاء الاعزاء من الروائيين ، وأبلغني انه يعمل مستشارا أدبيا لاحدى شركات الانتاج التلفزيوني وبهذه الصيغة طلب مني اعداد احدى رواياتي للتلفزيون ، وقدم عرضا بمبلغ كبير . اعتذرت طبعا . فضلت كتابة « حكاية بحار » وحين فرغت منها فكرت على هذا النحو : لو انني خلال العام الذي انفقته فيها ، كتبت ثلاثة سيناريوهات، وحصلت منها على مئة الف ليرة سورية ، فأيهما اثمن : كتابة رواية أو ربح مئة الف ليرة ؟ ودون تردد كان جوابي : كتابة رواية . ان « حكاية بحار » ـ مهما يكن الرأي فيها ـ افضل من المئة الف ليرة ، فهذه ستنفق والسيناريوهات ستعرض مرة أو مرتين أو ثلاث وينتهي أمرها ، اما « حكاية بحار » فانها باقية .

الصبر والوقت والتفرغ الكامل ... هذه ضرورات اساسية للعمل الروائي » (٢٤) .

---

(٢٤) راجع حنا مينه في مقالته « هواجس في التجربة الروائية » مجلة المعرفة ، الصادرة عن وزارة الثقافة والارشاد القومي في سورية السنة العشرون العدد ٢٤٠ شباط ١٩٨٢ ص ١٣٦ ـ ١٣٧ .

فعلى سبيل الاستطراد ، يمكن ان تكون روايات الكاتب الروائي المعروف حنا مينه حقلا خصبا للدراسات الاسلوبية الدلالية المعاصرة . فعلى الرغم من عدم معرفتي بالرجل إلا أنني أستطيع القول ـ بانني ـ من خلال قراءتي لاعماله اعتبره يملك ايديولوجية البحث العلمي ذي الطابع الفردي ـ الجماعي ـ .

والواقع ان الصبر والوقت والتفرغ الكامل ليست ضرورات اساسية للعمل الروائي فحسب بل انها ضرورات اساسية للعمل العلمي أيّاً كانت اتجاهاته ومعارفه البشرية .

انه من خلال وجهة النظر هذه فقط ليس مستغربا ابدا اذا جلست مع بعض الناس المختصين مثلا بالادب الجاهلي او الاسلامي او العباسي او المملوكي ان يقولوا لك بانهم يريدون دراسة هذه الآداب دراسة لسانية حديثة ... بل انهم يريدون دراسة تاريخ هذه الآداب دراسة لسانية رياضية حديثة ، وترى بعضهم الآخر يريد التلبس باللباس اللساني وذلك لوضع الأدب والشعر في « موضة » Fashion حديثة وصرخة عصرية علمية كبديل للتحليلات الشعرية والاسلوبية العربية القديمة ، وترى جماعة أخرى تريد التشبث باللسانيات وارغام الشعريات للخضوع لمناهجها ثم مقارنتها مع المناهج البلاغية الاسلوبية عند العرب القدماء ناسين او متناسين بان العرب القدامى ارادوا من البلاغة العربيــة لان تكون نظرية دلالية كاملة الأبعاد تصب في النظرية النحوية والصوتية التي كانوا وضعوها لتحليل اللغة العربية .

وهكذا فان هؤلاء الباحثين لا يسيئون الى علم اللسانيات الحديث فحسب انهم يسيئون الى التراثالعربي اللساني في مختلف جوانبه ايضاً.

والواقع ان المرء ليتعجب حين يسمع مثلهذه الصرخات و«الموضات» اللسانية في المؤتمرات والدورات اللسانية المعقودة في ارجاء الوطن العربي. واستطيع ان ادلل على الاضرار المنهجية التي تلحق بعلم اللسانيات من خلال هذه الاقوال التي يسمعها المرء من حين الى آخر :

١ ــ سأحقق ديوان « ما شئت من الشعراء » واضعه في اطار لساني حديث .

٢ ــ ساحلل قصيدة من عصر دول الانحطاط واضعها في اطار لساني حديث « لعلها ترتفع عن عصر الانحطاط وتصبح في عصر دول الارتفاع والتكنولوجيا » .

٣ ــ حتى ان العاملين في البنوك كانوا قد دعوا الى الدورات اللسانية للاستفادة من علم اللسانيات « لعلهم يريدون التعامل مع الناس في اطار لساني وبعملة لسانية صعبة » .

٤ ــ ثم ان كثيرا من الناس الذين يحضرّون دراساتهم العليا في تحقيق ديوان من الشعر ، عندما يجري حديث اللسانيات واللسانيين في جلسة استرخاء « اللسانيات » فانك تراهم يخفون سيرة شاعرهم المحقق شعره ويقولون لك بانهم يعملون على اللسانيات .

والواقع احب ان الفت انتباه القارىء العربي الكريم لقضية ربما يُساء فهمها وهي انني بهذا الطرح الفكري لا ادعو ابدا (واوكد على ذلك) الى بورجوازية اللسانيات وحصرها في فئة معينة من الناس التي يمكن لها أن تستفيد من خيرات اللسانيات وغناها (على الرغم من ايماني التام بأن اللساني الحق انما هو شقي فقير بائس على الاقل من وجهة نظر المتنبي عندما قال :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   واخو الجهالة في الشقاوة ينعم

ان النقطة المهمة التي اريد ان اؤكد عليها هي ان اللسانيات علم قائم براسه مستقل عن بقية العلوم الاخرى .. هذا العلم له مبادئه ومناهجه (وعلى الاقل من وجهة نظر اميركية بحتة) وهو موضوع في اطار رياضي وفيزيائي وبيولوجي في غاية من الدقة والضبط العلمي . فلكي يستطيع الباحث التعمق والالمام بهذا العلم فانه يحتاج الى الصبر والوقت والتفرغ الكامل .

وتراني مضطرا من خلال هذا الشرح حول السلبيات التي تحيط بعلم اللسانيات للتحدث عن طبيعة هذا العلم . ان علم اللسانيات في طبيعته النظرية والتطبيقية يشبه تماما علم الفيزياء . فكما يمكننا توجيه علم الفيزياء توجيها صحيحا سليما للبحث في الظواهر الفيزيائية المحيطة بنا ثم الاستفادة من هذه الظواهر الفيزيائية نتيجة تطويعها لعلم الفيزياء تلك الظواهر التي تفيد الانسان والانسانية كاستخدام الطاقة الضوئية والنووية لحل المشكلات التكنولوجية ، فانه في الوقت نفسه نستطيع توجيه علم الفيزياء توجيها خاطئا معوجا للبحث في الظواهر الفيزيائية المحيطة بنا ثم الاستفادة من هذه الظواهر الفيزيائية لتدمير البشرية وحضارتها كاستخدام قنابل النابلم مثلا .

والواقع ان الشيء نفسه يمكن أن ينطبق على علم اللسانيات . فكما يمكننا توجيه علم اللسانيات توجيها صحيحا سليما للبحث في الظواهر اللغوية المحيطة بنا ثم الاستفادة من هذه الظواهر اللغوية في عدة مجالات مختلفة كتعليم اللغات الام والاجنبية ثم تعريفنا بالمجتمعات التي تقف وراء اللغة والتي يمكننا تطويرها تطويرا حضاريا تقنيا ، فانه يمكننا في الوقت نفسه توجيه علم اللسانيات توجيها خاطئا معوجا للبحث في الظواهر اللغوية ثم الاستفادة منها لتفتيت شمل الامة الواحدة في الحضارة والتاريخ الواحد كدراسة اللهجات العربية واللغات المحلية المحيطة بها واثارتها كلغات قائمة بذاتها وذلك لتفتيت الثقافة الواحدة في الرابط اللغوي الواحد .

انه يمكننا من خلال استخدام اللسانيات استخداما معوجا ان نتوج الناس المصابين « صعقة اللسانيات » و « موضتها » بتاج العلم والعلماء ثم ندفعهم في ذلك الاتجاه لينادوا بديمقراطية اللغات واللهجات المحلية ووجوب درسها ، تلك الديمقراطية التي تحوي في خفاياها اضعاف الايديولوجية العربية اللغوية الثقافية .

انه باستخدامنا لعلم اللسانيات استخداما معوجا ثم باستثارنا بالديمقراطية المزيفة يمكننا ان ندعو الى دراسة اللغات المحلية الاخرى في الثقافات الاقليمية المتعددة والتي رافقت العربية على مدى تاريخها الطويل . فكثيرا ماسمعنا بان بلدا معينا كلبنان ينبغي الا نفرض عليه لغتنا العربية وذلك لان العربية تحمل عادات العرب وتقاليدهم وثقافتهم وحضارتهم . اما لبنان فهي فينيقية غربية تنتمي الى بوتقة الغرب ولغتها الفرنسية وثقافتها .

ان فرض العربيةوثقافتها علىٰ لبنانانما هو اجحاف بحقوقالجماعات المسيحية الاخرى في الثقافة الغربية (٢٥) .

ويحسن التنبيه بقوة هنا كما ذكر الدكتور حسام الخطيب « الى ان الفكر الانعزالي الذي شجع الثقافة الانعزالية ليس من صنع المسيحيين اجمالا فعلى العكس من ذلك كان الكتاب المسيحيون الكبار في مطلع هذا القرن مثل امين الريحاني وميخائيل نعيمه ومارون عبود ورئيف خوري وجبران والياس ابو شبكة وشفيق المعلوف وغيرهم كانوا دائما دعاة نهضة وتحرر وديمقراطية مع غلبة كاسحة للاتجاه العلماني الداعي الى قيام مجتمع يبنى على قاعدة المواطنية لا الطائفية ، على قاعدة القومية العلمانية الجامعة لشتات الامة . والواقع أن هذه الدعوات الانعزالية سواء أكانت في لبنان او غيره من ارجاء الوطن العربي انما هي دعوات سامة تريد استخدام الجوانب السلبية والضارة لعلم اللسانيات وذ · لنبش اللغات

(٢٥) ما زلت اذكر التصفيق الطويل الذي استقبله احد اللبنانيين اللسانيين عندما القى كلمته الداعية الى هذه الديمقراطية المزيفة في المؤتمر اللغوي الخامس للسانيات التطبيقية في مونتريال ـ كندا ١٩٧٩ . وما من شك أن هذه الديمقراطية المزيفة والتصفيق الطويل الذي رافقها يدلان على النزعة العدوانية تجاه الثقافة العربية وحضارتها وتاريخها .

المحلية وثقافاتها عن طريق تطبيق هذا العلم اللساني . ان الهدف من دراسة هذه اللغات المحلية وثقافاتها انما هو الانسلاخ عن الثقافة العربية والحضارة العربية التي استوعبت جميع هذه اللغات المحلية وثقافاتها على مدى التاريخ الطويل .

ان هذه الحركات الانعزالية كثيرا ماتستغل المعاناة التي تمر بها الثقافة العربية اللسانية المعاصرة ، تلك هي معاناة تحقيق التجاوب بين اللغة المحلية وثقافتها من جهة وبين اللغة العربية القومية وثقافتها ايضا. فانطلاقا من هذه الظروف التي تمر بها الثقافة العربية يمكن لعالم اللسانيات ان يدعي بان جميع اللغات المحلية والقومية متساوية من وجهة نظر لسانية ، لذلك ينبغي علينا دراستها دراسة علمية . والواقع انه لاغبار على ذلك منذ ان كانت اللغات البشرية كلها مادة للبحث اللساني ومنذ ان كانت هذه اللغات المحلية مهمة ولها علاقة ايجابية (لا سلبية ولا تنافسية) بالثقافة العربية ولغتها القومية ، ولكن الخطر الذي تنطوي عليه مثل هذه الدعوات هو استغلال هذا الطرح العلمي . فهم يريدون من خلال هذا الطرح العلمي ان يطوروا هذه اللغات المحلية الى مستوى قومي اخر ثم انهم يريدون ان ينبشوا ثقافة هذه اللغات المحلية ويحملوها ما لا تستطيع ان تحمله . وكل ذلك سيؤدي بالطبع الى تفتيت الثقافة العربية الواحدة والتاريخ العربي الواحد الذي صلبه وجداره اللغةالعربية القومية .

والواقع ان مانعني به من الوجهة اللسانية هو نفسه الذي كان طرحه الاستاذ احمد عباس صالح خلال مناقشات مؤتمر الادباء العرب الثاني عشر بدمشق عندما قال :

« وانا عندما اتكلم عن الفرعونية لا اريد ان يتجاهل الناس التاريخ القديم ، انما مسألة استغلال الفرعونية استغلالا سياسيا شيء واحترامنا

لتاريخنا القديم سواء اكان اشوريا او بابليا او فرعونيا او فينيقيا شيء آخر ..... » (٢٦) .

والواقع لقد شرح استاذنا الفاضل الدكتور حسام الخطيب مشكلة « معاناة تحقيق التجاوب بين اللون الفطري المحلي واللون القومي العربي» شرحا ينطبق تماما على المشكلة اللسانية ومعاناة تحقيقها التجاوب بين اللغات المحلية واللغة القومية . عندما قال :

« ان النزعة الاقليمية ولدت مع ولادة الثقافة العربية الحديثة في عصر النهضة . وهي مظهر واضح جدا من مظاهر الغزو الثقافي . فكما انه على المستوى السياسي كرست اتفاقية سايكس بيكو تقسيم منطقة المشرق العربي الى دول تتبع كل واحد منها السلطة البريطانية اوالفرنسية فان التخطيط الاستعماري كان قد عمل منذ البدء على الالحاق الثقافي لكل قطر من الاقطار المحتلة بالدولة الاستعمارية . ولعلنا نتذكر انه منذ ان قرع جرس النهضة الحديثة في مطلع القرن التاسع عشر كانت قد سبقت ذلك بسنوات حملة نابليون بونابرت على مصر عام(١٧٩٨) التي كانت تهدف الى تحويل مصر الى دولة عصرية على الطراز الفرنسي مما يساعد على ابقائها موالية لفرنسا الى الابد ، وبعد ذلك بثلث قرن تماما عملت فرنسا (١٨٣٠) على احتلال المغرب العربي وعلى محو هويته والحاقه ثقافيا بفرنسا والحاق الجزء الاكبر منه سياسيا بها كذلك . وفي الوقت نفسه كانت الارساليات تتنافس في لبنان على كسب ود الطوائف المختلفة وصبغها ثقافيا بصبغة الدولة صاحبة الرعاية .

ولو نظرنا الى الخارطة الثقافية العربية اليوم لوجدنا ان النتوءات الاقليمية البارزة منها هي هذه المناطق الثلاث . وليس يعني ذلك أبدا

---

(٢٦) أنظر صالح ، أحمد عباس ، وقائع المؤتمر العام الثاني عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب ومهرجان الشعر الرابع عشر بدمشق ج ٣ ص ١١٠ .

ان اللون الغالب على ثقافة هذه المناطق هو اللون الاقليمي ، وليس يعني ذلك اي مساس بالانتماء الثقافي والقومي لهذه الاقطار . انما يعني من الناحية الواقعية انه بسبب من الظروف التاريخية للعلاقة الاستعمارية خلق في هذه المناطق مناخ مشجع على بروز النزعة الاقليمية في الثقافة مع تفاوت شديد في هذه النزعة بين السعي لتحقيق اللون الخاص لكل منطقة وبين الايغال في ذلك الى درجة الانعزالية والتحلل من الثقافة العربية وفي احيان كثيرة الجهر بالتفاعل مع الثقافة المعادية ...... والقاعدة العامة بهذا الصدد تقول ان كل صوت مهما كان غبيه أو خافتا أو جاهلا يجد تشجيعا فوريا لدى كثير من وسائل النشر الثقافي ولاسيما اذا كان يضرب على وتر الانسلاخ عن الثقافة العربية والمسروق من اللغة العربية وسرعان ماتتجاوب له اصداء في صحافة الغرب واوساطه الثقافية)) . (٢٧)

والواقع ان هذا الخلل الثقافي بين الثقافات المحلية والثقافة العربية القومية انما هو نفسه بين لغات هذه الثقافات المحلية ولغة الثقافة العربية القومية . ولكن ينبغي علينا ان نذكر في هذا المجال بأن المعايير اللغوية المؤدية لانتشار اية لغة من لغات العالم ليست متعلقة بكثرة عدد متعلميها او ضآلتهم ، وانما تتعلق بقدرتها على استيعاب تاريخ طويل وثقافةعريضة وحضارة ضخمة ثم بقدرتها على استيعاب العلوم البشرية كافة .

والواقع لقد اثبتت اللغة العربية على مدى خمسة عشر قرنا منالزمن

(٢٧) انظر الخطيب د : حسام في الكلمة التي القاها امام المؤتمر الثالث عشر للاتحاد العام للادباء والكتاب العرب في عدن وصنعاء والمنشورة في مجلة المعرفة السنة العشرون العدد ٢٣٩ كانون الثاني ١٩٨٢ ص ٧٥ ـ ٧٦ ، تحت عنوان ((الثقافة العربية الراهنة وآفاق تطورها في مواجهة اشكال الغزو الثقافي)) .

بأنها اللغة الوحيدة في العالم العربي القادرة على حمل التراث العربي الاسلامي الانساني والعلمي ، ثم انها اللغة الوحيدة التي تمثل التاريخ المشترك والثقافة المتماسكة المشتركة بل انها تمثل الوجود العربي بكامل ابعاده ومهما كانت الوانه وثقافاته .

وبهذا فالعربية ليست ملكا للعرب وحدهم فحسب بل انها ملك الحضارة البشرية ايضا ، ذلك لانها تمثل تراثا انسانيا غنيا يمكن له ان يغني الثقافات الانسانية ويكون جزءا لايتجزأ منها .

ان مايحزن الانسان العربي ويدمي قلبه هو ان يرى ان النتائج التطبيقية المفيدة الناجعة للثقافة اللسانية انما يسخرها الغرب لخدمة مجتمعاته وخدمة لغاته وان يرى في الوقت نفسه ان النتائج السلبية للثقافة اللسانية ومشكلاتها انما تسخر في العالم العربي لتفتيت الثقافة العربية الواحدة والتي تمثلها لغة عربية قومية واحدة .

ويبقى صحيحا بان الامبريالية العالمية تسعى جاهدة لتشجيع كل صوت يضرب على وتر الانسلاخ عن اللغة العربية الواحدة والثقافة العربية الاصيلة بشتى الاشكال الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية (اللسانية) . وبهذا ينطبق عليها ما قالته الكاتبة التشيلية فولوديا تايتليوم بان)) كل ما تفعله الامبريالية متوحش ولكنها دائما قادرة على ان تكون اكثر وحشية)) (٢٨) .

---

(٢٨) من كلمة تايتليوم في (اجتماع المثقفين من اجل سيادة شعوب أمريكا) هافانا ٥ – ١٩٨١/٩/٧ .

هذا الاستشهاد مقتبس من كلمة الدكتور حسام الخطيب امام المؤتمر الثالث عشر لاتحاد الكتاب والادباء العرب عدن / صنعاء ٢٦ تشرين الثاني ٣ كانون أول ١٩٨١ .

٧ ـ اللسانيات وامكانية ارهاصات منهجية لسانية .

ان السؤال الذي يطرح نفسه دائما وبعد كل دورة عالمية لسانية هو ماذا يمكننا ان نستفيد من الدورات العالمية اللسانية التي تعقد في الوطن العربي ، ذلك السؤال الذي يتعلق بماهية النتائج والارهاصات الممكن اتخاذها من خلال الدورات العالمية اللسانية ؟.

استطيع ان ابادر القول لاقترح بأننا نحن العرب وفي الوقت الراهن لمسيرة ثقافتنا العربية المعاصرة وتطورها ، لانريد أن نعطي انطباعا بأننا نهدف الى وضع العلوم اللسانية في المستوى نفسه التي تحتله في بلدان مثل الولايات المتحدة واوربا والاتحاد السوفياتي . ذلك لان هذا الهدف يحتاج الى زمن وجهد كبير وضخم . أن العلوم اللسانية بأطرها التكنولوجية المتوفرة في البلدان الغربية المتقدمة انما هي نتيجة تطور علمي متلاحق ومتسلسل ومترابط في الفكر اللساني الغربي . لقد مضى على العلوم اللسانية في البلدان الغربية المتقدمة أكثر من خمسين عاما استطاعت خلالها ان تطور هذا العلم تطويرا واكب التطورات التكنولوجية الاخرى وفي شتى الميادين . أما الحال في الوطن العربي فالامر مختلف تماما ، ذلك انه ليس هناك اية دولة عربية حتى الان استطاعت برمجة علم اللسانيات برمجة تجعله علما قائما برأسه في جامعاتها ومؤسساتها الاكاديمية اللهم باستثناء معهد اللسانيات والصوتيات التابع لجامعة الجزائر ثم المحاولات الجادة للبرمجة اللسانية في جامعة محمد الخامس بالرباط ـ المغرب . ولكن هذه المحاولات مازالت في بداياتها ولايمكن ان تتخذ اساسا لايديولوجية عربية لسانية مبرمجة في الثقافة العربية المعاصرة .

وهكذا فان الدورات العالمية اللسانية المعقودة في العالم العربي ينبغي ان تطرح السؤال التالي : كيف يمكننا ادخال علم اللسانيات ذي النفع

والنجع والهدف في البرمجة الثقافية العربية المعاصرة ؟ الواقع اذا تمعن المرء معظم الجامعات العربية في الوطن العربي فانه سيتعجب لعدم وجود حتى مواد لسانية مستقلة تدرس المبادىء العامة لهذا العلم . وتزداد المأساة تراجيدية عندما نرى أن عدد اللسانيين في الوطن العربي كله لايتجاوز عدد أصابع اليد (طبعا بالمعنى الحقيقي للسانيات) .

على اية حال يمكن لنا اقتراح عدة نقاط واقتراحات للبرمجة اللسانية في الثقافة العربية المعاصرة يمكن ان تكون ناجحة ونافعة بل ان هذه الاقتراحات انما هي مجرد مشروع لساني قابل للنقد البناء الهادف الى نقل اللسانيات من حيز الواقع النظري الى حيز الواقع التطبيقي والاكاديمي . (٣٩)

١ ـ الاهتمام بعلم اللسانيات كعلم قائم براسه في جامعات العالم العربي ومحاولة توسيعه وتطويره ووضع المبادىء الاكاديمية له وجعله مادة مستقلة بنفسها .

٢ ـ انشاء كلية قائمة براسها في جامعات العالم العربي تدعى بـ « كلية اللغات والعلوم اللسانية الحديثة » يكون فيها فرع اللسانيات قسما قائما بذاته . هذه الكلية ينبغي أن تتألف من الاقسام التالية :

---

(٣٩) الواقع لقد كنت اقترحت بعضا من هذه المقترحات اللسانية في نهاية الدورة العالمية الخامسة للسانيات التي عقدت في جامعة دمشق من ٣٠ حزيران وحتى ٢٦ تموز ١٩٨٠. وقد كنت عرضتها في مقابلة اذاعية تبث من اذاعة الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ـ أجراها الزميل عادل اليازجي من خلال برنامج « حوار في الفكر المعاصر ». وقد اضفت على تلك المقترحات مقترحات لسانية جديدة في نهاية الدورة العالمية السادسة للسانيات والتي عقدت في جامعة دمشق من ٢٨ تموز وحتى ٢٠ آب ١٩٨١ . وقد نشرت هذه المقترحات في جريدة البعث (السورية) العدد ٥٦٢٥ بتاريخ ٢٧ تموز ١٩٨١ ، وتراني أعيد بعضا من هذه المقترحات لاهميتها القصوى في البحث اللساني الاكاديمي .

آ ـ قسم اللسانيات الحديثة .

ب ـ قسم اللغة العربية .

ج ـ اقسام اللغات العالمية الاجنبية .

لاحظ اننا لم نقل « قسم اللغة العربية وآدابها » ذلك لان العلوم العربية وآدابها ينبغي ان تدرس كما هي عليه في الوقت الحاضر . ان ماعنيناه بهذه الاقسام هو كيفية تعليم هذه اللغات لغير الناطقين بها ثم للناطقين بها ممن ارادوا التخصص مابعد الجامعي اي التخصص في دبلوم الدراسات العليا (المعمقة) او الماجستير او الدكتوراه . وبعبارة اخرى ان مايهمنا هنا هو اللغة ذاتها ، اللغة كمادة للتحليل والبحث والتي تدور حول الموضوعات التالية .

(١) صوتيات هذه اللغات .

(٢) نحويات هذه اللغات وتركيباتها .

(٣) دلاليات هذه اللغات وبنيتها المعنوية .

(٤) اساليب تعليم هذه اللغات للناطقين ولغير الناطقين بها .

(٥) امتحانات هذه اللغات ومناهجها الحديثة .

(٦) الوجوه النفسية والاجتماعية لهذه اللغات .

(٧) تفرعات هذه اللغات ولهجاتها المحلية .

(٨) ثنائية هذه اللغات من الوجهة الكتابية والكلامية .

اما قسم اللسانيات الحديثة فينبغي أن يضم موادا لسانية حديثة سأذكرها بعد قليل . المهم في الامر هو الجانب العلمي لهذه اللغات وليس الجانب الادبي . وهكذا يمكن لاقسام اللغات هذه أن تستفيد من النظريات والبحوث اللسانية الحديثة الجارية في قسم اللسانيات الحديثة وأن تستفيد ايضا من المبادىء العامة لهذا العلم الحديث . وفي الوقت نفسه يمكن لقسم اللسانيات الحديثة أن يطور النظرية العربية اللسانية

والبحوث اللسانية العامة من خلال هذا الواقع التطبيقي ومن خلال ممارسة تعليم هذه اللغات .

٣ ــ تقرير مواد لسانية حديثة في قسم اللسانيات مع التاكيد على المواد اللسانية ومناهجها المتعلقة بالتراث العربي اللساني ومدى صلتها بالمناهج اللسانية الحديثة .

والواقع ان مانعنيه بالمواد اللسانية الحديثة هو وضع المبادىء العامة لعلم اللسانيات في اطار علمي حديث يستند على المواد اللسانية التالية :

(١) اللسانيات النظرية .

آ ــ مادة في الصوتيات ومناهجها العامة .

ب ــ مادة في النحويات ومناهجها العامة .

ج ــ مادة في الدلاليات ومناهجها العامة .

(٢) اللسانيات التطبيقية .

آ ــ مادة في أساليب تعليم اللغة العربية والاجنبية للناطقين ولغير الناطقين بها .

ب ــ مناهج الامتحانات العامة وتطبيقها على اللغة العربية والاجنبية .

ج ــ ثنائية اللغة وتعدد الثقافات المختلفة .

د ــ اللسانيات المقارنة والاستفادة منها في دراسة اللغات .

(٣) اللسانيات البيولوجية .

آ ــ مدخل الى علم اللسانيات البيولوجية .

ب ــ التطور البيولوجي اللغوي عند الاطفال والكبار .

ج ــ اسقاطات علم اللسانيات البيولوجية على التخطيط اللغوي القومي .

(٤) اللسانيات الرياضية والادمغة الالكترونية .

آ ــ مدخل الى علم اللسانيات والادمغة الالكترونية .

ب ــ مدخل الى علم اللسانيات الرياضية .

ج ــ البرمجة وعلاقتها باللغات الاصطناعية والطبيعية .

د ــ اللسانيات والترجمات الطبيعية والالية .

(٥) اللسانيات النفسية .

آ ــ مدخل الى علم اللسانيات النفسية .

ب ــ علم اللسانيات النفسية والباثولوجيا (علم امراض اللغة) .

ج ــ علم اللسانيات النفسية ولغة الحيوان (الشمبانزي) .

د ــ علم اللسانيات النفسية ولغة الاجسام .

(٦) اللسانيات الاجتماعية .

آ ــ مدخل الى علم اللسانيات الاجتماعية .

ب ــ ظاهرة الامية وعلاقتها بالتركيبات الاجتماعية .

ج ــ سوسيولوجية اللغة .

د ــ جغرافية اللهجات اللغوية .

هـ ــ الفرق بين لغة الكلام ولغة الكتابة .

و ــ استراتيجيات الحديث (الكلام) .

٤ ــ هذا يعني دمج مايسمى بالبكلوريتين العلمية والادبية في الوطن العربي بحيث يصبح هناك بكلوريا موحدة متضمنة مواد علمية وادبية في الوقت نفسه . وكما اثبتت البحوث البيولوجية المعاصرة انه ليس هناك فرق شاسع بين الوظائف الفنية والعلمية في الدماغ البشري .

فعندما يتم دمج الشهادة الثانوية العلمية والادبية فانه سيكون هناك تجانس علمي واحد ومصطلح تكنولوجي واحد يمكن الطلبة العرب الوفدين خارج الاقطار العربية من معرفة المصطلحات العلمية الواحدة في جميع انحاء العالم ثم تمكينهم من فهم العلاقات الرياضية المستخدمة في الرتابات الحاسبة ثم الادمغة الالكترونية التي اصبحت اختصاصا قائما بذاته في كليات اللغات والعلوم اللسانية الحديثة .

٥ ـ تقرير مادة لسانية حديثة وعامة وبسيطة تتناول المبادىء العامة لعلم اللسانيات بابعادها الصوتية والنحوية والدلالية في مستوى المدارس الثانوية (مرحلة البكالوريا) . وهكذا يمكن للطالب العربي ان يواصل اختصاصه باللسانيات عند دخوله المستوى الجامعي (مرحلة الليسانس). وهذا بالطبع شيء اساسي لابد منه اذا هدفنا الى انشاء اقسام لسانية في جامعات الوطن العربي .

٦ ـ وضع كل هذه المواد اللسانية في اطار عربي معرّب ومهذب ومشذب مع استخدام اللغة العربية الفصحى لغة للاتصال والتبليغ والبيان مع الاحتفاظ بمواد لسانية تدرس باللغات الاجنبية وذلك لجعل نافذة الثقافة العربية اللسانية المعاصرة مفتوحة على كل جديد من الغرب وخاصة من حيث المناهج اللسانية .

والواقع لقد مضى على العلوم اللسانية في الدول المتقدمة زمنا طويلا استطاعت من خلاله ان تطور هذا العلم تطويرا علميا دقيقا مستفيدة من كل المعارف البشرية المتطورة . فلا غرابة اذا علم القارىء العربي بأن طلبة اللسانيات في هذا البلدان (وعلى لأخص الولايات المتحدة)المتقدمة ينبغي عليهم أن يدرسوا مواد اساسية تدعى بـ « مواد اللسانيات والعقول الآلية الالكترونية » Computational Linguistics ومواد اخرى تدعى بـ « مواد اللسانيات الرياضية » Mathematical Linguistics فلا يمكن مثلا للطالب العربي الوافد لاحدى الدول الغربية للتخصص العالي ان

يفهم ويستوعب هذه المواد العلمية الا اذا كان قد درس في بلاده شيئا من المبادىء العامة للسانيات بكافة فروعها .

وينبغي ان نتذكر هنا بان الطلبة العرب الآتين لمثل هذه التخصصات انما هم طلبة متخرجون من كليات الآداب ولاسيما قسم اللغة الانكليزية وآدابها وقسم اللغة الفرنسية وآدابها (وبشكل مقنن من قسم اللغة العربية وآدابها) . وهذا يختلف عن الطلبة الامريكيين مثلا والذين يأتون للتخصص في هذا العلم اللساني على الرغم من انهم متخرجون من اقسام الرياضيات والاقتصاد والفيزياء وان شئت الطب[٣٠] .

والواقع لا اقول هذا الا لشيء واحد هو التأكيد على المواد العلمية في فروع المعرفة الإنسانية وبرمجتها برمجة لسانية علمية متطورة وذلك ليصبح هناك تجانس وانسجام في معارف الطالب العربي تمكنه من الوقوف امام تحديات التكنولوجيا الحديثة .

ويبدو لي ان الفرق الشاسع بين فروع المعرفة العلمية وفروع المعرفة الانسانية انما هو فرق مبالغ فيه كثيرا بل هو فرق واهم لا جدوى من التاكيد عليه والعمل على ترسيخه . انه لا فرق بين العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية ولا جدوى من انفصام احداهما عن الاخرى ولاسيما في حقل التكوين الحضاري والبحث التقني وذلك لانهما جزءان لأصل واحد هو الدماغ . ولكن المشكلة الكامنة في التعلم الثانوي (السلك الثاني) والجامعي

---

(٣٠) المثال الواضح على ذلك عالم اللسانيات البيولوجية الامركي ايريك لينيبرج **Eric Lenneberg** الذي تخرج من كلية الطب في جامعة هارفرد ـ الولايات المتحدة. وانخرط بعدها في حقل اللسانيات في جامعة كورنيل . يعد ايريك لينيبرج العالم الامركي الاول الذي استطاع تاسيس اللسانيات البيولوجية ويعد كتابه « الاسس البيولوجية للغة » **Biological Foundations of Language** اساس اللسانيات البيولوجية في العالم . ولسوء الحظ فقد مات الرجل منتحرا عام١٩٧٥ .

والاكاديمي العالي انما هي مشكلة متعلقة بكيفية استيعابنا لهذه العلوم التكنولوجية الحديثة ومدى صبرنا على تطويع هذه المعلومات العلميـة وفهمها فهما جيدا . وهذا في رايي لا يتطلب الا الجهد والعمل والصبر الدؤوب (اعني صبر ايوب) وبعدها يمكن لنا بناء ثقافة عربية لسانية اصيلة وحديثة تواكب ركب الثقافات اللسانية العالمية الاخرى .

وما هذه الدورة العالمية السابعة للسانيات المنعقدة في الرباط الا لبنة من لبنات هذه الثقافة العربية اللسانية الاصيلة والحديثة .

توماس كون Thomas Kuhn ، العالم الاميركي ، في كتابه « بنيـة الثـورات العلميــة » « The structure of scientific Revolutions » كان قد اقترح بان اي علم بشري انما ينبغي ان يخضع في صيغته الثورية التطورية الى عدة مراحل يمر بها . هذه المراحل هي :

1 — A successful Paradign . النموذج الناجح

2 — A Period of anomaly مرحلة الشذوذ

— questioning وعدم التاكد — Uncertainty والشك - doubt) التساؤل) .

3 — Crisis ازمات

(The fall of the existing Paradigm ,

سقوط النموذج الناجح لذلك العلم) .

4 — A new Paradign نموذج جديد .

فاذا كان ذلك كذلك ، فان السؤال الذي احب ان اطرحه على العاملين في العلوم اللسانية هو : اين يقف علم اللسانيات في الوطن العربي وفي ضوء البعد الفلسفي الذي اقترحه توماس كون ؟

ملف المعرفة

أدب الطفل

معضلة التربية

وصعوبة الفن

عبد الله أبو هيف

أدب الطفل

معضلة التربية وصعوبة الفنّ

عبدالله أبو هيف

زاد الاهتمام مؤخرا بادب الاطفال محليا وعربيا ودوليا ، وهذه محاولة في فتح ملف ادب الاطفال ، ولا سيما في جوانبه الاكثر الحاحا : التربية والفنّ . ويتضمن الملف :

١ ـ مدخلاً لأدب الاطفال .

٢ ـ ستة ادباء عالميين يتحدثون عن نظرية ادب الاطفال (تحقيق) .

٣ ـ دراسات تطبيقية لبعض التجارب العربية في ادب الاطفال (دار الفتى العربي ـ دار التورس ـ مكتبة الطفل البغدادية) .

مدخل لأدب الأطفال

- ١ -

يشكو ادب الاطفال عندنا من فقدان الحساسية الطفلية التي تسمو به الى مصاف الادب الرفيع ، فثمة اكوام من كلمات تخاطب الاطفال دون تألق ، انه المنزع المدرسي الباهظ الذي يراكم الوعظ والارشاد ، ويباشر الاخلاق نفورا من الحياة اليومية وتكاليفها على تمثل القيم المطلقة ، فقد صار الادب الطفلي الى تعبير غير متريث لتجارب فجة ، غير أصيلة لعدد غير قليل من عديمي الموهبة .

لذا ، لا بد من تمحيص حدود الادب الطفلي نحو فهم افضل لنظريته وافق ممارسته لدى مبدعيه ، والمربين الذي يقبلون عليه بحماسة وشغف ، ولا سيما بعد انتشاره الملحوظ بين جماهيره من الاطفال .

- ٢ -

بادىء ذي بدء ، اريد ان اميز بين أمرين في غاية الاهمية هما سياق النص والسياق التربوي ، فثمة منظومة كلمات هي من طبيعة الادب ، وثمة منظومة قيم هي من طبيعة التربية وغائيتها ، وتبدو مأثرة ادب الاطفال في اندغام هاتين المنظومتين داخل لغة تتعدى مجرد مخاطبة الأطفال الى اذكاء روحهم واثارة وجدانهم بجوهر الحياة .

يستطيع المربي ان يسرد قائمة طويلة لسلم القيم ، ويستطيع الناقد او الاديب ان يفصل القول في عناصر الكلمات وعلائقها ، ولكن اديب الاطفال هو الذي يجعل من تراتب القيم محتوى لعلائق الكلمات في

« انشاء » يحافظ على مهمات « التحفيز » (١) داخل « التركيب » الادبي .

لقد لاحظ ادباء الاطفال خصائص كتابتهم بعناية « فادب الاطفال يملك سماته الخاصة ، وهذه السمات تزداد حدة كلما قل سن القارىء الذي نوجه له مبدعاتنا ، وتخف حدتها تدريجيا وتتلاشى بالمقدار الذي يحدد سن القارىء » (٢) وهذا يعني أن ثمة اتفاقا على معايير أخرى تلعب دورها في تبادل التأثير الادبي لنص الاطفال ، وهكذا تتخلص عناصر نظرية ادب الاطفال في الايقاع والخيال واللغة من جهة ، وفي المجتمع والواقع والتلقي من جهة أخرى ، لأن العلاقة قائمة بين هذه العناصر ، مثلما تقوم العلاقة بين الانسان وظرفه التاريخي ، فتتيح عندئذ للطفل أن ينغمر بالاعراف والتقاليد ، وأن يصنع أعرافه وتقاليده على نحو ما .

ان ادب الاطفال هو نتاج هذه الثنائية بين معطيات الوعي المتاح ، ومجرد التلقين المدرسي للقيم الجاهزة كالامثال والحكم والاقوال المأثورة ، ولعلنا نقترب من هذه العناصر لدى معاينتنا لمعطيات هذه الثنائية .

---

(١) التحفيز (Motivation) هو تطويع استخدام الجزئية المتكررة او الوحدة المتكررة داخل السياق من اجل تقريب المعنى ، او تدعيم الفعلية ، او وحدة الاثر ، وقد راى علماء الفلولكلور ان الكلمة تعني اي جزء يمكن أن تنحل اليه في فقرة الفولكلور ، ويشترط ان تتكرر في الفن الشعبي شانها شان الوحدة الزخرفية في الزخارف . انظر : علم الفولكلور ـ الكسندر هجرتي كراب ـ ترجمة رشدي صالح ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٧ ـ ص ٥٤٢ . بينما اعتمد واضعا « نظرية الادب » تعريف باحث آخر بان التحفيز « مصطلح فني يدل على السببية في حركة العقد ، ولا سيما فيما يتعلق بترتيبها الفني الواعي » ص ٤٤٨ هـ ١٣ . تاليف : وارين. ويليك ـ ترجمةمحي الدين صبحي ـ مراجعة د. حسام الخطيب ـ منشورات المجلس الاعلى لرعاية العلوم والفنون والآداب ـ دمشق ـ ١٩٧٢ .

(٢) انظر الاستفتاء ضمن هذا الملف ...

- ٣ -

تجسّد ثنائية الايقاع والمجتمع معضلة الابداع للاطفال ، فـأي دائرة يمكن ان يدور فيها أدب الاطفال وينتعش ؟

ثمة مجتمع خاص لأدب الاطفال ينبغي أن يفهم في اطاره ، وأن تتبدى من خلاله مقولة الوعي التي يعول عليها المربون والعلماء في احداث النقلة من مملكة الطفولة الى الراهن واليومي على وجه التحديد .

ليس الايقاع كله موسيقى أو كلمات ، انه ارتقاء الموسيقى أو الكلمات الى علاقة تحيط بمجتمع الطفولـة الخاص ، ولا سـيما في اعتباراتـه التربوية ، ولا يكون مثل هذا الارتقاء الا بانتظام رؤيا الاديب أو المربي في ملامسة التجربة الانسانية وهي توضع أمام عيني طفل ببراعة ويقظـة ، مما يستطيع الطفل أن يراها ويتفاعل معها دون عناء أو مشقة .

ان رؤيا الاديب اذن هي الاحاطة بعلائق مجتمع الطفولة وقد صارت الى ايقاع يستجيب لعيني طفل في مراعاة النمو اولاً ، وفي اثراء خصوبة النظر الى الاشياء والاحياء ثانيا ، ولا بد من انسجام في تواشج قابليات النظر بين الايقاع والمجتمع الطفلي تحقيقا لتجسيد امثل لحركية رؤيـا الطفل للعالم بوصف الايقاع تعبيراً ممتنى به عن هذا المجتمع الطفلي .

وفي هذا المجال ، لنا ان نذكر دوائر كثيرة ينطلق منها المجتمع الطفلي، ويتعامل معها الايقاع وهو ينشد تعبيره ، ومن هذه الدوائر :

١ ــ المكـان .
٢ ــ الزمـان .
٣ ــ الأسـرة .
٤ ــ الموضـوع .
٥ ــ الفعـل .
٦ ــ الشخصية .

وعلى اهمية التفصيل في حدود هذه الدوائر ومدى تجاذبها في خلق ايقاع العمل الادبي فاننا سنكتفي ببعض الاشارات ، اذ غالبا ما يلغي الادباء مكان القصة او زمانها متجاهلين اهميتها في توصيف الاطار التاريخي للمبدعات الفنية ، ومنطلقين من ان الطفل لا يعبأ بهذا الاطار او لا يعي استهداف التكون التاريخي للعمل الادبي ، لذا ، تتردد عبارات مثل « في قديم الزمان » او « في حقل » او « في غابة » في مطالع القصص تجنبا للخوض في تاريخية العمل الادبي ، غير ان اللجوء الى السهولة يخفف من فاعلية الايقاع في ملامسة التجربة الانسانية ، ويجعل هيكل النص عائما في فضاء مبهم ، من شانه ان يقلل من مصداقية النظر .

وتلعب الاسرة دورا كبيرا في نظر الطفل ، وفي اعانتـه على التقارب المجتمعي المنشود ، لان الاسرة هي الاقرب للمجتمع ، والاقرب لمعيشة الطفـــل .

ولا بد لاديب الاطفال من العناية بالعلاقات الاسرية داخل العمل الادبي ، ويخطىء كثيرون عندما يكتبون نصوصا خالية من هذه العلاقات.

وعلى اي حال ، فان هـذه العلاقات توفر للقصة فرصا أوسع للمحاكاة والمماثلة الاجتماعية . وبشـأن الموضوع ، نلاحـظ أن الادباء يميلون الى نزعة التبسيط أو الاختصار او المبالغة ، حيث لا يرى المرء بعدها عالما يستحوذ على اهتمام المتلقي .

ثمة محاولة مكشوفة ، واحيانا مفضوحة ، لقول المغزى على شكل حكمة او قول مأثور ، او موعظة ، وليس العمل الادبي بعد ذلك الا صياغة مستعجلة او « انشاء » رديء ، بينما يمكننا ان نفعل هذا دون العمل الادبي ، بوساطة عمل المربي ، ويكون اجدى واسلم تأثيرا ، ان الموضوع هو النص باكمله ، او ليس بمقدورنا أن نعزل الموضوع عن تلافيف النص، وموضوع أدب الأطفال هو الحياة التي يتهجاها ويمتزج بها ، أما الذين

يحولون الموضوع الى مجرد عبارة او فكرة تضاف الى سياق النص بحجة مراعاة السياق التربوي فهم واهمون ، لانهم لا يخلفون الا نصائح باهتة .

على ان الامر الاهم في بنية النص هو الفعل او الدراما ، ولقد راى بعضهم في تقابل الفعلية مع الشاعرية ثنائية الطفولة التي لا تشبع او تنمو معافاة دون ان يمر الطفل بالصراع الذي يصل الى حد التناقض ، فاذا كانت الشاعرية هي رفع التناقض او حذفه فان الفعلية هي الصراع الكاشف للمعنى(٣) ولا بد من نضوج ادب الاطفال وسط الصراع الحاصل داخل الروع الانساني ، ليرتقي المتلقي على انشعاباته وشروخه وتعارضاته ، ويتسلح بالوعي .

وما هذا الصراع الداخلي العميق الا تعبير عن اعراف وتقاليد وانماط تتجلى باشكال مختلفة من الانجذاب او التنافر لاستدامة دنيا الطفولة او قبول المواصفات الاجتماعية ، ومن المفيد ان يقوم ادب الاطفال بواجبه ازاء مهمات انخراط الاطفال في المجتمع ، والا يورث تخليهم عن مجتمعهم الخاص صدمة او صدمات .

وتحتاج مثل هذه المهمات الى معالجة الشخصية في زمن الطفولة الذي يتصف بالتلاشي او الزوال . ان الشخصية بنت وسطها الطفلي ، ولكنه وسط جمالي يذوب في الزمن ، ويتجلى على نحو اكثر التصاقا وحميمية بحركة الشخصية (٤) لذا ، تبدو الشخصية في ادب الاطفال صانعة مدارها الزمني .

اننا هنا لا نبحث عن زماننا ، ولا نستطيع ان نحدد بوضوح نموا تاريخيا « كرونولوجيا » تتطور فيه المصائر الى مسعى او مرتجى مرسوم

---

(٣) انظر : يوسف سامي اليوسف ـ نظرية القصة الطفلية في : « مكتبة الاطفال وقراءاتهم » ـ منشورات منظمة طلائع البعث ـ دمشق ـ ١٩٨٠ .

فاليقين او الحتمية او المنطق الموصوف يتمظهر بفعل الشخصية عبر تناوب مواجهة المجهول او المعلوم ؛ ان ادب الاطفال ينظم سيرورته الزمنية من خلال حركة الشخصية في وسطها الانساني خارج الافتراض المسبق الذي ينفع مع ادب الراشدين حيث ينبغي على العمل الادبي ان يخالج صيرورة زمنية او تاريخية (٥) ، لان سيرورة « الحكاية » او « السرد » او « النظم » أو « الانشاء » حسب طبيعة الجنس الادبي تحتفظ بخصوصيتها في أدب الاطفال ، وتستثمر التخييل اللازم استنادا الى حركية الشخصية اساسا فليس من المناسب ان يجاهر الكاتب بفكرته عن الحياة او يؤطر الزمن كما يراه ، ما دام لمملكة الطفولة فضاؤها وارضها الرحيبة كذلك .

- ٤ -

أما ثنائية الخيالي والواقعي فلها مجالاتها الاكثر تعقيدا ولا سيما أن ادب الاطفال هو المناخ الاكثر قابلية لمدى التخييل في مصادره وطبيعته على حد سواء ، فاذا كانت المأثورات والاساطير والحكايات تشكل مصادر اوسع لادب الاطفال ، فان « الانسنة » و « الخوارق » و « الابتكار » و « الابتداع » (كما في الخيال العلمي على سبيل المثال) هي المظاهر المجسدة للنزوع التعبيري عن مملكة الطفولة .

لقد اجيب منذ زمن بعيد عن أسئلة الخيال في ادب الاطفال ؛ ولكن تقدم هذا الادب اثار الاسئلة من جديد مشحونة بالرغبة في تلمس

---

(٤) اشار د. عبد الرزاق جعفر ، الى مثل هذا الراي في كتابه « أدب الاطفال » لدى تعليقه على تجربة السيدة (دو سيغور) الا أنه لم يجر توضيحها على نحو كاف ، منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٧٩ ص (٢٧٢ ـ ٢٧٣) .

(٥) انظر : فكرة القصة (تاليف عبد الله أبو هيف) منشورات اتحاد الكتاب العرب ـ دمشق ١٩٨١ ص ٢٢ .

مشكلات الطفولة ، وفي الاقتراب من أحلام الانسان الكبرى التي تميز وجدان الطفولة عن وجدان الراشدين ، تلاحظ الدراسات الحديثة اليوم تفريقا بين ادب واقعي وآخر خيالي ، فالاول يصف اشـياء موجـودة يستطيع ان يراها كل شخص ، فالثعلب فيها ثعلب ، والفتاة الصغيرة فتاة صغيرة أما الثاني فيعبر عن عالم الرغبات عند الاطفال : رغبة في أن يشارك الحيوانات حياتهم ، والتحرر من الجاذبيـة والتخفي ، وتغيير حجمه ، وتحويل العالم حسب هواه (٦) .

ولكنني هنا اتحدث عن الخيالي والواقعي في الادب الطفلي على وجه العموم ، لأن عنصر التخييل موجود بنسب متفاوتة في الادب بعامة ، وفي ادب الاطفال بخاصة ، على أن مثل هذه الدراسات (وغالبا مـا تنتمي لمنظورات العلوم الانسـانية ، وليس لمنظورات الدراسات الادبية والنقـد الادبي) . نتذكر أن الخيالي في ادب الاطفال لا يعبر عن الواقع المحسوس ؛ وانما عن واقع آخر نفسي ، والحق ، أن ادب الاطفال ، كما ذكرنا لدى معالجتنا للشخصية ، هو نتاج زمنه الخاص بوصفه تعبيرا عن الحلـم والواقع في مملكة الطفولة ، علينا ان نتذكر ايضا مـع هؤلاء الباحثين ان الخيال التقليدي ، مثل الخيال العلمي ، ينطلق فيه كل عصر من واقع الحيـــاة .

« اندرسن مثلا بعث الحياة في اشياء كانت تستعمل في القرن التاسع عشر ، والامراء والقصور الذي تزخر بهم قصص بيروه نشأت عن عناصر ومواقف حقيقية » (٧) .

---

(٦) و (٧) الطفل والاحلام ــ د. سامية احمد اسعد ــ مجلة الاقلام البغدادية العدد (٣) ــ ١٩٧٩ ــ ص ٣٢ وما بعدها .

بدا ، ليس بمقدورنا النظر الى الخيالي في ادب الاطفال بمعزل عن الواقعي ، بل هما يتداخلان باستمرار على نحو مؤثر ودال في سياق النص والسياق التربوي ، ومثلما ينفع في هذا المجال تربية الخيال لدى الطفل ، فانه نافع جدا لدى الكاتب والمربي ، وتكتسب معضلة الكشف عن هذه الثنائية اهمية كبرى في التعرف على اشكالية انتاج ادب اطفال جيد ، لانها في مقدمة التصدي للمشكلات الناجمة واولها مكان الخيالي وزمانه وثانيهما اشكال تجليه في هذه المرحلة العمرية او تلك ، وفي هذا الاسلوب او ذاك ، وثالثهما تداخله الى حد الاختلاط احيانا مع مفاهيم اخرى كالخرافي والخارق والحلمي وسواهما من مفاهيم معارضة الواقع او نفيه ، ونحتاج في الاحوال جميعها الى اجابات شافية من خلال البحث العلمي لهذه المشكلات .

وتبدو ثنائية الخيالي والواقعي في ادب الاطفال القديم والحديث على حد سواء .

ولدى حديثها عن تجربتها الشخصية مع ادب الاطفال ، ذكرت « ناديا خوست » ان ادب الاطفال الجديد سرعان ما اخذ الطابع العام نفسه الذي كان لأدب الاطفال بعامة(٨) .

لقد انتقل من البساطة الى التعقيد ، لم يعد صورة للاحلام وحدها، بل اضاف اليها تعبيره عن « تمزق الاحلام ، وارتفاع الخطر والتناقضات في الواقع » فاتجه ادب الاطفال الى البحث عن النجاة والتفسير في الواقع.

الا ان هذه التجربة لاتنفي الخيالي ، فتنظر اليه من نوافذ كثيرة حيث ارتبط الخيالي بالواقعي ارتباطا وثيقا قرب الادب من طبيعته ، واستفاد كثيرا من منجزات التطور العلمي والتقني والنفسي والحضاري.

---

(٨) ادب الاطفال ــ واقع وآفاق ــ د. ناديا خوست ــ مجلة « الموقف الادبي » العدد (٩٥) آذار ــ ١٩٧٩ ــ ص ٢٠ ــ ٢١ .

لذلك ، لا يصبح الخيالي استعارة او رمزا او دلالة لواقع الحال ، بل تكون الاستعادة أو الرمز او الدلالة في صلب المبنى الواقعي للعمل الادبي، ان الخيالي هو مايرى في عناصره او مايشير اليها كالحركات والاصوات والصفات والالوان والتحولات والوقائع والاحداث وتشكل العلاقات بين هذه العناصر أبعادا تكشف عن تركيب العمل ، ومكانة الخيالي فيه ، هنا نستخدم الاستعارة او الرمز او الدلالة في هذه العناصر لتوضيح العالم الذي يقدم للاطفال (٩) .

— ٥ —

يعتمد نجاح ادب الاطفال في الوقت نفسه على حل اشكالية ثنائية اللغة والتلقي ، يريد الطفل ، كما يراد له ، ان يدرك مفاهيم العالم عبر معالجة شاملة للقضايا الملحة في حياته في كل مرحلة تاريخية (١٠) .

ولكن اللغة تبرز في هذا المجال باعتبارها سبيلا لهذا الادراك ، ولاشك ان استخدام اللغة ليس وظيفيا فحسب ، فثمة لغة للعمل الادبي لابد ان تراعي متطلبات لغة الايصال في الفن او الوسيط في هذا الجهازالثقافي او ذاك ، بمعنى ان لغة الايصال في الفن مرهونة باعتبارات التلقي لدى جمهور الاطفال ، وفي هذا المجال ، تبرز فائدة الارتقاء من مستوى مجرد مخاطبة الاطفال الى انتاج او اعادة انتاج أدب أطفال جيد .

---

(٩) حاولت نجلا جريصاتي في بحثها عن تجربة « دار الفتى العربي » ان تدرس موقع الخيالي في هذهالسلسلة ولكنها اكتفت بملاحظة دلالة اللون على مجموع العناصر الاخرى ـ مجلة « شؤون فلسطينية » العدد (٧٧) نيسان ١٩٧٨ ـ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٨ .

(١٠) اجابة سيرجي ميخالكوف نفسها .

صحيح ، أن الاسلوب هو « طريق وجود العمل الفني ونسق تنضيده » (١١) ولكن ثمة تحكمية للغة في هذا الوجود وهذا التنضيد من شانها ان تعزز الحساسية النامية لدى الاطفال ، او ان تعوقها ، اي ان اللغة تتحكم بسلامة الانشاء وضمانة الايصال ، واللغة بهذا المعنى هي قواعدها وطرائق استخدامها الدلالية والتعبيرية مما يشكل بنية النص بعد ذلك ، وهنا اشارة لهذه المستويات :

ــ قواعد اللغة المكتوبة او المنطوقة : طريقة الكتابة / طريقة اللفظ / العامي والدخيل .

ــ دلالية اللغة : اشكال البلاغة والمجاز .

ــ تعبيرية اللغة : ما يضيفه الكاتب على فضاء النص وبنيته اللغوية من « احالات » تراثية ومعاصرة ، اسطورية او شعبية او علمية .

ــ لغة الوسيط او وسيلة الاتصال بجمهور الاطفال كالكتاب او الاذاعة المرئية او المسموعة او السينما والمسرح أو الصحافة .

ــ لغة او موقف الطفل من ادبه ، فثمة مواقف مؤثرة في تلقي الادب لابد من حسبانها(١٢) . ولهذه المستويات جميعها مكانتها في تنظيم أدب الاطفال ، فاللغة اجتماعية وتربوية قبل ان تكون وصفا للنشاط الانساني الحر ، ولاسيما تلكم اللغة الموجهة للاطفال ، ولابد ان يحسب الكاتب أو المربي حساب ثنائية اللغة والتلقي لدى النظر الى ادب الاطفال وفي مراحل النمو الادنى على وجه الخصوص ، حيث يرتهن التلقي بقابليات جمهور الاطفال وامتلاكه للثروة اللغوية والنماء الشخصي .

(١١) نظرية الادب ص (٣٠) .

(١٢) هناك وصف لهذه المواقف في كتاب احمد نجيب : فن الكتابة للاطفال ــ ص ٥١ وما بعدها .

(٦) ادباء يناقشون نظرية ادب الاطفال

لا يزال ادب الاطفال يثير النقاش والجدل بين مبدعيه ونقاده وجمهرة المربين الذين ينازعون الكتاب والفنانين مسؤولية انتاج ادب الاطفال او اعادة انتاجه في وسائطه او في المؤسسات الاجتماعية والتربوية المختلفة .

في ادب الاطفال ، يلتقي الفن والتربية أو يختلفان ، وفي هذا التلاقي أو الاختلاف تكمن غالبية المشكلات ويمضي الكتاب والفنانون والمربون الى معالجة ما يؤرقهم ثم يضع الحلول الممكنة امام الكتابة للاطفال .

لقد اصبحت الحاجة ماسة للتفكير في مفهوم ادب الاطفال وأسباب ممارسته ، ولاسيما في حدوده الادبية المرتبطة بجمهور محدد ، وهو ما يشكل نظريته التي بها يكون ادب الاطفال ويتصل بجمهوره الطفلي ويميز في مكوناته الفنية والفكرية .

وخلال المؤتمر العالمي الثاني لادب الاطفال المنعقد بموسكو في ختام العام الدولي للطفل ، اتيح لي ان التقي بعدد كبير من هؤلاء الذين ينتظر الاطفال في كل انحاء العالم كتاباتهم بفارغ الصبر ، وأن أجري حوارا معمقا حول نظرية أدب الاطفال وسماته الخاصة مع بعض أبرز المشاركين ، وفي العام الفائت ، توفرت لي الفرصة لاستكمال الحوار مع اسماء اخرى . ثمة سؤالان كانا موضوع الحوار ، هما :

١ ــ هل يمكنكم الحديث عن نظرية لادب الاطفال مختلفة عن نظرية ادب الكبار ، وما هي الحدود ، من خلال تجربتكم ، بين مفهوم ادب الاطفال والادب على وجه العموم ؟

٢ ــ برايكم ، ماهي ابرز خصائص ادب الاطفال ؟

ان الكتاب الذين يبدون رأيهم للمرة الاولى في هذه القضية يلتفتون الى تراث طويل من الكتابة للطفل ، ويمتحون من معين تجاربهم الثرة عناصر مفهوم ابداعي متطور لادب الاطفال ، ومن الواضح ، انهم لا يتفقون على مفهوم شامل أو جامع ، ولكنهم يشيرون ، تصريحا او تلميحا ، بصوت عميق رزين أو على عجل الى خصوصية أدب الاطفال التي تميزه عن الادب على وجه العموم .

ومن جهة أخرى ، تؤكد الآراء على تطور متجانس لادب الاطفال في العالم ، وعلى ان المشكلات متقاربة في معاناته بين الشعوب والامم سواء في استلهام الادب وسعة الموضوعات ، واحياء التراث الشعبي ، او في معالجة حدوده وتقنياته ووظائفه الراهنة .

وهذه هي الآراء .

١ ــ لاورو او لو (اسبانيا) :

(كاتب ــ مسرحي ــ شاعر ــ رئيس تحرير مجلة اطفال) .

١ ــ ليس من السهل عرض هذه النظرية اليوم ، فثمة تداخل بين عالم الطفل وعالم الكبار ، ولقد قادتنا الى هذا التداخل وسائل الاتصال بالجماهير بقوتها الجبروتية الضافية ، ولاسيما التلفاز .

اما الحكايات التي كانت تقصها علينا الجدة فقد التهمها التلفاز ، بينما الجدة هي المؤهل الوحيــد الذي يعرف كيف يعرض علينــا هذه النظرية ، حيث تتميز بوضوح الحدود الفاصلة بين ادب الاطفال وادب الكبار ، اننا نقول هذا ونحن نفكر في « طفل اليوم الحقيقي » ، وليس في « طفل الامس الخيالي » .

واذا تمعنا جيدا في بعض اعمال زمننا ، الا نستطيع أن نستخلص النتيجة القائلة ودون أن ننتبه ، بأننا نعيش مرحلة اختفاء الطفولة ؟ المسألة ولاسيما في بعض الاجزاء من العالم ، هي في هـذه الحقيقة المقلقلة . هل ينبغي علينا أن نعيش مكانة الجدة من جديد .

٢ ــ ان الملاءمة بين الواقع وعقل الطفل بشكل يصبح فيه الادب جذابا لا تعني الاطفال فحسب ، بل تهم الكبار ايضا .

ان التعبير الناجز مما يهم الاثنين معا ، أم ان قيمة الواقع الـذي يخلقه الخيال ، في الحقيقة ، لا تخص ايا من مراحل تطور الانسان ؟ ان البساطة بمعناها العميق ــ الشعري ــ المأساوي ــ كقاعدة للواقع الذي يعيد الخيال صياغته هي بالنسبة لي ، الميزة الاكثر بروزا في ادب الاطفال .

٣ ــ سيرجي ميخالكوف (الإتحاد السوفييتي) :

(شاعر ــ كاتب نثري ــ مسرحي ، بطل للعمل الاشتراكي ، عضو اكاديمية علوم التدريس ، حائز على جائزة « لينين » وجوائز الدولة السوفيتية ، سكرتير هيئة اتحاد الكتاب السوفييت . رئيس مجلس ادب الاطفال في اتحاد الكتاب السوفييت) .

١ ــ ان النظرية ــ ايا كانت ــ هي تعميم التجربة في فهمها ، ونظرية ادب الاطفال هي نتاج تعميم تجربة ادب الاطفال كما تتجلى في اخفاقات تجارب كتاب الاطفال والشباب ونجاحاتهم ، لان غنى النظرية في الممارسة وفي روسيا عرفت نظرية الاطفال بداياتها في القرن الماضي فكانت الاسس التي ارساها النقاد والفلاسفة الديمقراطيون العظام امثال ف . بيلينسكي ، ن . دوبرولوبوف ، ن تشيرنشيفسكي وساهم فيها العبقري ل. تولستوي وغيره من الكتاب الكلاسيكيين ،

كما أن م. غوركي ون . كروبسكايا عملا الكثير من أجل تنظير معرفة قضايا ادب الاطفال .

ان نظرية ادب الاطفال في الاتحاد السوفيتي اليوم ، هي تعميم لتجارب الادب السوفيتي والعالمي الموجه للاطفال ، ان هذه الدعامة ترتكز على منجزات العلوم التربوية والنفسية الاجتماعية ، من المؤسف ان بعض المنظرين الغربيين لادب الاطفال وبخلاف زملائهم السوفييت وزملاء لهم من دول المنظومة الاشتراكية وبسبب جهلهم باللغة احيانا ، واحيانا أخرى بدوافع سياسية ، يتجاهلون التجربة الثرة لادب الاطفال الاشتراكي ، ان ما يعرفونه عن اعمالنا التاريخية الادبية والتنظرية قليل وسيء وكأني بهم بهذا الجهل يقذفون بخبرتهم الى الماضي ويكتشفون امريكا المكتشفة منذ زمن بعيد ، ويناقشون في قضايا حلت منذ زمن بعيـد .

وعلى ضوء تجربتي الابداعية الخاصة ومن خلال ادب الاطفال السوفيتي المتعدد القوميات لا نرى خطأ فاصلا حادا بين ادب الاطفال والادب عامة ، فنحن اذا اخذنا كتيبا مخصصا للصغار وآخر للراشدين سنرى حتما حدودا كبيرة ولكن هذه الحدود ليست متضادة وليس تضادها كبيرا ، انني على ثقة بأن ادب الاطفال الحالي يدخل في الادب العام أو الادب « الراشد » تدريجيا كما يدخل النهار في المساء .

وعلى الرغم من كل ذلك نرى أن ادب الاطفال يملك سماته الخاصة وهذه السمات تزداد حدة كلما قل سن القارىء الذي نوجه له مبدعاتنا وتخف حدتها تدريجيا وتتلاشى بالمقدار الذي يحدد سن القارىء .

٢ ــ اعتقد أن محاولات البعض من منظري ادب الاطفال تصويره كمجموعة خصائص وفوارق حادة تذكر بالتقنين القديم لفن الشعر أيام الكلاسيكية ، ان السمات الخصوصية لادب الاطفال مشروطة بعاملين

هامين : تحديد ادب الاطفال وتحديد متلقيه ، ووظيفة كتب الاطفال أي تربية الجيل الناشيء بالمعنى الواسع للكلمة بروح الاشتراكية وهدفها جعل الطفل سعيدا وفعالا كعضو في المنظومة الانسانية ولجعل هذا الهدف محققا ولجل الكتاب قريبا من القارىء بل ولادخاله الى نفسه لابد للكاتب من معرفة تامة بهذا القارىء بل عليه أن يشعر به ويفهمه كما هو عليه اليوم .

ان فهم الوظيفة التعليمية والتربوية لادب الاطفال وفهم القارىء الشاب مرتبط بشكل واسع بالنظام الاجتماعي القائم في الزمن ؛ بالكاتب نفسه ، انني على ثقة بان الخصائص الاساسية المميزة لادب الاطفال الجيد تكمن في امكانية المعالجة الشاملة للقضايا الملحة في حياة الطفل في كل مرحلة تاريخية ، ان كتبا من هذا النوع ستكون بدون شك نافعة للطفل وللراشد وستصبح في تداول حي لاعوام طويلة طويلة ، ولكن ضمن شروط تحقيق الاسس الفنية المبدئية للادب عموما وبكلام آخر ، على الكاتب ان يظهر في ابداعاته الموقف « الطفولية » للاشياء كما يظهر العلاقات الجمالية بين الطفل والواقع وان يجيب على أسئلة الاطفال الحياتية والاجتماعية ، مع الاخذ بعين الاعتبار امكانية السن في ادراك مفاهيم العالم « الراشد » .

٣ ـ سليمان العيسى (سورية) :

(شاعر ـ كاتب نثري ـ له أعمال مسرحية وشعرية وقصصية كثيرة مكتوبة للاطفال ـ عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب ـ الموجه الاول للغة العربية في وزارة التربية) .

(١ و ٢) لا أستطيع ان أجيب عن اسئلة كهذه الا من خلال تجربتي الشعرية مع الاطفال .

التجربة وحدها هي النظرية عندي .

والا .. كانت المسألة كلمات تظل معلقة في الفراغ ، ولا تتعدى حدود الحدس والتخمين والفكر المجرد البعيد عن الواقع الحي .

الكتابة للاطفال ـ وكتابة الشعر على الاخص ـ يأتي في الذروة ، ذروة التعبير ، ذروة الخبرة ، ذروة النضج الفني في رأيي .

وليس من قبيل المصادفة ان كبار الادباء في العالم اتجهوا الى الطفولة وكتبوا لها ، بعد أن تربعوا قمة المجد والشهرة ، واعطوا معظم ما أعطوا للكبـار .

العملية هنا من أدق عمليات الخلق والابداع ، وأشدها تعقيـدا واكثرها جدية ومسؤولية .

عالم الصغار عالم خصب ، واسع ، غني جدا ... مافي ذلك شك ، ولكن الادب الذي يكتب للأطفال ، لهذا العالم الخصب الواسع الفني، يتحرك في حدود ضيقة جدا ، شفافة جدا « سريعة العطب » ان صح التعبـير .

ان كلمة واحدة غير ملائمة تكون احيانا بمثابة الحجر الذي يحطم اناء جميلا او يقتل عصفورا ، أو يقصف وردة .

انني اتهيب كتابة نشيد لطفل لا يتعدى ثلاثين كلمة ، اكثر مما اتهيب نظم قصيدة تتجاوز المائة من الابيات ، قلت هذا غير مرة، ومـا ازال اقوله عن قناعة وتجربة .

الطفل نفسـه قصيدة .... انه طاقة لا تتوقف من الخلق والابداع .

كل حركة ، كل موقف ، كل سؤال ، كل لفتة يقوم بها الطفل هي بحد ذاتها ابداع ، حياة تجدد نفسـها وتتجاوز نفسـها في كل لحظة .

ونحن الكبار ، نحن وحدنا الذين نحاول ابدا ان نقيد هذه الطاقة المبدعة — الطفل — ونحد من انطلاقها بأوامرنا ونواهينا المستمرة ، بآلاف الصخور التي نضعها في طريق هذا الينبوع الحي المتدفق ، ومعظمها — ان لم اقل كلها — في غير صالح الطفولة ، والاطفال .

ولكي مالي ولهذا ؟ كدت انتقل الى جو آخر ... الى التربية وعلم النفس . وما اظن ادب الاطفال بقادر ان يستغني عن التربية وعلم النفس في الواقع . فلأعد الى الموضوع ... الى الادب الذي واكبته للاطفال الى امتداد خمسة عشر عاما تقريبا من نشيد وقصة شعرية ، مسرحية شعرية ، مسلسل شعري ، وقصص نثرية الخ ...

يخيل الي اني قد بدات اكون لنفسي ما يمكن ان يسمى « نظرية » حول النتاج الذي اقدمه للصغار ، نظرية تنبع من تجربتي بالطبع ، وتتعلق بها وحدها ، واذا ما قدر لها ان تنسحب على غيرها من التجارب في هذا الميدان ، ميدان ادب الاطفال ، وشعر الاطفال على الاخص — فساكون سعيدا جدا اني استطعت ان اسهم بشيء من هذا المضمار .

١ — للموسيقا صلة عميقة في حركة الطفل ، في حياته التي تفتح اشبه ما تكون بتفتح النغم في « المقطوعة الموسيقية » . او تفتح الزهرة في البرعم .

ولذلك أوليت الموسيقا المقام الاول في كل ما كتبت للصغار ، واطلقت هذا الشعار منذ النشيد الاول الذي نظمته للاطفال :

« دعوا الطفل يغني ....
بل غنوا معه ايها الكبار ... »

كل شيء يجب ان يتحول الى موسيقا بهيجة في ادب الاطفال ، وفي حياة الاطفال على السواء ..

حتى القصة التي نكتبها للصغير ، او نقصها عليه ، يمكن ان تكون مزيجا من المتعة ، واللحن ، والايقاع .

انني ما ازال اتوقف مـن حين الى آخـر في سياق حكاية اقصهـا لحفيدتي الصغيرة « رملة » لاغني معها بضع كلمات ، اخترع لها لحنا موسيقيا عبر الحكاية واغرق معها في نشوة غامرة ونحن نردد الكلمات الملحنة غناء ، ثم نمضي في القصة بحماسة اشد ، وتتعلق الصغيرة باللحن فتطالبني بتكراره كلما مضينا خطوتين الى الامام .

في الاناشيد التي نظمتها للصغار كنت أضع هذا الهدف نصب عيني ابدا . اختار لهم الاوزان القصيرة ، الرشيقة ، التي يستطيع الطفـل أن يرددها بدون عنـاء .

اوزان لا يتجاوز البيت فيها ثلاث تفعيلات او اربع :

فلسطين داري ودرب انتصـاري
تظل بـلادي هوى في فـؤادي

ارسـم مـامـا ارسـم بـابـا
بالالـوان
ارسـم علمـي فـوق القمـم
انـا فنـان

عمي منصـور نجـار
يضحك في يده المنشـار
قلت لعمي : عندي لعبـة
اصنـع لي بيتـا للعبة
هـز الرأس وقـال :
انا اهـوى الاطفـال .

٢ ـ وبعد الموسيقا تأتي الكلمة ... الكلمة الشفافة ، الشاعرة ، التي تمتزج بأنفاس الطفل ، وتدخل رئتيه ، وتخالط شعوره دون أن تحمل معها شيئا من العجرفة ، و « ثقل الدم » ان جاز التعبير. ولا أعني الكلمة الفقيرة ، البسيطة ، التي لا توحي شيئا ، ولا تترك اثرا ، اني ابحث ابدا عن الالفاظ الفنية الخصبة التي تلقي وراءها ظلالا والـوانـا .

ولا نخشى من ذلك شيئا ، فالطفل يستطيع ان يدرك ويلتقط ، ويحس اكثر مما نتصور نحن الكبار .

للكلمة دور في أدب الطفل ، وفي الشعر على وجه التحديد ـ لا يقل عن دور الموسيقا ، بل هما نسيج واحد لا تنفصل فيه الخيوط ، واختيار الكلمة الجميلة هو اختيار الموسيقا الجميلة في الوقت ذاته . ان اثمـن هديـة نقدمها لاطفالنـا هي كلمة شاعـرة نضعها على شفاههـم انهـم سيجدون انفسهم فيها ، ويشعرون اننا قـد عاملناهـم بحب واحترام عميقين ، والطفل يهمه ان تحترمه كما يهمه ان تحبه ، بل ان أعمق الحب هو الذي يقترن عنده بالاحترام ، احترامنا لطفولته .

هذا ما لاحظته من تجربتي الطويلة مع الصغار على الاقل ... شاعرا ومعلما على امتداد الاعوام .

ثم يأتي دور الصورة ، الصورة الشعرية التي طالما تجنبها مـن يكتبون للصغار انطلاقا من قناعة بعيدة عن الواقع ، وهو أن الطفل غير قادر على فهم الصور ، والتجاوب معها . انها في رأيهم اكبر منه ، فوق مستواه ، الى آخر هذه « المعزوفة » التي تتعامل مع الاطفال على انهم « مخلوقات » قاصرة ، محدودة وليس القاصر والمحدود الا فهمنا لهذه « المخلوقات » الرائعة ، وتعاملنا معها في رأيي .

انني مازلت احاول ان ازرع اجمل الصور الشعرية في اناشيدي التي اكتبها للاطفال ، وقد كانت دهشتي فوق كل ما توقعت حين وجدت ــ ووجد الاباء والامهات معي ــ ان الصغار يلتقطون هذه « الصور الشعرية » الجميلة ، البعيدة الايحاء ، ويتجاوبون معها ، ويرددونها في لذة تبلغ حد النشوة ، دون ان ينصبوا انفسهم « شراحا » و « نقادا » لها كما يريدهم بعضنا ان يكونوا :

أنا عصفور ملء الدار
قبلة ماما ضوء نهاري

أنا صياد اللون الساحر
أرض بلادي كنز مناظر
« نشيد الرسام الصغير »

نشيد النور في شفتي
تعيش تعيش مدرستي
« نشيد المدرسة »

٤ ــ وبعدئذ .. تأتي الفكرة .. الفكرة النبيلة الخيرة التي ينبغي أن تكون محور النشيد ، محور القصة ، محور الادب الذي نقدمه للصغار ، نزرعها في النص دون أن نحمل « عصا » المرشد او المؤدب ونلوح بها فوق راس الطفل .

الفكرة يمكن ان تمشي في النص كما يمشي النسغ في عروق الشجرة، انها الهدف البعيد من كل ما نكتبه للطفل .

انني لا اكتب لاسلي الصغار ، ستكون اية لعبة او كرة اجدى وانفع في هذا المجال .

مع المتعة الفنية التي ينبغي أن نقدمها لاطفالنا علينا ان نعرف كيف ننقل اليهم شيئا من المسؤولية ، ان نوحي اليهم انهم قادرون منذ الآن على التمرس بهذه المسؤولية ، مسؤولية بناء المستقبل ، بناء الوطن ، تجديد شباب الامة ... أليس اطفال اليوم هم الذين سيملؤون الساحة غدا أو بعد غد . تلك هي ابرز النقاط في تصوري لأدب الاطفال، لا اسميها « نظرية » كما قلت في مطلع هذا الحديث ، ولكنها خطوط عريقته انتهيت اليها بعد أن كتبت للصغار ، وعشت معهم منذ طفولتي ، وما ازال ..

٤ ـ جانين ديسبنت (فرنسا) :

(ناقدة ، عضو هيئة منح جائزة اندرسن ، تعمل في مركز جورج بومبيدو ، محاضرة في جامعة السوربون ، عضو مركز الابحاث والاعلام حول الأدب) .

١ ـ الملامح الخاصة لادب الاطفال هي الوضوح ، السهولة ، تقريب المسائل ، جمال الكتابة ، القوة في التصوير لان الطفولة هي سن التعلم اي سن التعرف على الحياة .

كما ان ادب الاطفال السمعي والمرئي عن طريق الاذاعة والتلفزيون يجب ان يكون برأيي ينبوعا للتأمل يخلق لدى الطفل رغبة في القارنة ويعطيه الفرح النفسي والعاطفي ، ان الطفل يقرأ بحساسيته اما الانسان البالغ فانه يطالع بثقافته ، هناك كتاب معروفون بأسلوبهم الكتابي وبموضوعاتهم مما يجعل ادبهم موجها لفئة دون اخرى .

اما على صعيد شرعية الادب ومهمته هناك فيجب الا يكون هناك فرق في النوعية فالادب هو الادب للصغار والكبار .

٢ ــ ادب الاطفال يعمل على ايقاظ المعاني الايجابية للحياة لدى الطفل كما يعطي قيمة لحياة الرجل والمرأة ويعمل ايضا على :

ــ ايقاظ الحساسية
ــ ايقاظ الحس الجمالي
ــ ايقاظ الحس الطيب
ــ إيقاظ حس المشاعر والعدل والتضامن وفهم الاخرين واحترام الفروق وليس هذا بواجب ، بل هو نوع من حب الطفل للطفل الاخر الذي هو اخ واخت في الانسانية .

٥ ــ زوي فالاسي (اليونان) :

(كاتبة نثرية ، مؤلفة مسرحية ــ رئيسة تحرير مجلة اطفال) .

١ ــ ادب الاطفال له حدود بسبب الجمهور الذي يوجه اليه ، نستطيع في ادب الكبار تقديم الحياة وفق المنظار الذي نرتأيه ، ويمكننا ان نلغي القيم الاخلاقية ونرفض الامل وان نظهر التشاؤم وادارة الظهر للمستقبل لان القراء ناضجون وعندهم روح النقد ويستطيعون التحليل، ولكن ادب الاطفال يجب الا يكون مكانا للمبارزة بين الكاتب بما يعرفه وهو مسلح بتجارب واسعة وبين الطفل الذي لا يملك سوى العابه في يده ، فهو لايستطيع توجيه النقد وفهم الاسماء والكلام اي التعابير بل يجب في الوقت نفسه ان نقدم له اسلحة لمقاتلة الشر لمواجهة الانعزال والظلم والشك .

٢ ــ أدب الاطفال يجب ان يكون من نوعية جيدة جدا لانه يساهم في تاليف جمال الطفولة وان يكون غنيا في الخيال ليعمل على تنمية خيال

الطفولة ويجب ان يحتوي على كميات كبيرة من المعلومات دون قسوة او شدة ، وان يعطيه الفرح العميق .

الادب الجيد يجب ان يكون كالشمس التي تعطي الالوان والروائح العطرة والاغاني . وكتب الاطفال الجيدة هي شموس تخلق في قلوب الاطفال الفرح والجمال في هذه الحياة .

٦ ــ زين العابدين الحسيني (فلسطين) :

(كاتب قصة ورواية ، له مجموعات قصص وحكايات للاطفال ــ كان مشرفا ثقافيا على دار الفتى العربي ببيروت) .

١ ــ كاتب الاطفال يجب أن لا يملك فقط نظرية خاصة يشكلها خلال وعيه المادي الملموس وتجربته المعاشة ، بل يجب ان يكون عالما اجتماعيا واخصائيا تربويا ونفسيا .

ليست القضية اذن في النظرية ، وانما في فلسفة الكاتب وفي المبادىء والاهداف التي يسعى الى تحقيقها ، وهي لا تنفصل بحال من الاحوال، عن هموم المجتمع ، ولكن المشكلة هي ان يتجرد كاتب الاطفال عن كل الاشياء الرديئة التي تلتصق بعالم الكبار ، وان يمارس الكتابة للصغار كرسالة وحالة حب نادرة،اننا نناضل من اجل تحرير الوطن من الاحتلال، وكذلك يمكن لكتاب الاطفال ان يناضلوا كي يحرروا الاطفال من كل ما يقيد حريتهم ويحول بينهم وبين الاختيار الصحيح والالتزام الدقيق لبناء المجتمع الافضل .

اولا : دعنا نتفق ما اذا كانت هناك حدود نظرية ادبية للفن القصصي او الشعري بوجه عام هناك ، اكثر من نظرية واحدة ويلتزم الاديب

الفنان بما يؤمن بأن ابداعه او انتاجه الفني يحقق ذاته ويجسد الواقع، ويشكل من كل ذلك او يستشف لنا بشائر تعيد بناء المستقبل كما يطمح بل يكاد يغرس ، من خلال عملية التمرس الفني ، في نفوس الجماهير ، ليس مجرد الامل في تغير المجتمع الى الافضل بل ودفعه دائما الى الثورة وشطب كل ما يعوق التطور .

بالنسبة لادب الاطفال ، هل هناك نظرية محددة وماهي حدود هذه النظرية . اننا نستمد كتابتنا من حدود المامنا باللغة والتراث ونفسية الطفل وهموم المجتمع ، وطموحاتنا السياسية ، والاجتماعية ، ونقدنا الواعي لكل ما يحيط بنا من رداءة في هذا العالم .

نحن نريد ان نشكل عالما للاطفال ، ونريد ان نخزن في ذاكرة الصغار امورا لا تمحوها اية سلطة او اية اداة قمع ، او اية وسائل دعائية لغسيل أدمغة الصغار .

اذن هل يمكن أن نتقيد بنظرية ما ، النظرية الوحيدة هي خلق فن حقيقي واصيل للاطفال وهذا لا يتحقق الا من خلال التقيد بمبادىء وفلسفة تربوية وتثقيفية ومبادىء انسانية عامة لا تنفصل عن التراث ولا عن هموم المجتمع بالبيئة التي يعيشها الطفل .

٣ ــ كاتب الاطفال ينبغي أن يتمتع بحماسة أشد وعيا من أي كاتب آخر وكذلك الفنان ؛ كاتب الاطفال يتعامل مع جيل منكب على القراءة ، واحيانا لا يمتنع عن قراءة الكتب الرديئة وهنا مسؤوليته في انتاج أدب أطفال جيد .

مـن حكايـات الشـعوب

الاستعادة وزمـن الخرافـة

تدخل سلسلة « من حكايات الشعوب »(١) في المجهود القائم لاستعادة الحكاية الشعبية بوصفها مصدرا معرفيا وابداعيا لادب الاطفال حيث يعيد الكاتب انتاج الحكاية في صياغة اخرى تستمد هيكليتها وروحيتها من الاصل القديم وفي عملية الاستعادة ، يستخدم الكاتب مقدرته الابداعية في بنـاء جديـد .

حول هذه الاشكالية ، سنعمد الى تحليل انماط السرد داخل عناصر الخطاب القصصي في هذه الحكايات الشعبية .

يرى المحرر انها « مجموعة منتقاة من قصص الشعوب . نتعرف من خلالها على جانب من التراث الانساني الشعبي ، وعلى اجمل القصص التي ابتكرها خيال الانسان ، ومذيلة بمعلومات عن البلد وموقعة من خريطة العالم » .

وتتوزع هذه الحكايات الى الانواع التالية :

حكايـة الحيـوان :

١ ـ الديك الهـادر (فلسطين)

الحكاية الخرافية :

١ ـ ابو نخلـة (مصـر)
٢ ـ فتـاة الياسمين (العراق)
٣ ـ فتـاة الشمس (كولومبيا)

---

(١) صدرت السلسلة عن « دار الفتى العربي » بيروت ـ اعتبارا من عام ١٩٧٦ .

٤ ـ الاسئلة الثلاثة (الصين)
٥ ـ الاسكافي الماهـر (تشيكوسلوفاكيا)

حكايـة الجـن :

١ ـ النهر والاربعون عالما (المغـرب)
٢٢ ـ علـي الحطاب (تونس)
٣ ـ العين الشريرة (ايرلندا)
٤ ـ سـر الامـير (اسبانيا)
٥ ـ الجنـود الشجعان (ايطاليا)
٦ ـ الحطاب العجوز (اليابان)
٧ ـ الطائر السحري (افريقيا الوسطى)

الحكايـة المرحـة :

١ ـ الفلاح الماكـر (أرمينيا)
٢ ـ الالغـاز (الهنـد)

الحكايـة الدينية :

١ ـ سيدي الحلوى (الجزائر)

ملامح الحكايـات :

تستعيد الحكايات بعض الحكمة وبعض الاخلاق وبعض القيـم ، وتدعو لنزاهة الانسان والانتصار على الاشرار ، وتنصف الطيبين والمنتجين الموهوبين للنصح والذكاء والعمل والشجاعة والتواضع والمحبة .

ومن الواضح ، ان واضعي او معدي هذه الحكايات قد اعادوا كتابة هذه الحكايات لتناسب الاطفال بعد ذلك . وتتبدى التقنية فيما يلي :

١ ـ تخليص السرد من شوائب الاستطراد الجانبي والوصف الزائد .
٢ ـ التقليل من الجزئيات نحو تقصير الحكاية .
٣ ـ التقليل من الوعظ .
٤ ـ الاقتراب من اساليب الوضع او التاليف ابتعادا عن النقل ، وهذا واضح في إعمال « المخيلة » ومعالجة « المصادفة » او الفعل الخارق او « النادرة » لتكون في سياق منطقي خاص .
٥ ـ الالحاح على موضوعة القيم في سياق السرد .

وهذا يعني ان ثمة جهدا في تنظيم السرد نحو افق فني على الرغم من احتفاظ الحكاية باطارها النقلي او اصولها في الذاكرة الشعبية .

اطـار الحكايـة :

لا تغادر الحكايات اطارها المنقول ، ولكن ثمة فقرا في وصف البيئة او المعتقدات . وربما كان مرده الى تقريب الحكاية من نكهة السرد الفني . على اننا نرى في اشباع العنصر المحلي دعما لوظائف السرد وهو ما تفتقده الصياغات . وهناك أيضا فقر في استعمال المأثور الشعبي لغايات بناء الحكاية مما يجعل من تقليل الجزئيات سببا في انهاك عنصر التشويق ، ومما يجعل من تقليل شرح الحدث منطلقا لاستغلاق المصادفة او الفعل الخارق او النادرة على مدارها ، وهذا في اساس الابهام ، وليس المخيلة.

حكايـة الحيـوا ن:

ثمة حكاية واحدة تنتمي لحكايات الحيوان هي « الديك الهادر » ، بوصفها « حكاية شارحة او مفسرة من حيث جوهرها او هي ترمي الى شرح علة او غالية »(٢) فيخالطها شيء من تطلع أو تخيل ، ولا تخلـو مـن

---

(٢) انظر في هذا المجال « علم الفولكلور » ـ تاليف هجرتي كراب ـ ترجمة رشدي صالح دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ـ ١٩٦٧

و : « الحكاية الشعبية » تاليف عبد الحميد يونس ـ سلسلة المكتبة الثقافية القاهرة ١٩٦٨ . فقد جرت العودة اليهماعند مناقشة انواعالحكاية الشعبيةومفاهيمها

عنصر واقعي تستوعبه عناصر البيئة الجديدة ، لان الحيوان فيها يشبه الانسان في تصرفه وسلوكه ، ويفكر تفكيرا منطقيا .

تتلخص الحكاية في ان ديكا هادرا استطاع ان ينال عروسه التي لم يكن مهرها سوى حبة القمح التي عثر عليها في البيادر . وتدلنا الحكاية الى اهمية الذكاء الاستعمالي الذي يرتقي الى مستوى إحكام الحيلة اذ تنطلي على الجماعة وتوفر له ما ينشده .

تعتمد الحكاية على جزئية واحدة هي مهارة التدبير ، فقد وجد الديك حبة قمح فاعطاها لامراة تدير طاحونا وتطحن القمح . وعندما فعلت طلب أن تعيد له حبته ، فتغرف المراة بكفيها كمية من الطحين وتضعها في كيس صغير وتعطيها للديك ، ويعاود الكرة ، فيستبدل حفنة الطحين برغيف ، والرغيف بحزمة بصل ، وحزمة البصل بجرة عسل ، وجرة العسل بسخلة والسخلة بجاموسة .. والجاموسة بعروسة .

تقترب « الديك الهادر » من خواتيم الحكايات المرحة ، لان نهايتها السعيدة تؤكد على طابعها الاخلاقي عبر وحدة الجماعة وتعاونها ؛ وتباين المواقف المعززة بالذكاء اللماح .

لقد صارت الجزيئة نفسها الى صياغة لغوية متكررة مع اضافة تشير الى تنامي الحدث ، كما هو الحال في هذا الشاهد :

« انا الديك الهادر
طلعت على البيادر
بحثت .. بحثت
لقيت حبة قمح
وحبة القمح بحفنة طحين
وحفنة الطحين برغيف
والرغيف بحزمة بصل » .

وهكذا ، يحيل المعد الاسلوب الى مجرد السرد الذي يحيط بتعاقب الجزئية لتكتمل الحيلة وتنفع في كسب .

الحكايات الدينية :

تتناول الحكاية الشعبية بالمصطلح الفولكلوري عادة المعتقدات الخرافية ذات الاصل الوثني ، اما المعتقدات الدينية الوحدانية فلا تدخل في الحكايات الشعبية .

والى هذا النوع ، تنتمي حكاية « سيدي الحلوي » ، وهي تفسير اجتماعي للكرامة الدينية ، ففي مدينة تلمسان الجزائر ، يردد الناس دائما هذه العبارة : « ايها الحارس ، اغلق الابواب ، واذهب مصاحبا بالسلامة ، فأبواب الله مفتوحة لكل الناس على الدوام » . وينسب الناس هذه العبارة الى « سيدي الحلوي » ، وهو ولي يأتي الناس لزيارة ضريحه بتلمسان من جميع انحاء الجزائر . وعمر الحكاية ما يقارب القرون السبعة ، وهي شأن حكايات الاولياء والاتقياء مكرسة لاعلاء قيمة الحكمة الجزاء العادل : ازاء الحسد والظلم ، اذ يشي وزير سلطان تلمسان بالحلوي ويتهمه بفتنة الشيطان والسحر الضار ، فيأمر السلطان بقطع رأسه في اليوم نفسه ، وترك جثته للذئاب . وبالفعل ، يتكفل الوزير بتنفيذ العقوبة قبل ان يغير السلطان رأيه . ولكن صوتا في الليلة التالية ولسبع ليال متواليات ينادي المارة عن الحلوي الذي اعدم ظلما ، فتكون معجزة يعرف فيها السلطان صوت الحلوي المقتول . ثم يأمر السلطان بقطع راس الوزير الذي اعماه الحسد ، ويجمع عظام سيدي الحلوي المتناثرة قرب « باب علي » ودفنها في ضريح يليق بمقام الولي الحكيم .

انها حكاية دينية تعتمد على المفارقة الواقعية التي تؤدي الى المعجزة في وجدان الناس . وما هي ذي تروى استنادا الى قوة المعجزة التي تقارب الفعل الخارق .

الحكايات الخرافية :

ونقصد بها الحكايات التي تتميز عن سواها بالطول والمصادفة والفعل الخارق الذي ينتعش في الخرافة ، وتقوم في الوقت نفسه على وسط انساني أو اجتماعي ولو مازجها فعل يقيني احيانا ، لان مادتها الاساسية في تماثل جزئياتها المستندة الى الحكمة والصبر والمجازفة والبساطة . بذا ، لا تستوعب الحكاية الخرافية مدى التاريخ لانها تذهب الى غايتها من سبيل منطقها الخاص الذي لا يوافي التاريخ في غالب الاحيان . أما اراء علماء الانثروبولوجية في هذا المجال فتصدر عن اعتقاد بوجود ذواكر تاريخية تؤيد واقعية بعض هذه الجزئيات على ان المعول في ذلك هو خضوع البنية للفعل الخارق المتمايز عن الفعل الانساني .

في حكاية « أبو نخلة » ، يظهر الفعل الخارق ليؤكد عظمة الفعل الانساني ، فهناك «أبو نخلة» الرجل الذي اعتاد ان يمسك بجذع نخلة في يده بدلا من العصا ، الا انه يصطدم بامراة عجوز تصيح به : « ان في الدنيا من هم أقوى منك » . فتكون هذه العبارة « تحفيزا » لتحد يجعل أبو نخلة يبحث عن هو اقوى منه في الدنيا . وهكذا ، يصادف « الحرّاث العملاق الذي ياكل احمال خمسة جمال في وجبة واحدة » ، و « ابا خطوة » الذي يقطع مسيرة يومين بخطوة واحدة » ، و « الاعوار »الذي يرى على مسيرةيوم » ، و « الناطور » الذي يقذف بمقلاعه على مسيرة ثلاثة ايام » ، و « العملاق » الذي يحمل على كتفيه عمودين هائلين من حجر الرخام يدك بهما المدينة الظالمة » ، و « الرجل الذي يحمل قربة هائلة » يغرق بها المدينة الظالمة . ثم يصادفون في طريقهم مدينة تلبس الحداد ، لان أميرتها الجميلة مخطوفة ، فيتعاون الجميع على انقاذها ، وتصبح زوجا لأبي نخلة ، ويدرك حكمة المراة العجوز الداعية الى التواضع والمحبة .

تقترب هذه الحكاية من خصائص الحكاية المرحة لولا الخوارق فيها، ولاسيما في نهايتها السعيدة ، وغلبة الدعابة على تفاصيلها .

وفي « فتاة الياسمين » عنصر خارق ينقذ الفتاة من الظلم هـو أن فراشها يمتلىء بالياسمين والذهب كل صباح ، فتنتصر على مكر خالتها وخديعتها وتعود الى بيت زوجها المحب .

وفي « فتاة الشمس » عنصر خارق آخر هو نجاح الفتى في أن يصل الى مسكن الشمس فتختفي الندبة من وجهه ويتزوج من فتاته .

اما حكاية « الاسئلة الثلاثة » فيخالط جزئياتها عنصر خارق يمنح الحكمة معنى باقيا حين تربط اسباب الخوارق بالمسعى الانساني في الحياة ، فقد مازج اسئلة الفتى للحكيم مشكلات اجتماعية ، مثلما مازج أجوبة الحكيم اشارة لجهد البشر في مواجهة هذه المشكلات ، مما يقرّب الخوارق من الفعل الانساني .

وفي حكاية « الاسكا في الماهر » ، يتفوق الفقير على مجموعة الشياطين بذكائه وجرأته ثم يحتفظ بالمال ، ويعيش في أمان واطمئنان بعد ذلك . وتتوجه الحكاية لتمجيد الانسان ، وتحفل بجزئيات تؤكد الدلالة اياها : الانسان قوي بعقله .

حكايات الجان :

تتميز حكايات الجن بموضوعها وبطلها ، حيث لا بدّ أن ينتصر البطل في نهاية الحكاية ، ويعاقب الاشرار ، وينصف المعتدى عليهم والضحايا .

ومن الواضح ، أن المغزى الاخلاقي أساس في بنية الحكاية ، ولا سيما في فضائل بطل قصص الجان . ويخدم السرد مهمات التحفيز التي

ينبغي أن تؤدي الى مهارة الفعل الانساني داخل المدار السحري أو ما يماثله .

في حكاية « النهر والاربعون عالما » أمثولة الافتداء التي تعيد النهر الى سريانه وتدفقه ، فهناك اسطورة تقول أن « روح النهر » وهو جني شرير يسكن النهر ويتحكم فيه ، فلا تصل مياه « أم الربيع » الى النهر الا اذا قدمت المدينة اربعين من علمائها ضحية .

يدعو سلطان « آزمور » علماء مدينته للتضحية ، فلا يفعل ذلك سوى « سيدي رحال » الذي واجه الجني فجرى نهر « أم الربيع » وروى أرض « آزمور » .

وفي حكاية « علي الحطاب » تتحدث شجرة عجوز مع علي وتمنحه طاحونة سحرية وصحنا سحريا ، ولكن غفلته بحقله يفقد هذه الثروة المفاجئة ، ولدى عودته الى الشجرة العجوز للمرة الثالثة تعطيه عصا سحرية تعيد للحطاب طاحونته وصحنه .

وتتكرر فاعلية السحر في حكاية « العين الشريرة » ، فيحارب شيخ الحدادين وابنه « العين الشريرة » ويعيدان القدر الى شعب ايرلنده ، بوساطة خصلة الرغوة السحرية الممنوحة من سيد البحر العجوز .

ويتلفع عنصر السحر بقيمة انسانية هي التواضع في حكاية « سر الاميرة » ، فقد انجب لاحد ملوك اسبانيا طفل ذكر بعد تعاسة ويأس من استمرار العقم فكان للطفل أذنان كأذني الحمار حتى لا يصبح متكبرا مغرورا .

وعندما أفشي سرّ الاذنين ، اعترف الامير بالحقيقة ، وتمنى أن يكون ملكا طيبا رغم أذنيه فكانت المفاجأة أنّ أذني الامير اصبحتا قصيرتين لتواضعه وطيبته .

وفي حكاية « الجنود الشجعان » نكران للتبجح واعتزاز بالشجاعة والصبر والتواضع فهؤلاء الجنود الشجعان يقتلون المردة ، بينما يقتل ثالثهم ، وهو صموت متكتم ، ماردا ذا ثلاثة رؤوس ويقتل السواحر والجند والذئبة ، ويفكّ سحر الاميرة ويقبلها ويأخذ فردة شبشبها ، فيكون جزاؤه الزواج من الاميرة .

ولا تختلف حكاية « الحطاب العجوز » عن سابقاتها ، ففي اشارة بجميل الصنيع بين العصافير السحرية والحطاب لقاء عنايته بدوري جريح منها من جهة ، وهي استنكار لطباع زوجة الحطاب ذات المزاج الحاد من جهة اخرى ، وكانها دعوة للتسامح والغفران .

اما حكاية « الطائر السحري » ، فهي قريبة من الحطاب العجوز ، فهناك الرجل الفقير « تارلا » الذي يقبض على طائر سحري ، ولكنه يعده اذا تركه حيا أن يعطيه حليبا يكفيه ويكفي اسرته كلها الا ان اولاد « تارلا » يفضحون سر الطائر فيطلقونه عابثين ، فيخافون عندئذ من غضب والدهم ويركضون وراء الطائر ، ويمرّ عملاق من اكلة لحوم البشر ، ثم ينقذهم الطائر السحري بعد خوف ، ويقرر ان يعطي حليبا للجميع .

وهنا ، نذكر بعض الملاحظات حول حكايات الجان :

ـ لا تزال الخرافة ولوازمها هي الغالبة ، بينما تحتاج الحكاية الطفلية اليوم الى استبدالها بالخيال نحو تغليب التفكير المنطقي .

ـ تفتقر الحكايات عموما الى غنى القيم تاكيدا لمغزى اخلاقي وحيد او استثنائي او عام .

ـ ثمة نقص في الاسباب والتعليل لا يسوغ النتائج كما هو الحال في حكاية « النهر والاربعون عالما » مما يقلل من اهمية اعادة الحكاية .

الحكايات المرحة :

تتميز الحكاية المرحة بواقعيتها الصريحة ، وان خالطها « رمز » ، أو داخلها « توريه » ، ويكاد ينعدم الحدث فيها نحو « امثولة » أقرب الى « النادرة أو الفكاهة » تنتهي الى موقف فكه مرح .

في حكاية « الفلاح الماكر » ثمة شقيقان فقيران يتعهدان ان يعملا لاعالة عائلتهما . فيذهب الاخ الاكبر ليعمل اجيرا عند رجل غني ماكر وفق شرط وحيد هو الا يغضب قبل ان يصيح طائر « الكوكو » . واذا غضب دفع للفلاح الماكر الف روبل . ومثله يقع على الفلاح الغني اذا غضب ايضا . ويخسر الاخ الاكبر الف روبل ، مما يضطر اخوه الاصغر الى العمل لدى الغني الماكر نفسه وفق الشرط اياه . فيخسر الفلاح ألفي روبل ، وتكون الغلبة للصبر والجلد والمكايدة او الشطارة بتعبير آخر .

أما حكاية « الالغاز » ، فتتحدث عن « رانو » الفلاح الفقير الذي يساعد الفقراء باستمرار على حل مشكلاتهم ، ويتحلى بالثقافة والتفكير الطويل. وعندما يموت حاكم المقاطعة ، وتصبح الاميرة « ممال » وريثة لعرشه ، تعلن عن رغبتها بالزواج ممن يستطيع أن يقطع ثلاث مراحل للوصول اليها ، هي ثلاثة الغاز .

وينجح « رانو » في مجاوزة هذه المراحل والاجابة على هذه الالغاز بذكائه وعقله النير ، ولكنه يشترط كذلك ان تواجه الاميرة مراحل معينة، كأن تعبر الحقل الى كوخه دون ان تدوس على النباتات ، وان تأتيه بنبتة قمح وشعير ، وأن تقول الفرق بين حراثة الارض المزروعة قمحا ، والمزروعة شعيرا . وتفشل الاميرة ، وتدرك مدى جهلها وعجزها ، فتعود الى قصرها ، بينما يبتسم رانو ويحدق في الحقل الذي يفصل بينه وبينها ، ويتناول فأسه ، ويفلح ارضه في همة ونشاط .

خلاصـــات :

نلاحظ ان السرد هنا يقلل من اهمية التحفيز ، وخلق وحدات فنية تنفع في تنظيم بنية المتن . فالحدث محكي عنه ولا يتنامى دراميا ، فـلا اطراف للصراع دائما أما المشكلة المطروحة فتحال الى زمن الحكاية غالبا ، اي لا تدخل زمن التلقي للطفـل .

ويستتبع هـذا جوانب اخـرى .

الرؤيـــة :

لا تقدم الحكايات عالما موصوفا او قابلا للتوصيف ، انه منقول عـن الحكاية ولا يصب في الواقع ، فيحتفظ بمداره الكتيم ، بعيدا عن فعالية البطل في الصراع ، مستعينا بالفعل الخارق او قوة المصادفة .

وباستثناء الحكايات المرحة وحكايات الحيوان ، فان المبادرة لا تكون بمعزل عن السحر .

الموضـوع :

لا تحفل الحكايات بالموضوع الا نادرا ، فثمة مادة حكائية مسلية تقال لتزجية الفراغ . اما القيم فتنادي الشجاعة والتواضع والمحبة ممـا يصب في مجموعة القيم الاخلاقيــة .

الخيـــال :

تفتقر الحكايات الى نشاط المخيلة ، لانها تروي عالما جاهزا منقولا ، اذ لا ينمو الحدث داخل تفاصيل جزئياته . بل يتوقف عند حدود اطلاق

الخرافة ، وهذا هو الفرق بين اعادة الحكاية واستعادتها ، ففي الاعادة تنقل الحكاية من المأثور الشعبي دون عمل ايجابي ، وفي الاستعادة يلبي الكاتب حاجات الإيصال لجمهور محدد ، ويستثير مع حكايته الجديدة مكونات الخيال أو مثيراته .

ومرد هذا الى :

- ندرة الوصف .
- كثافة الحدث .
- فقر اللغة .

وعلى هذا ، لا يستطيع المرء أن يفصل القول في تجربة مورست على عجل مما ضيق افق الخطاب الحكائي للطفل العربي الى حدود النقل لحكايات لازالت تنوص في زمن الخرافة ، ومنطلق الماضي .

قصص الهدهد

السرد والصيغ الحكائية

تقترب القصة الطفلية من قصة الطفل في الحياة ، وكلما احتوت في ثناياها على تفاصيل مشخصة من زمن السرد ، فانها تلتم على بنيتها ، وتحيط بسالها . ليس عالم الطفل زمن تجربة فحسب ، انه خلاصة التعين البادي على الاشياء وهي تنصهر في زمن السرد لتؤلف سياق القصة الطفلية . ويفيدنا هذا في الوقوف على بضع عناصر نسميها احيانا طرائق التشخيص ، ويلحظها المرء في مقاربة الواقع ، وهي على نحوين اولهما استمداد المجرد وما يتبعه من المحسوس القابل لمنطق العقل او العلم او تضاعيف الخبرة المكتسبة ، وثانيهما عدم المبالغة في توهم الواقع او توهم الخيال ، فثمة علاقة اساسية في اكتشاف الواقع المتخيل على القيمة المضمرة او المعلنة في حصافة الخطاب الموجه للطفل استنادا الى مكونات عالمه الخاص مما يستدعي انطباق تضاعيفها سياق زمن السرد على زمن التجربة التي هي الخبرة وحكمتها بعد ذلك .

على أن التفاصيل المشخصة المستمدة من الطفولة ولوازمها لا تقال في القصة لتزجية الوقت او املاء الفراغ انطلاقا من مبدأ اللعب ، بل ينبغي أن تؤلف كونا يتملاه الطفل ويمتزج به قبل كل شيء ، وعبر هذا التاليف يتيح سياق السرد قابليته التربوية .

سننظر في انماط السرد في قصص « الهدهد »(١) ، وما يداخل ذلك من علائق فنية وفكرية وتربوية .

---

(١) تضم السلسلة القصص التالية :

١ ـ حيفا والنورس لتوفيق فياض .
٢ ـ ساق القصب ليحيى يخلف .
٣ ـ ما أجمل العالم لدلال حاتم .

عـرض القصص :

تلجأ القصص الى انماط موصوفة غالبا . ثمـة تنازع بـين منطق « الاسطورة » ومنطق « الخرافة » نحو تحرير السرد من قيود «الترميز» الى حرية الحلم . ويستخدم الكتاب « التفسير » او « التأويل » احيانا . كما يعتمدون على « الأنسنة » او التعليل « أحيانا اخرى » . وهناك قصة وحيدة عمدت الى مشاكلة عالم الطفـل .

النمـط الاول :

دوائر من التفسير لا بد ان تواجه الطفل في متاهـة محيط تتبـدل اشياؤه ، ويتحول محيطه الى جغرافية جديدة . عبقريـة في الزمـان والمكان يتخطاها الكاتب ، بينما لا تتعدى مجاوزة « الايهام » حدود اللغة المنثورة ، او الدلالة الشـاردة ، او « الاحالة » الكثيفة لتفاصيـل لا تجتمع، او تعصى على التشخيص .

وفي قصة « هيولى »،رقم قياسي من هذه الدوائر . موجز القصة : طفلة اسمها هيولى جميلة الصوت تختفي اذ يبعدها اهلهـا الى قصر في الريف (لاحظوا انها بنت امير او ملك) ، ثم تصـادق هناك المنتجين في الحياة ، وتتحول الى حورية مائية (لاحظوا السحر) تحملها سـلحفاة ضخمة الى دنيا جديدة لا خوف فيها ، ثم تغادر الغابة في ساعات هي سبع سنوات (؟ !) لتلتصق بالارض .

٤ ــ الصخرة والبحر لخير الدين عبد الرحمن .
٥ ــ القنفذ والحيـة لسعدي يوسف .
٦ ــ هيولى لخالدة سـعيد .
٧ ــ الصبـار لجمانـة نعمـان .
٨ ــ النوم لسليم بركات . وقد بدأ اصدارها عام ١٩٨٠ .

وهذه معطيات السرد على سبيل التفصيل لهذا النمط :

منطق الاسطورة او الخرافة :

الحلم ←— المسخ او التحوير بوساطة التفسير ملكة (طفلة) — هيولى .

صفـة : جمال الصوت بدافع التميز عن الاقران في السنة الثانية بكماء لها صوت كالغناء في السنة الرابعة والخامسة لها حنجرة العصفور .

نتيجة اولى : اخفاء او اختفاء ←— ابعاد هيولى الى تركيب جديد من السحر او الخارق .

طبيعـة : اللعب بدافع القياس التربوي .

نتيجة ثانية : عـزل ←— نقل هيولى الى قصر في الريف .
طبيعة اخرى : الغناء بدافع تراكم السياق السردي .

نتيجة ثالثة : احتفـال ←— تشارك هيولى الآخرين بدافـع من طبيعتهـا .

طبيعة ثالثة : الصداقة بدافع من سيكولوجية الحشـد للطفل وجماعتـه .

حكاية في دائرة الحكايات (الحلم يدخل في الابهـام) التفسير ينفي التفسير .

احتواء دائرة الآخرين المنتجين في الحياة (نحو اتصال بدائرة الحلـم) .

نتيجة رابعة : التعاطف (صوتها مليء بأحزان البشـر) بدافع تثمير الحـلم ←— القدرة على التغيير .

نتيجة خامسة : الصوت السحري (الغناء يخصب الارض) بدافع اكتمال الاستعارة للفعل الخارق المعطى في سياق يتأرجح بين الغموض والابهام .

حدث : تموت الملكة حزينة والصغيرة مبعدة .

نتيجة سادسة : الوعي الخاص او الطارىء (الدنيا لا تقف عند هذه الحدود) .

تحول السن يؤدي الى تكرار الحدث عبر استدارة اللغة .

الحلم يؤدي الى المطابقة او المشاكلة (العصفورة تغرد مثل هيولى) .

الحلم يترعرع على ارض التساؤل (هيولى تتبع العصفورة) .

حكاية في دائرة الحكايات (الحلم يؤدي الى استغراق الحلم وكأنه الابهام يتلمس فضاءه) .

العصفورة تتحول الى حورية مائية وتدعو هيولى الى عالم مطلق من الالفة والتفاهم والمحبة .

هيولى تختار النفق مع حورية فوق سلحفاة ضخمة . النفق دنيا جديدة لا خوف فيها .

الحلم يوازي الشوق الى الجبال حيث التناغم والتناسق والنشوة .

الحلم يوازي المطابقة حيث الحزن منذ مغادرة الغابة (الساعات بسبع سنوات) .

نتيجة اخيرة : الالتصاق بالارض دون ان يؤدي سياق النص بالضرورة اليها . وكأن المؤلفة تريد للحلم مطابقة الواقع (هكذا

عاشت عند مدخل النفق على الحدود بين العالمين ، كي تخرج كلّ صباح لتطلق صوتها بالغناء يرافق العاملين ، ويملأ أيام البشر بالفرح والسعادة) .

ينكسر الحلم ، ويعود الواقع ، ثم تتكوم الاستعارة داخل اجزاء النص ، بينما لا تفارقنا الحيرة ازاء تردد المؤلفة في ان تذعن للسياق التربوي ، او ان تلوذ بسياق النص .

وفي قصة « حيفا والنورس » ثمة بنت صغيرة سمراء تدعى « حيفا » تحبّ البحر وجدها ، بينما خلف البحر « حيفا » ثانية تنتظر (لاحظوا الحاجة الى التاويل) . وهكذا يذهب الجدّ الى الماء .. الى حيفا ، حيفا حزينة تبكي . تحاور حيفا النورس فيقول : حيفا مدينة جميلة مثلك ، وانا احبها . فتغضب حيفا ، وتنتظر جدها والنورس وتحلم بحيفا الثانية .

اما قصة « القنفذ والحية » فتعاود وصف الظواهر ، نحو تقديم امثولة في كراهية العدوان (الزواحف المؤذية) . يؤكد المؤلف ان لكلّ مخلوق ما يسكنه : أحمد ، المنزل الصغير ، القنفذ ، الحية . وعن هؤلاء كتب أمثولته خلل لون الكائنات وطبائعها . لا يحبّ القنفذ الحية . احمد يرى الحية فتهاجمه بينما تساعده القنفذ فتموت الحية . القنفذ ما احلاه . ولا ينسى المؤلف العبرة : المظهر غير المخبر .

النمط الثاني :

يستمد المؤلف من خبرته ومعلوماته مادة القصة ويطوعها لسياق السرد . تتكلم الاشياء والحيوانات لتنطق القصة بحكمتها او تثبت قيمها اثناء السياق ، او في الخلاصة ، هنا ، يلتف المؤلف الى « التدوير » بدلا من « الدائرة » . انه يقول المثال نفسه ثم يراكم الامثلة قاصدا الى

اكتمال مدى السياق التربوي او التعليمي . الرسالة هي شاغل المؤلف الاساسي ، وعلى حواشيها يقود المؤلف عملية الخطاب القصصي ، لذا تكوّن « الانسنة » أو « التعليل » شحنات « التحفيز » ، اي ترامي العنصر الحكائي على مثيله ليندغم في عملية الصنعه الفنية وبشكل السياق القصصي . انه ترام خارجي يستمد قوته من وفرة الثقافة وحضور الذكاء المكتسب حول قصة الاشياء والكائنات ، بينما يحتاج الطفل الى قصته في الحياة .

في قصة « الصبار » حوار واسع بين النباتات لتبيان وظائفها ، ومقدرتها على العطاء والبذل ، او الجلد والاحتمال ، انه مدار « انسنة » كامل يتحدث عن قصة النبات والصحراء في سياق تربوي ينهض الى اداء قيمه المعرفية والجمالية في تكوين الترامي الخارجي لأوصاف النبات ، وطبائع الاشياء على قاعدة الحكمة الناجزة مسبقا .

وهذه معطيات السرد على سبيل التفصيل لهذا النمط :

(الأنسنة)

سعادة الارض غير كاملة لان الصحراء خالية من اية زينة .

(التعليـل)

دعوة التطوع لزينة الصحراء وصمت الحاضرين . وتباين مواقفهم بعـد ذلـك .

زهرة الدفلى : لا تعيش بدون ماء .

الخوخ والدراق والتفاح والكرز : لا تعيش بدون عناية فائقة .

الياسمينة : اعتـادت دفء البيوت وظـلال الجدران وطمأنينـة الحدائـق .. الخ .

البرتقال والليمون : لها مناخها الخاص بالقرب من السواحل ، وعلى شواطىء البحـار .

ثم يكشف السياق عن معطياته :

ـ حوار دون صراع .

ـ الصراع يحال الى الطبيعة .

ـ الصراع بين طبائع النبات .

ـ الصراع يقود الى قيمة : **لكل كائن طبيعته ، ولكل كائن وظيفته .**

النخلة تعيش في الصحراء .

السوسن والزنبق والخزامى والنرجس والجوري تعتذر . الزهرة الشـوكية / الصبار ـ تتطوع ، فتباركها الارض ، وتصبح سـيدة ثمـار الصيف .

وفي قصة « ساق القصب » ، تقتلع الرياح القوية ساق القصب ثم تمرّ في اختبار فائدتها ، مادامت الاشياء جميعها مرهونـة بفائدتهـا ، فتجرب مقدرتها على النفع في أمنية صلبة .

ـ تكون عصا في يد صاحب الارض ، فتحزن .

← لا تريـد ان تكون مؤذيـة .

ـ تكون قفصا لعصافير الصياد ، فتحزن .

لا تريد أن تكون سجنا .

ـ تصبح الهية بين الاطفال كالفرس المركوبة فتفرح .

← ادخلت السـعادة لقلـوب الاطفـال .

ــ ثم تحزن لان أحد الاطفال داس عليها فكسرها .
←— لا تريد أن يؤذيها احد .

ــ تصبح شبابة ذات شكل جميل ، فتفرح .
←— لقد اصبحت شيئا نافعا .

هنا يكتمل « التدوير » في اطار الرسالة : مجموعة القيم التربوية الحاصلة حول فائدة الاشياء والعلاقات بينها .

وفي قصة « النوم » ، يكوم المؤلف الاوصاف من منطلق اللعب نفسه ، واستنادا الى المزج بين طرائق التشخيص المختلفة : « الانسنة » الى جانب « التفسير » . ثلاث شخصيات تنخرط في اللعب ثم تنام . « سمندلة » البنت الحلوة ، و « دودو » العصفور الجميل ، و «بيسون» القطة الصغيرة الطيبة . من الكتابة والطيران والقفز الى الليل وجموع الحلم : التحول (ان اصير نجمة) المشاركة (اللعب مع النجوم) . ثم يكون التسلل الى أحلام الطفل : (حينما تنامون تستطيعون أن تلعبوا مع النجوم) .

الامنية : التحقق .

النوم : الحلم .

النتيجة : المماثلة عبر الحلم ــ فسحة النوم او مشاكلة الواقع عبر اللعب .

أما قصة « الصخرة والبحر » فتؤثر تعليل الاشكال والطبائع من خلال حوار بين الصخرة والرمل للتاكيد على حياة الاشياء بعد ذلك .

الصخرة ثابتة ، وحبة الرمل تتحرك مع الموجة .
الصخرة تشكو ، والصياد يسمع البكاء .
الصياد يشرح بعض الاسرار :

حبات الرمل بنات الصخرة .
حبات الرمل تغوص وتعرف الاعماق .
الصخرة لا تقنع ، فيدفعها الصياد بقدمه الى البحر :
الصخرة تفرح لرؤية قعر البحر .
الصخرة تمل رؤية الاسماك .
الصخرة تحتاج الى اشعة الشمس .
الصخرة تبكي ، والسمكة الذهبية تسمع البكاء .
السمكة الذهبية تشرح بعض الاسرار :

السقوط سهل والصعود صعب .

الصخرة تتفت الى حبات من الرمل فيحملها الموج .

التدوير نفسه لترسيخ قيم معرفية لا تتناسب وهذا الجهد في السرد . لذا ، احتاجت البنية الى مكونات « الانسنة » من باب المماثلة في حمل الرسالة التربوية .

النمط الثالث :

وهذا النمط ، ينطلق من حياة الطفل لخلق عالم الطفولة ، وهو يحكي قصة لطفل في واقع الحال . ثم يعول الكاتب كثيرا على اختزانه لتلاقح البصر والبصيرة في التناغم بين الواقع والحلم . انها تفاصيل مشخصة حقا ينطبق فيها سياق القصة على السياق التربوي . هذا ما يفعله الطفل ، وهذه هي استجاباته عندما يكتشف ذاته وحقائق الاشياء فيعتمد السرد حينئذ على استمداد دؤوب للبداهة المتوفرة والصيغ الحكائية المتوفرة مما يجعل من القصة تفجرا دائما لحركة الطفل في عالمه . وتمثل قصة « ما أجمل العالم » هذا النمط خير تمثيل .

تنهض ربما من النوم ، وتتهجى علامات اليقظة ثم تقبل على هوايتها : الرسم . فترسم ما تحس به وتعرفه :

الشمس الكبيرة .

القطة الجميلة .

العصفور الملون في القفص الجميل .

ثم تذكرت ان العصفور يحب الحرية ويكره السجن .

تشطب القفص .

ترسم عصفورا ازرق وشجرة لوز ، وحوضا مليئا بالبنفسج وعشبا اخضر وفراشات كثيرة .

وترسم الى ان تنفد الورقة .

قصة قصيرة شفافة عن الاحساس بالجمال في العالم ، وتنمية ميل الطفل الى الابداع في رحلة كل يوم .

مكتبة الطفل
تنازع القيمة والتشويق

تجسد منشورات « مكتبة الطفل »(١) معضلة التوجيه المباشر لادب الاطفال ضمن ابداع فقير غالبا برمتها حيث تتبدى صعوبات مخاطبة الاطفال دون الاستناد الى انتاج وفير يرتقي بسبل المخاطبة الى مصاف الابداع الناجز . ولعل ابرز هذه الصعوبات كامن في مبالغة استعمال « القيمة » ، بوصفها خلاصة قصدية ، داخل السياق الفني ، فيعتنى بالعمل الفني لمجرد الحرص على « القيمة » . ان الالحاح على « القيمة » شكل من اشكال التضييق على ممارسة الابداع المكرس للطفولة اذ تنعدم معه ، او تكاد ، ضرورة فنية لاغنى عنها هي التشويق ومتعته التي يجنيها الطفل من « تلقي » العمل الفني على وجه العموم ، لان المتعة في اساس الجمال والاحساس الجمالي لانه ارقى انواع الاحساس ، الجمالي نتيجة تطور تاريخي ، ونوعي خاضع للخبرة البشرية نحو انسنة الاشياء ، وابتعاث علاقة اكثر حيوية وقابلية للتفاعل الانساني واغتناء الذات بالكينونة الاجتماعية .

وتصبح هذه الوظيفة اكثر اهمية في ادب الاطفال اذ ينبغي على المتن ان يحمل قابلية التواصل والتمتع في آن معا من خلال الدربة على التواصل والتمتع ايضا ، ونخطىء كثيرا اذا اغفلنا هذه الاهمية التربوية لملاحظة تنمية الاحساس الجمالي بالعالم داخل المتن نفسه ، فمبدعات ادب الاطفال في هذا المجال ، تحتل مكانة ارفع وانفع في الادب على وجه

(١) تضم « مكتبة الطفل » مجموعة من سلاسل موجهة للاطفال هي « السلسلة القصصية» و « السلسلة الشعرية » و « كتب مترجمة » و « حكايات شعبية » « السلسلة العلمية » وقد صدر من بعض السلاسل اكثر من اربعين عددا . ولكننا في هذه المقالة ، سنقصر حديثنا على النثر القصصي والشعر . وقد بدأ اصدارها عام ١٩٧٧ .

العموم . ونخطيء كثير ايضا اذا نظرنا لادب الاطفال على أنه « محتوى قيمي » اولا واخيرا . فثمة فراش وجداني ينبغي أن تتمدد عليه المحتويات القيمية وتنبسط في ربوع الطفل ليتلقاها من اقرب سبيل وربما كان اعتمال الوجدان الطفلي بهذه المحتويات القيمية على نحو ما محك عملية الايصال في أدب الاطفال ، فلا نغفل موقف الطفل من أدبه،وهو موقف يستند الى عمليات نفسية وشخصية واجتماعية ينبغي أن تؤخذ بالحسبان لاننا نعول كذلك كثيرا على تثمير موقف الطفل من ادبه في مشكلات رؤية الحياة ، وما تقدير الفن او تذوقه بعد ذلك الا بعض الدربة والمران على اعتمال الوجدان الطفلي بهذه المحتويات القيمية . ان التشويق وضمان المتعة للطفل من شأنه أن يوفر قابلية أفضل للتفاعل الانساني واغتناء الذات الاسرع بالكينونة الاجتماعية والانخراط المبكر في عملية الوعي . وعندما نطالب بموقف موضوعي من الادب ، وهو موقف يستند الى خبرات متنوعة ويستثير معارف واسعة ، فان المطالبة تصلح اكثر في حال ادب الاطفال لاننا نسهم بذلك ايضا في خلق عادات سلوكية حميدة من القراءة والتفكير على وجه العموم ، فنجنب الطفل مغبة المواقف المتطرفة التي لا يجني فيها سوى الانفعال العاطفي وحده ، او الجسدي وحده ، أو المزاجي وحده .

ان الابداع المكرس للطفولة عملية معقدة وشائكة ، ولاسيما في حال الانتاج الادبي ضمن فنون ادب الاطفال ، ولا يتأتى هذا دون الكف عن السهولة والاستسهال التي يقبلون بها على هذا الانتاج مشغوفين بحماسة ، أو مدفوعين الى كسب سريع رخيص ، أو مرهونين بشروط الابداع الراهنة في الحياة السياسية العربية .

سلم القيم :

يمضي بعض الكتاب بلاريب ، مثل جمهرة عريضة من المربين ، الى ادب الاطفال بوصفه مجالا مطلقا لتمثل القيم ، وغالبا ما يكونون على حق ، والا صار الادب الى مجرد تركيب لغوي لالعاب براقة على الورق ،

او داخل الوسائط الثقافية . وقد عني هؤلاء بوضع سلم للقيم يحوي تراتبية تربوية صارمة من شأنها ان تزيد من فاعلية الادب في تنقية الوجدان الطفلي من اضطرابات النفس وصعوبات المحيط نحو تكامل الشخصية .

ان القيم تعبير عن ايديولوجية كذلك ، ويراد لها ان تزج الطفل في عملية التغيير الاجتماعي . فيتصل الراهن اليومي بالثابت في حركة الجماعة من خلال الفلسفة التربوية لتوجيه الادب المدرسي وسواه ، ويمثل الحاق ادب الاطفال بمادة المناهج منتهى التضييق في حصر انتاج ادب الاطفال ضمن توجيهات المربي وحدها ؛ لان قضية تمثل القيم ذات حدين ، فهي اما ان تعكس القيم السائدة ، او ان تسعى لقيم جديدة هي سعي مجتمعها الى التغيير ، فتكون ، وفق هذه الحال ، تكريسا لواقع او تبشيرا بواقع جديد . وربما تتيح لنا آلية التصدي للقيم ان ننزع القشرة عن لب القضية . تكون المبالغة في استعمال القيم عندما يلحق هذا السلم ، وهذه التراتبية بالمنهاج التربوي الحاقاً ، وتكون القيم رائدا للادب ورائدا للمنهاج التربوي عندما تتسع حرية الابداع لدى انتاج ادب الاطفال ، ففي هذا ضمانة سبيل ادب الاطفال الى الوعي .

لقد وضعت تصنيفات متعددة للقيم ثم طورت وعدلت لتيسير البحث الادبي والتربوي وتحليل محتوى وسائل الاتصال في مجموعات ، ولعل اكثرها دورانا على الاقلام ، وفي الدراسات العربية ، تصنيف « وايت » المطور(٢) ، وينطلق هذا التصنيف من تعريف مفاده ان القيمة هدف

---

(٢) انظر ، مشكلات قصص الاطفال في سورية ، سمر روحي الفيصل - منشورات دمشق ص ١٣ - ١٥ . وكذلك : القيم السائدة في صحافة الاطفال العراقية ، خلف نصار محيسن الهيتي - وزارة الثقافة والفنون - بغداد ١٩٧٨ - ص ١٤ وما بعدها .

أو معيار حكم على المنتوج الثقافي . واذا كانت المجموعات لا تخرج عن الاهداف العريضة لمكونات الوعي ، فانها في الوقت نفسه تنادي بالقيم جميعها على حد سواء ، فالقيم المعرفية مثل القيم القومية الوطنية او القيم الجسمانية . وعلى اهمية تكون القيم في المشاركة الطفلية عبر نشاط انساني ما ، فان التلقي يمكن المشاركة من صواب الاتجاه في الحياة . ان صعود القيم وهبوطها في انحراف الاستخدام القيمي تجعل من ادب الاطفال مجرد محتوى لسلم القيم في تصنيفاته وتدرجاته ، فلا يدور بعد ذلك مع المدار الطفلي الثر في اكتناه المفاهيم ، وتمثل العلائق داخل السياقات المتعددة لتبدي القيمة تعبيرا فنيا او تربويا عن سطوع المعنى الخلاق لانخراط الطفل في عالمه الخاص .

التحفيز والتشويق :

وعندما نحصر ادب الاطفال بمحتواه القيمي ، فاننا نقفل الابواب على خصيصته التربوية التي تميزه عن ادب الراشدين في ان ادب الاطفال يتعدى حدود المحاكاة أو التعريف الى « توليف » عالم خاص موصوف باحتساب السياق الفني من منظورات مختلفة هي حساب عين الطفل ، وما تزين لصاحبها الصغير من كشف ورؤى للمحيط الكوني أو الاجتماعي أو التاريخي او الاخلاقي ، في اساس تكوين هذا العالم الخاص ، وقد غدت عين الطفل عين الفنان نفسه . وهذه المنظورات هي التي تؤجج التعبير الفني او التربوي بعناصر « التحفيز »(٢) اللغوي أو السردي أو الموضوعي حيث يكتمل النص على مدى التشويق مما لا يستقيم منتوج أدبي دونه .

وسننظر في تجربة « مكتبة الاطفال » للتعرف على بعض مشكلات الاستخدام القيمي المباشر الذي يتنامى غالبا مع منظورات ادب الاطفال.

---

(٢) ورد شرح هذا المصطلح .

ولعل التنوع الواضح في المنتوج الادبي لهذه التجربة من شأنه أن يساعد على تبيان جوانب « مكتسبة » في ممارسة الكتابة للاطفال .

الحكايات الشعبية :

تتوسع سلسلة « حكايات شعبية » في مفهوم الحكاية الشعبية ، فتصير الى « تأليف » جديد استنادا الى « اصل » أو « معطى » شعبي كما هو الحال في حكايات « قال جدي » لفاروق يوسف و « ذات مرة » لكريم العراقي ، و « سر المهنة » لفواز الشعار ، او ان يصير التراث العربي المكتوب الى مصدر شعبي كما هو الحال في « حكايات عربية » و « حكايات من تراثنا » لبيان صفدي ، أو أن يعامل القصص الرمزي او قصص الحيوان المكتوب في اطار الحكاية الشعبية كما هو الحال في « حكايا من كلية ودمنة » و « عندما تتكلم الحيوانات » لمنى محمد علي وداود سلوم . وهذا التوسع في النظر الى الحكاية الشعبية يضاعف التباس الممارسة في الكتابة للاطفال سواء في تحديد مجال الكتابة او تقويمه تذوقا وفهما وليس صحيحا من نوعية الاسئلة اثناء عملية التلقي أو الايصال . ولكننا سنكتفي بالتعليق على مثالين ، الاول « من حكايات شهرزاد » ، والثاني « حكايات من كلية ودمنة » لمنى محمد علي وداود سلوم(٤) . للتعرف على بعض مشكلات القيم في اعادة نصوص اخرى تشترك مع الحكايات الشعبية بطرف ، وتفتقر الى الاطراف الاخرى منها . وفي هذين المثالين ترتفع نبرة التوجيه ويسود صوت العقل ، بينما تتميز الحكاية الشعبية بغنى الخيال الى حد الخرافة . صحيح ، ان الحكاية مشتقة من المحاكاة ،

---

(٤) يحمل الاول الرقم ١٢ والثاني الرقم ١٣ في سلسلة « حكايات شعبية » . دون تاريخ شان منشورات المكتبة جميعها .

محاكاة الواقع واسترجاعه ، الا أن لهذه المحاكاة مواصفاتها ، فهو واقع نفسي مقنع لاصحابه ، ويقوم على حدث ويرتبط بأنواع من السرد ، ولكنه يبتعد في الاحوال جميعها عن الصدق التاريخي حيا ، ويقوم بوظيفة التسلية حينا آخر(ه) . وما فعله الكاتبان هو استبدال منطق الحكاية بمسار التوجيه المباشر تأكيداً على الحكمة أو المغزى مما يصب في الانشغال بالمحتوى القيمي وحده ، فأخذت المعالجة الفنية الطوابع التالية :

ـ تنقية اللغة من المجاز .
ـ تبسيط التركيب .
ـ تقليل الوصف .

يجتزىء الكاتبان في المجموعة الاولى حكايات من « الف ليلة وليلة» . على لسان الحيوان غالبا ، أو يتحدث فيها الانسان أساسا في الحكايتين « الصياد والاسد » و « الحمار والثور » .

يلجأ كتاب الحكايات الشعبية الى أساليب موصوفة غالبا مثل :

ـ الايحاء بالقدم والمطلق ، لزوم الحقيقة والثبات فيما تنطق به الحكاية (ذات مرة في قديم الزمان ـ في مدينة) .

ـ الايحاء بمهمة المربي في الحكاية ، لزوم الكفاية الاخلاقية والمصداقية في الراوي أو الحكواتي (قال جدي ـ قال أحد الحكماء ـ روى شجاع مرة) .

ـ الايحاء بأهمية المصدر المعرفي والاجتماعي للحكاية ، لزوم التأثير المسبق على المتلقي (حكايات من تراثنا ـ حكايات عربية ـ من

(ه) انظر : الحكاية الشعبية في المجتمع الفلسطيني ـ د. عمر عبد الرحمن الساريسي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ١٩٨٠ ـ ص ٨٧ . وكذلك : الحكاية الشعبية ـ د. عبد الحميد يونس ـ سلسلة « المكتبة الثقافية » رقم ٢٠٠ ـ ص ١٠ ـ ١٢ .

حكايات شهرزاد ـ حكايات من كلية ودمنة) لما يعرفه المتلقي عن هذه المصادر من جهة ، ولتقديره لمحتواها من جهة أخرى .

ـ الايحاء بمنطوق الحكاية ، لزوم اثارة خيال المتلقي أزاء انكشاف المخفي او الاسرار او شرح الاسباب الغامضة (سر المهنة ـ ماذا حدث للثعلب الماكر ؟ ـ لماذا اختفت الجنيات السبع ؟) .

وقد حافظت هذه الحكايات على هذه الاساليب ، ولكن المفارقة تكمن في مبالغة توجيه البنية للمحتوى القيمي اساسا .

في حكاية « الصياد والاسد » ، يموت الاول جزاء طعمه ونواياه السيئة ؛ ولقد صرح الكاتبان بذلك في عبارة اخذت حيزاً كبيراً من السرد :

« حين شعر الاسد بمطامع الصياد ونواياه السيئة رفع يده وضرب الصياد ضربة قوية جعلت مخالبه تمزق بطن الصياد والقت به على الارض ، ثم التفت الاسد الى الصياد وقتله » .

وفي حكاية « الخديعة » يتظاهر القنفذ بانه ناسك لاتهمه الدنيا وملذاتها ويحتال على الطيور لترمي له ثمر الاشجار ، ولكن الطيور تكتشف خديعته . وعلى الرغم من أن الطير تدرك سوء فعلة القنفذ ، فان الكاتبين يصران على التصريح بالقيمة في خاتمة النص :

« خجل القنفذ من موقفه واسرع الى مخبئه تحت الشجرة ولم يتركه لانه لا يستطيع أن يواجه احدا من الطيور بعد فعلته تلك ...

والمخادع لابد أن ينكشف امره مهما عمل وتظاهر » .

وفي حكاية « من لا يعمل لا يأكل » ، والعنوان كاف للتدليل على المبالغة القيمية ، لا يفعل الراوي اكثر من اسداء النصيحة :

« وهكذا نال الثعلب الكسول جزاء كسله لانه كان يتصور انـه سينال ما يريد وهو متكيء أمام مغارته » .

أما « حكايات من كليلة ودمنة » ، وهي مأخوذة عن نص رمـزي بارع على ألسنة الحيوانات ، فان الكاتبين حولا حكاياته الى دروس وعظيمة من خلال افتقار الوصف وضعف التخييل ، والاعتماد على السرد وحده ، طلبا للحكمة او المغزى .

السلسلة القصصية :

لا تنبض قصص السلسلة على وجه العموم بوهج الابداع ، لانها تلبية لحاجات دورية بالدرجة الاولى ، وكان كتابها وضعوا شروطا نصب أعينهم وكتبوا على هديها ، فكانت النتيجة هي نصوص بلا روح غالبا ، تشكو من الحساسية المتوقدة في مخاطبة الاطفـال اذ تكتفي من الادب بمحتواه القيمي على بساط من تنسيق الكلام الفقير وتوظيفه لتمثل القيم ، مما لا يختلف كثيرا عن استخدام الكلمات في تلك الحكايات الشعبية . وفي قصص « مغامرات مشمشة » و « رسالة الى الشمس » لسمير عبـد الباقي نوع من تنسيق الكلام الفقير دون فائدة تذكر ، ان مجرد النباهة لدى الطفل ، او مجرد ابداء عاطفة الامومة لا يصنع فنا .

ويمكننا ان نوزع أساليب الكتابة القصصية في هذه السلسلة على النحو التالي :

- القصة القصيرة جدا ، وتقتصر في تعبيرها اللغوي على اسداء النصح وتكريس القيم السلوكية والاخلاقية والمعرفية في الحياة اليومية ، ومثالها « كلام كبار » لحسن موسى ، و « التمساح والقمر » لفاروق يوسف .

- القصة غير الخالصة اذ تخالطها عناصر حكائيـة تميل بها الى الحكاية ، او عناصر روائية تشدها الى فن القصة المتوسطة او

الرواية مثل « ماذا جرى ايتها الاميرة ؟ » و « مغامرات معروف » لهدية عبد الهادي « وليث وملك الريح » لطلال حسن دلالة على وفرة العناصر الحكائية ، ومثل « الثور المجنح » لجمعة كنجي دلالة على العناصر الروائية .

ولا شك ، ان هذا الاختلاط في تحديد الجنس الادبي ، ولو كان في اطار النثر القصصي ، سيؤثر سلبا على وحدة الاثر الادبي لدى المتلقي ما دامت تربية التذوق والملكة النقدية من اولى أهداف التثقيف ، اذ ينبغي أن يلتحف الاسلوب المحتوى القيمي داخل النسيج القصصي على نحو ما ، لان هدفية ادب الاطفال مرهونة بانسجام بنيته وقيمه معا .

ولا تختلف قصص « السلسلة القصصية » في تنازع اساليبها بين القيمة والتشويق عن « سلسلة حكايات شعبية » حيث لا يلتفت الكتاب ، الا نادرا ، الى هذه المعادلة واهمية حضورها في مراحل انتاج ادب الاطفال وتوصيله من الابداع الى العمل الى الاستقبال . وهذا يبعدنا عن خطأ النظر الى جمهور الاطفال باعتباره وعاء للمحتوى القيمي في أي شكل ادبي منسجم او متنافر او مختلط . ان ابسط شروط الفن هي صواب توظيفه الواقعي أثناء عملية الخلق وبناء العمل الفني ، ولا سيما ان المحتوى القيمي ليس درسا ، بل انعكاس لوجود يستجيب للقوانين الموضوعية في الواقع ليؤلف خلل قوانينه وجودة النوعي المتميز واعني به ، دنيا الطفولة . ينبغي أن يدخل ادب الاطفال دنياه ، وان يدخل الطفل اليه دون عناء فلا انفصام بين مميزات الطفولة ، ومدار ادب الاطفال ، وتكتسب هذه المطابقة شكل المحاكاة عبر تخييلها المميز ، وتهدف الى القيمة الاجتماعية او المطلقة عبر مدلولات مميزة ايضا .

ان قصص هذه السلسلة تسعى الى تجسيد المحتوى القيمي ولا تفلح ، لان التشويق يحمل مفاتيح الاستقبال الى العمل ، بينما اقفلت

هذه القصص اقفالها على مجرد القيم علنية وصريحة استخفافا بمقدرة الطفل على التلقي ، وتبسيطا لدنيا الطفولة الى حد الافقار .

تكشف قصص « كلام كبار » عن هيكلية الصياغة برمتها . مبنى مناسب او غير مناسب لاداء القيمة دون لوازم بناء العمل الفني الاخرى .

في « الصافرة » حكمة مجردة : « لا يمكن ان ينال الا من يعطي » . ثمة شيخ اسمه عبد الله يسافر كثيرا ، ويحمل وصايا اهل القرية ، ولكنه لا يحضر طلباتهم . اما عباس الصغير فيجلب له صافرة لأنه دفع ثمنها سلفا للشيخ عبد الله . ونلاحظ ان العطاء قد اقتصر على ثمن هو النقود .

في « كلام كبار » أربعة صبية يريدون أن يقولوا « كلام كبار » ويفشلون ، بينما يقول الخامس فعلا كلام الكبار ، لأن يساعد ابيه في عمله .

ربما كان المبنى لا يؤدي في كليته الى القيمة ، وربما كانت القيمة اصغر من المبنى ، ولكننا في غالب الاحوال ، نلاحظ تقييد « دنيا الطفولة » وتضييق واقعها المتاح بوساطة قيمة صريحة معلنة معزولة عن مفهوم شامل للحياة او علاقة واسعة بالمجتمع او الواقع .

وتكاد « الثور المجنح » أن تكون استثناء يؤكد الرأي المثار ، فهي قصة تدل على سواها من قصص الاطفال في استخدام أداة الأنسنة ، والحفاظ على مدى تخييل يسعف المتلقي في استقبال العمل والاقتراب من مفارقة الطفولة والواقع . ثم تنتهي القصة دون أن تلح على القيمة اذ صارت الى مكنون يشير اليه السياق على نحو شفاف . ثمة ثور يخاطب الرجل . فيصنع النحات للثور جناحي طير ومخالب أسد ورأس انسان ، فيتحول الى ثور مجنح . في القصة تعليل لطابع الفن وطموحه الباقي في الحياة من خلال وظيفته الاجتماعية ، وتمضي القصة الى مدلولها بيسر :

« ومضت قرون عديدة ، ظل الثور المجنح خلالها رابضا في بيت النحات ، ثم طار عبر الزمن ليحل بين الناس في وقتنا هذا . وتعجب كثيرون من راسه الصخري ، الذي يشبه راس انسان ، ولكن الثور كان ذكيا ـ برغم راسه الصخري ، وعرف كيف يتحدث للناس عن الماضي السحيق ، وازدادت دهشتهم اكثر حين عرفوا ان هذا الثور الشجاع ظل رابضا يحرس ابواب المدن العراقية القديمة منذ آلاف السنين ولحد الآن » .

ومثلها قصص « التمساح والقمر » التي تجازف في الاقتراب من دنيا الطفولة على نحو محبب ولطيف . ومن الواضح ان الكاتب مشحون بنبرات طفلية ملفتة للنظر اذ يصوغ عالما اليفا دون تكاليف قيمية باهظة الثمن . انها الطرافة داخل نسيج مجازي لعلاقات المخلوقات والكائنات مع الطفل في واقع آخر متاح تصبح فيه القيم لصيقة النسيج اياه ، ولا تنفصل عنه . وهذه مزية اعتقد ان القصص الاخرى بعيدة عنها . ولنذكر محتوى هذه القصص :

- تمساح يأكل قمرا ويضحك لانه وحده يعرف اين اختفى القمر !
- زرافة تحب ان تكون رقبتها أطول مثل شجرة التفاح .
- نهر يصادق شجرة ، وتقرر الشجرة ان تذهب الى المدرسة وتتعلم ، وتأتي كل مساء تقرا للنهر ما تعلمته في الصباح .
- تكبر تفاحة لترضي العصافير الصفار ، ولكنهم لا يقدرون على حملها ، ويتمنى العصفوران لو انها بقيت صغيرة لاستطاعا ان يحملاها بسهولة .
- يتذكر الديك ان نشاطه هو أن يوقظ الشمس النائمة ، وان الحيوانات تقف مبتسمة تحيي الديك الذي ايقظ الشمس .

في هذه القصص القصيرة جدا مجاز شفاف لمعطيات كثيرة على سبيل الطرافة التي تؤلف بين المفارقات علاقة جديدة لفهم الاشياء .

بينما تبالغ قصة « ليث وملك الريح » في شرح ظواهر الطبيعـة ، وتعتمد على الحقائق البسيطة والتحذيرات السلوكية وتعليلات الغامض في احلام الاطفال ، ولاتنفع بعد ذلك في احاطتها بالصياغة المؤثرة على الوجدان النامي ، ولا سيما انها تدور مع احداث مخيفة تنفرط كالمسبحة عندما يغمض ليث عينيه ويحلم ، من جديد ، بالنهر والغيمة وملكالريح واللقالق .

وتبدو قصتا « ماذا جرى أيتها الاميرة ؟ » و « مغامرات معروف » مثالا للترهل والاستطراد والاختلاط في الاسلوب .

تقوم القصة على « خرافة » هي ان عصفورا يهدد الاميرة بفقدان اسنانها جزاء فقدان فراخه بسببها لتؤكد في النهاية ان الكلمة الطيبة كافية ، وان المحبة والتواضع كنز بحد ذاتهما .

اما القصة الثانية فهي تكملة للاولى ، او تبدا حيث انتهت الاولى ، فتروي كيف ذهب معروف في البحر ليجلب بذرة الاسنان من جزيرة الغفران . انها مجموعة مغامرات تفوق الخيال مع حيوانات ومخلوقات خارقة للوصف وشرسة في جزر كثيرة متباعدة فوق بحر لجب .

يساعد قرد معروفا والصياد على الايقاع بالافاعي التي تحرسجزيرة الغفران ثم يحضرون منتصرين بذرة الاسنان .

تقدم هاتان القصتان مثالا سلبيا لاستخدام الخرافة التي لاتنبع من واقع الحياة ، وتبني من اوهام المؤلف ركاما من « المصادفة » وخلـق المنطق او العقل . انها كتابة تفتقر الى التركيب الذي ينقذ القصة مـن مجرد التسلية وملء الفراغ . بينما لاحظنا أن هاتين القصتين تكثران من الوصف والاحداث دوننمو منطقي او سببي يفيد فياستخلاص القيمة.

السلسلة الشعرية :

من الواضح ، ان كتابة الشعر للاطفال في تجربة « مكتبة الاطفال » تقترب من مرتجاها في معالجة القيم ، وتشير نماذجها (٦) الى مناسبة التعبير ومغالطته في الوقت نفسه ، ولاسيما ان الشعر هو الفن الاكثر تأثرا بمنظومة القيم ، والاكثر حساسية ازاء متطلبات النظام التربوي . انه يحتاج الى ابداعه المتميز عن دنيا الطفولة في تعبيره الاسمى عن مدركات العالم وامتلاك قياد المعرفة من مجرد استخدام المفردة التي استعمالاتها داخل لغة الطفل نفسه . ان لغة الشعر ومقدرتها التعبيرية بعد ذلك ، هي محك الشعر ، ولايعني هذا كله ان نتلفت عن اسباب الصياغة مطلقا ، حيث يصبح « تنغيم » الشعر ، وطريقة بنائه «الصوري» محط النظر اولا ، وهذا مما يضاعف الاعتبارات المترتبة على معالجة القيم داخل المتن الشعري في خصائص اللغة او طبيعة الفكر .

لاشك ان شعر الاطفال في هذه السلسلة يتصدى لهذه الاعتبارات بيسر ، فلا يخضع الشاعر لتحكيمة القيم ، وان شابت الابداع شوائب من تأثير التفكير بهذه التحكيمة التي تبدو حاضرة في وجدان الشاعر قبل ان تتوجه الى وجدان الطفل ، فلا تزال اثار معالجة اللغة الشعرية او الفكرة بادية للعيان كما كانت تتبدى للشاعر اثناء حياكة القصيدة ، واعتقد أن مردها الاول الى التفكير الابداعي المحكوم بمنظومة القيم ومتطلبات النظام التربوي .

لقد افلح شعراونا في كتابة شعر للاطفال متفتح على الحياة غالبا وقلق التركيب احيانا ، وثمة قصائد كثيرة تتجه الى استثارة مكامن

---

(٦) استشهد بالكتب التالية من السلسلة الشعرية : « اغاني الحصان » لفاروق سلوم، « الوردة قالت للقمر » لنبيل ياسين ، و « تك .. تك .. تاك » لخالد يوسف ، وتحمل الارقام (١) و (٢) و (٧) . دون تاريخ .

الاحساس والتذوق ، اذ يحق للطفل ان يحس ويتذوق القصيدة ، لا ان نسرق منه هذا السلاح في اكتشاف جمال العالم وسعادته . ان القصائد تقود الطفل الى دنياه ، وهذه مزية ناجحة فيها ، ويستطيع المرء ان يلحظها في مظاهر التعبير التالية :

ـ استخدام العناوين ، وبعضها يصل الى حد مجرد الاصوات او الانغام مثل : (تك .. تك .. تاك) و (اغنية الترليلا) و (دار دوري و (دور .. ري .. مي) و (شش .. شش .. شاء) .

ـ وبعضها الاخر ، يساعد الطفل على تفهم المحتوى ، لا المحاصرة بمكنونة ، مثل : « اغاني الحصان » و « الطبق الطائر » و « جدي .. جدي » و « اغنية الصباح » و « قصة الجرس في الاجازة الصيفية » .

ـ مشاركة الطفل في تكوين عالمه من خلال الاعتماد على قوة الاحساس والتذوق لديه ، كما هو الحال مع كتاب « تك .. تك .. تاك » الذي ارى فيه انشودة عذبة لطيفة للوطن دون التصريح بمكنون القيمة ذاتها . وهذا مثال من قصيدة « دار .. دوري » لخالد يوسف :

دارْ .. دوري .. دار .. دوري
انّ الزهر على الاغصانْ
همس النجم باذن النورِ
ما اجملَ هذى الاوطان

وكما هو الحال مع كتاب « اغاني الحصان » الذي يصوغ الشعر من منظور الشخصية الطفلية وكائناتها واشيائها المحببة . وهذا مثال من قصيدة « سائق القطار » لفاروق سلوم :

« خذني معكْ
خذني معك

ياسائق القطار
خذني الى حقولنا
ومر حول بيتنا
فكل بيت بيتنا
ياسائق القطار » .

ــ التأكيد على الموسيقى في أساس الايقاع ، لان شعر الاطفال غناء ونشيد . ولقد اعتنى شعراؤنا بالموسيقى كثيرا ، وتتضح في بعض القصائد قابلية الترقيص أو الاداء الراقص ، مثل قصيدة « دو .. ري .. مي » لفاروق سلوم :

دوري مي فا صول لا سي
حلو منظر كراسي
كراسي معرض ألوان
وطيور من كل مكان
وزهور حول الناس
دور ري مي
فا صول
لا سي » .

أما مظاهر قلق التركيب فنوجزها فيما يلي :

ــ بزوغ نبرة التوجيه القيمي الصريح من خلال استخدام العبارات الكبيرة ، او مباشرة القيمة ، مثل قصيدة « الشتاء » لنبيل ياسين :

« قال الشتاء : ماذا في حقيبتي ؟
قلت له : البرد والمطر .
فقال : ماذا تفعل

في البرد ، والمطر
قلت له : اواصل الحياة والنظر
لهد في
بملؤني الحاضر والمستقبل » .

او ختام القصيدة :

« يملوؤني الامل
فكل من سار على الدرب وصل » .

وواضح ايضا ضعف الصياغة الشعرية وقلق الوزن .

ـ التكلف في اللغة الشعرية مما لايناسب الكتابة للاطفال ، كان يستخدم الشاعر ادواته بتأثير الكتابة للكبار كالحوار الداخلي «المونولوغ» في قصيدة « النهار لنا » لنبيل ياسين ، او بتأثير الجري وراء التجديد والتجريب كمبالغة التجنيح في التصوير الشعري « المجاز العقلي » في قصيدة « الطبق الطائر » لفاروق سلوم :

« هاهنا .. هاهنا
ياطيور المساء
اسمعينا نقول
للقرى والحقول :
أرضنا زهرة
وسمانا فصول » .

للمرء ان يقول الكثير عن صعوبات الكتابة للاطفال ، ولاسيما في ذلك التنازع بين القيمة والتشويق ولعلنا لاحظنا لهاث الكاتب وراءالاولى دائما ، وعنايته بالثانية احيانا ، دون ان ينجز ادب اطفال معتبر على وجه العموم ، وكأن « مكتبة الطفل » تدريب مستمر على الكتابة للاطفال لدى غالبية كتابها .

أدب

شعر

قصائد

للشاعر الراحل:
رياض الصالح الحسين

قصة:

مدونات
على الدرب الطويل

قصة: علي محاسنة
الأردن

شعـــر

قصـــــائـــــد

للشاعر الراحل:
رياض الصالح الحسين

اثنـان ..

كانا اثنين
يمشيان معاً
في الشوارع المهجورة
منه تفوح رائحة التبغ
ومنها تتساقط اوراق الليمون
وعند المنعطف
كنجمتين
سقطا

* * *

كانا اثنين
احدهما يغني
والآخر يحبّ الاصفاء
فجاة توقف عن هذا
وتوقفت عن ذلك
عندما انكسر المزمار

* * *

كانا اثنين
اهدته قلماً للكتابة
واهداها حذاء خفيفاً للنزهات
بالقلم كتب لها : « وداعاً »
وبالحذاء الخفيف جاءت لتودعه !

حتى الذئاب ..

عندما تكونين حزينة
يحزن معك النهر والزورق
اشجار الصفصاف والدوري الرمادي
الجبل ومصباح الغرفة
الستائر وضوء الشمس
القلب في الصدر
والسمك في الأنهار
وحتى ذئاب البراري المتوحشة
حتى الذئاب
تدفن رؤوسها في الرمال وتبكي .

هكـذا ..

مثل ساقية ماء تبحث عن مجرى
مثل نبع ارتفعت عنه الصخور
مثل قدم تتقدم في طريق لا نهاية له
مثل ناي وجد فماً
وشفتين ابصرتا شفتين
هكذا افتح عيني في الصباح
النافذة مفتوحة .. مفتوحة
والهواء يعبث ببقايا اوراق
وما زال في العمر بقية
للكآبة والضحك وصعود المرتفعات
وهكذا ..
اضيف صباحاً جديداً في حصالة حياتي
وامضي .

المعجـزة ..

اول كلمة في الصباح
هي لكِ
وآخر كلمة في المساء
هي لكِ ايضاً
وما بين صعود الشمس من خلف الجبل
وسقوطها في البحر

ما بين الخيط الأبيض والاسود
كتب وصحف واقلام
سجائر واوقات مبددة
اصدقاء وآلام كثيرة
وما بين الصباح والمساء
تطيرين كفراشة
وتتبددين كعطر
وانا اغط ً اصبعي في الماء
واكتب على الورقة كلاماً ابيض
وانتظر المعجزة .

تساؤلات ..

ماذا سيحدث لي غداً
هل ساستيقظ كنسر
بجناحين هائلين ومنقار ازرق
لاطير الى جبل او وادٍ او برية ؟
هل ساغني بفرح وجنون ؟
هل سابكي واعض الوسادة باسناني ؟
مَنْ سارى في الصباح
في الطريق اللولبي الى عملي
رجلاً ام امرأة
طاغية ام ملاكاً ؟

كيف سأبدو امامك
حزيناً جداً ام سعيداً للغاية
هل ستشبهينني بأرنب ابيض
ام بغراب مريض ؟
وهل ستكون يدك حارة ام باردة
وعيناكِ مطفأتين ام مشتعلتين ؟
ما الأخبار التي سأقرؤها ؟
كم سيجارة سأدخن ؟
كم طعنة سأتلقى ؟
كم قبلة سأقطف من شجرة الحياة ؟
غداً ، ماذا سيحدث لي ؟
اقذف قطعة نقود في الهواء واضحك :
إذا كانت صورة سأحبك
وإذا كانت كتابة سأحبك ايضاً .

الحب ..

الحب ليس غرفة للايجار
نتركها ببساطة ونرحل
مخلفين الصور القديمة والغبار واعقاب السجائر
الحب ليس اغنية جميلة
نتعلمها بغتة ، وننساها بغتة
كما ننسى عندما نكبر

الطفولة واللعب وحليب الامهات
الحب ليس حبة اسبرين
نتناولها عندما نشعر بالصداع
وليس نكتة خفيفة
نتداولها في أوقات الضجر
الحب ليس وردة للزينة
ولا كاساً مكسورة لسلة المهملات
الحب ..
شهادة ولادة دائمة
نحملها براس مرفوع
لنخترق شارع المذبحة !

أرجـوك ..

اكتب لي شيئاً ارجوك
دعني افهمك وتفهمني
اكتب لي شيئاً
اكتب لي بقلم الرصاص على ورقة
بأصبعك على راحة يدي
بعود كبريت على طلاء جدار
اكتب لي ارجوك
قلْ لي ما النفع ارجوك
من حلم محاط بالسواد

من فم بلا شفاه
من سماء بلا زرقة
من غابة بلا اشجار
ومن حياة بلا حرية
قل لي شيئاً أرجوك
اكتبْ او ارسمْ او غنِّ
غنِّ عن الوطن الذي يتألم .

الجدار ..

مثلما يمكن ان تصنع
من غصن الشجرة الأخضر هراوة
ومن زجاجة الكازوز الفارغة
اداةً جارحة
مثلما يمكن ان تصنع
من الغرفة الاليفة زنزانة
ومن الشارع الواسع مسرحاً للقتل
مثلما يمكن ان تكتب رسالة تهديد
بالقلم نفسه
الذي كتبت به رسائل الحب
وتستطيع أن ترسم مشنقة
بالريشة نفسها
التي رسمت بها طفلاً يضحك

وطائراً يطير
وراعياً يغني
هكذا تماماً ..
يتحول بعض البشر الى جدران
قاسية وكتيمة كما ينبغي
سوداء ومزعجة كما ينبغي
جدران تستطيع ان تدقّ مسماراً فيها
ان تضع عليها الصحف والأواني
والكراسي الخشبية
ان تفتتها بالفؤوس والمطارق
لكن من المتعذر تماماً
ان تقول للجدار : يا صديقي
فيرد عليك : يا اخي

مقاطـع ..

من اكاذيب الكلام
من اكاذيب الروائح
من اكاذيب الأصوات
من اكاذيب العالم ..
الكذبة الوحيدة التي تستحق التصديق
هي الحب

في حصار الماضي
في حصار الحاضر
في حصار المستقبل
لا منفذ للحياة
سوى الحياة

الكلمة الجميلة
الكلمة اليائسة
الكلمة الحزينة
الكلمة المرحة
الكلمة العاشقة
الكلمة البسيطة
الكلمة الحية
الكلمة المغامرة
كلها تنتفض في قاع صمتي

اعتيــاد ..

اعددت لكِ فنجان قهوة
فنجان قهوة ساخنة
القهوة بردت
وما جئتِ

وضعت وردة في كاس ماء
وردة حمراء حمراء
الوردة ذبلت
وما اتيتِ

كل يوم افتح النافذة
فارى الاوراق تتساقط
والمطر ينهمر
والطيور تئن
ولا اراكِ

لقد اعتدت
ان اعد القهوة كل صباح لاثنين

أن اضع وردة حمراء في كاس ماء
ان افتح النوافذ للريح والمطر والشمس

لقد اعتدت
ان انتظرك ايتها الثورة !

قصة :

مدونات على الدرب الطويل

قصة : علي محاسنة
الأردن

مازال يذكرها ... في ساحة القرية . وكان عمره خمس سنوات .. يوم امتطى حصانه المكون من عصا طويلة ذات راس معوج وانطلق مع الرفاق يثير النقع ويقلد الصهيل بصوته .. كان فخورا بحصانه فهو غصن من لوز قريته اليابس المتين اللامع كثير العقد .. ،بعد اشواط من الطراد.. ترك الحصان في ظل الحائط ودلف الى بيت ليشرب .. خرج ولم يجد الحصان .. احس بالحزن بالغبن .. بالغضب .. تلفت .. يمينا .. شمالا .. دار حول البيت وعبر الزقاق

الصغير .. لاأثر للحصان .. حدث امه بالحكاية .. قالت « ليس فارسا من يسرق حصانه » .. غضب .. استدار خارجا .. وعيناه تمسحان الجهات الاربع كميني صقر .. لمح صبيا يجري وتتبعه زوبعة غبار .. انطلق نحوه .. ادركه .. فاذا الفارس فارس والحصان حصانه اللوزي .. ملأه الغضب استوقف الفارس .. رفع يده اليمنى .. أشاح بذراعه الى مدى بعيد ثم هوى بصفعة شديدة على وجه الفارس المغتصب القته ارضا .. وانتزع من يده مقود الحصان .

٢

ظل والده يتحدث عن أيام (الجهاد) .. وايام عبد القادر في (القسطل)(١) وعن .. الهدنة .. والتقسيم .. والانجليز .. ... ظلت كراهية كل ماهو انجليزي تنمو في ذاته (سأنتقم منهم .. لابد .. .. لكن .. اينهم .؟ ليس في المخيم اي انجليزي .) كان يكره موظفي توزيع مواد الاغاثة من وكالة الغوث الدولية لانهم يتحدثون بالانجليزية .. مع ان الاخرين افهموه ان هؤلاء سويديون وليسوا من الانجليز .

ذات ظهيرة وفي طريق عودته من المدرسة الى المخيم .. سائح اشقر اللون .. أزرق العينين يمر عبر الشارع العريض المحاذي للمخيم .. رآه .. تمنى أن يجده انجليزيا (لكنه .. ربما لايكون منهم ..) اقترب ..تناول حجرا وبكل الغضب رماه وأصابه في كتفه .. التفت السائح مذعورا ..يتلمس موضع الاصابة .. واطلق الرامي ساقيه للريح واختفى وراء بقايا كوخ وعبر ثقب في الجدار اخذ يسترق النظر .. ليرى اثر ضربته .. في (الانجليزي) المصاب .. وينتشي ..

٣

في مسرح المدرسة .. اختاره المعلم ليؤدي دور عربي متهم امام محكمة صهيونية .. وكان عليه ان ينكر التهمة أمام المحقق في عدة مواقف ليغضب المحقق فيصفعه .

سأله المحقق « لماذا ... ؟ » رد أولا « لم ... »

.. وكرر المحقق السؤال .. وكرر هو الجواب .. وثالثة .. وكررها أيضا .

ارتفعت يد المحقق بانفعال وهوت على الوجه الاسمر الرقيق ..

وحسب الدور المرسوم كان عليه أن يتراجع الى الخلف مترنحا .. ليكيل له آخرون ضربات أخرى ..

لكنه لم يفعل ذلك ــ .. بل سمعت طقطقة القيود تتقطع في معصميه لينقض على المحقق يلطمه ويطرحه أرضا .. وليقف جاعلا قدمه بحذائه الممزق عند المحقق المطروح على الارض ليلقي من هناك نظرة الى المخرج المندهش قائلا :

« لا .. لن أمثل هذا الدور .... وسأكتب مشهدا مختلفا . »

٤

في مخيم « البقعة » قرب عمان .. كانت « امينة » تخطو مسرعة على الطريق الترابي عائدة من مشغل الخياطة قبيل الغروب .. خانها حذاؤها البلاستيكي الرخيص الذي تنزلق به قدمها المعروقة .. زلت قدمها على الطريق الموحل .. وهوت الى الارض .. لترى مع اول نظرة من على الارض نحو السماء .. وجه « محمود » .. الاسمر .. وقسماته الصارمة المحتشمة .. كان ينحني اليها .. وبذراعيه يقيم عثرتها .. شكرته ومضت كالبرق وقد علق بعض الطين بثوبها الاسود المطرز بالاخضر والاحمر ..

في أعماقه علقت صورة الوجه الدافيء الناظر اليه من على الارض .. ظلت الصورة تبدو بقوة على صفحات الامواج المتلاطمة في صدره أياما ..

لم تطل الحكاية كباقي الحكايات .. فهنا في المخيم تختصر اشياء كثيرة .. وتنبت البذور اسرع .. ويأتي يوم في تموز واذا هو بجانب امينة بين الزغاريد .. وخيام .. واكواخ .. وطين وغبار طرقات المخيم وايمان يتغنى بها المحتفلون .. انهم يقسمون قسما منغما .. يتغنون بانغام بها رنات اسى .. لكنها تخرج من الاعماق حارة .. تتدافع .. وكأنها بلا نهاية ...

بعد اسبوع العرس كان أول خروجهما الى مخيم « سوف » في الشمال للاحتفال باستشهاد حسن أبو عزام قرب صيدا .. وكان حسن رفيق الطفولة في مخيم « عقبة جبر » .. في المدرسة .. واللعب .. وكل شيء ..

اما الخروج الثاني .. فكان الى كوخ عائلتها حيث ستقيم بانتظاره والمرحلة القادمة .... وعدها بارسال خطاب كل اسبوع .. جاءها الخطاب الاول متأخرا ثلاثة أسابيع .. من النبطية .. الحياة هنا ممتعة ورائعة .. نقضي معظم وقتنا في تعلم أساليب معالجة الآفات الضارة .. وبناء الجدران الواقية لمنع انجراف الارض .. واعداد الاشتال .. واعادة زرع الارض بأشتال الزيتون واللوز .....

جاءه الخطاب الاول من البقعة .. متأخرا اربعة أسابيع .. « انا قادمة مع زوجة صادق عبد الباقي .. وعندي أخبار سارة .. »

— ٥ —

أوردت وكالات الانباء الخبر التالي من صيدا ويرويه شهود عيان :

« كانت سيدة حامل في شهرها الخامس تتصدى بالرشاش لطائرة تغير على مخيم النبطية .. واصابتها .. فهوت في البحر امام ميناء صيدا .. »

رجع محمود ذات مساء يحمل بيسراه خوذة طيار تحمل شعارا أسود له ست زبانات .. وكان مدخل صارم لرصاصة مهذبة قد مزق الشعار القبيح على الخوذة ..

قدم لها الهدية .. تأملتها .. وبدأ وجهها يتورد .. ثم انفجرت ضاحكة من الاعماق .. سألها سر ضحكتها .. اردفت ضاحكة « انها تذكرني بصورة ذلك الطفل الجميل الجالس على اناء له شكل هذه الخوذة وقد خلع ملابسه السفلية .. وامامه جلست قطته .. كأنها تحدثه .. كنت احلم دائما ان يكون لي طفل جميل مثله .. لذا سأحتفظ بها . اظنها ستكون ذات فائدة لنا بعد بضعة اشهر » ... ضحك هو الآخر حتى كاد يستلقي على ظهره .. لو لم تصطدم مؤخرة راسه بجدار الخيمة المائل .

- ٦ -

اليوم السابع والعشرون من رمضان .. الوقت بعد العصر .. ام صبري الجارة الصفدية الحكيمة تعد بعض الطعام على موقد كيروسين في خيمة مجاورة .. وتنادي .. « أمينة .. يا ابنتي ... قومي ... تحركي .. تمشي فهذا يسهل عليك الميلاد .. يبدو انك ستضعين ولي العهد في هذه الليالي المباركة .. بالسلامة باذن الله » .

أمينة تقوم مستعينة بعمود الخيمة .. تتمشى الى خيمة ام صبري وفي صدرها احساس الرهبة للحظة القادمة .. الم المخاض .. صراخ الوليد .. لون عينيه .. فرحة الاهل هناك في مخيم البقعة .. فرحة محمود .. صورته يحمل الوليد بين ذراعيه يدور به حول واسط الخيمة وبندقيته معلقة في كتفه .. و .. و ..

رحبت بها ام صبري وقدمت لها صفيحة كبيرة فارغة لتجلس عليها بعد أن وضعت فوقها قطعة من معطف عسكري قديم .. تحدثتا عن

رمضــان .. والصيام .. في مخيم البقعـة .. في النبطيـة .. وفي « البلاد » .. وعن دقيق وكالة الغوث .. وندرة التمر هذه الايام .. وضرورة ابعاد صفائح الكيروسين عن الخيام حتى لا تشتعل بقذائف العدو ساعات القصف .. وعن رمضان القادم .. ورمضان الذي يليه .. وفجأة انتفضت امينة واضعة يديها على خاصرتيها وقالت « ام صبري .. احس ببعض الالم .. هنا .. هنا .. »

ابتسمت ام صبري وقالت بثقة « ان شـاء الله خير يابنتي .. اطمئني .. انا وأم العبد وصفية حولك .. لا تخافي .. بامكاننا العناية بك ولن تحتاجي الى طبيب باذن الله .. لقد ولدت عشرات من نساء المخيم حتى الآن .. قومي تحركي .. سأباريك حتى خيمتك . »

الشمس تقترب من المغيب .. ام صبري تطل من خيمة امينـة لتنادي « يا حاجة خديجة .. يا ام العبد .. » فتهب صفية وام العبد وكانهما فرقة طوارىء جاهزة للعمل .

الشمس تقترب من المغيب .. وامينة تصرخ من الالم .. ام صبري تدور حولها .. تشجعها وترتب أوضاع الفراش الخاص .. تحكم ربط غطاء راسها وتثني كمي ثوبها حتى ماوراء كوعيها بينما صفية وام العبد تجهزان المكان وما يلزم في مثل تلك الظروف .. لقد بدت الخيمـة كخلية نحل .. قالت صفية سنحتاج لمساعدة عائشة والحاجة فاطمة.. ومن خارج باب الخيمة نادت بعبارة واحدة .. وفي الحال كانتا مع المجموعـة .

قرص الشمس يكاد يلامس خط الافق .. وصوت انفجار هائل يصم الاذان .. وانفجار آخر .. ثم طيات متلاحقة تخرج من المخيم .

قرص الشمس يغطس تدريجيا وراء الافق .. صرخات قوية مـن الـم .. اصوات انفجارات متلاحقة تنبعث مـن مصادر اقرب مـن

سابقاتها .. وفي لحظة سكون عابرة بين تتابع القذائف واذان المغرب.. وفرحة افطار المؤمنين .. انبعث صوت وليد يهبط الى الارض للمرة الاولى .. وعبر سماء المخيم انطلقت زخات متلاحقة من رصاص .. وزغاريـد .

محمود يقبل من بعيد مسرعا .. يده اليسرى على كعب بندقيته المعلقة بكتفه .. فتستقبله زغاريد وسيل من التهليل والتهاني .. وينحني متأملا وجه امينة الباسم المضنى وقد استسلمت مسترخية منذ لحظات .. بينما بدت على وجهه أشياء كثيرة .. وفي العين دمعة.. ويطل في الوجه الجديد يطبع قبلة على الجبين الغض ثم يقترب من اذن الوليد يرفع عندها الاذان بين لعلعة الرصاص التي لم تنقطع .. اكمل الاذان .. ناولته عائشة حبة تمر .. دعا الله وتناولها مع جرعة ماء .. صلى المغرب امام الخيمة .. ارتفعت ذراعاه نحو السماء .. وعيناه .. ثم قام منصرفا .. « سأعود باذن الله بمجرد توقف القصف .. لن اتأخر كثيرا » .. وهنا علقت الحاجة فاطمة « .. لم نعد نبالي متى يبدأ .. ولا متى ... »

توافدت نسوة الخيام المجاورة وغصت بهن الخيمة .. أمينة وقد صحت الآن تستمع بسعادة ورضى الى احاديثهن .. وتجارب الحمل والولادة .. وخصوبة موسم الصبيان ذلك الشهر .. والنصائح الى الام الجديدة .. بين روائح البخور .. والقرفة .. والعجة .. والبارود .. لكن لا احد يعبأ كثيرا .. بدوي القذائف الذي يكاد لا ينقطع .

عاد محمود يحمل علبة حلوى كبيرة .. ناولها لأم صبري لتقدم منها للحضور قائلا « .. وهذي حلاوة سيف .. وعقبال كل العرسان». .. « علقت عائشة قبل ان تتناول قطعة الحلوى » .. وعبد القادر سمى ولده سيف .. « في حين اخذت ام صبري تستعيد شيئا في ذاكرتها بينما كانت تمضغ على مهل قطعة الحلوى .. لتجدها » .. في الاسبوع

الماضي وفي جهتنا فقط .. ولد ثلاثة اطفال .. وسمي اثنان منهم (سيف) .. والثالث (خالد) .

تلاقت نظرات محمود وامينة .. ولمعت في سماء المخيم صليات من نيران رشاشات من عيارات مختلفة .. ثم سأل عائشة ان تناوله كيسا صغيرا كان معلقا بالعمود الخلفي للخيمة .. فتح الكيس .. اخرج من داخله حفنة من اللوز الجاف واعاده اليها ورجاها ان تقدم بعضا من لوز « البلد » الى الحاضرات .. لقد وصل اللوز من الضفة الغربية .. عبر مخيم البقعة مع آخر من وصل من هناك يوم امس الاول ..

كانت ظلاما في الخارج .. الا من لمعان الرصاص والقذائف وطلقات التنوير ... لكن محمودا مضى يزرع حبات اللوز قرب الخيمة .. وبين الخيام المجاورة .. وفي نقر وحفر صنعتها غارات الطائرات المعادية الاربعاء الماضي .. وغارات سابقة .. كانت ظلاما .. الا انه كان يعرف جيدا كل مواضع تلك الحفر .. كانت التربة مرتوية .. ممتلئة .. متحفرة .. وكان الوقت مناسبا .. « الم يكن هذا هو شهر البذار في البلد .. ؟ » ــ قال لنفسه بينما كانت اصبعاه تغرسان حبة لوز في التربة الرطبة ــ .. كانت أصابعه تحس الرغبة والعشق .. فتكاد الارض تمسك أصابعه مع اللوزة .. وتنطلق منها رائحة قوية نفاذة ظلت تبعث في سمعه صهيلا منغما متصلا ... ويكاد يرى عبر الظلمة ازهار اللوز .. تملأ كل شيء .

هوامش :

(١) القسطل : موقع قرب مدينة القدس جرت فيه معركة كبرى عام ١٩٤٨ بين المجاهدين الفلسطينيين والعصابات اليهودية واستشهد فيها المجاهد الفلسطيني عبد القادر الحسيني وتحولت (القسطل) الى ملحمة للبطولة في الادب الشعبي للمشرق العربي ..

يصدر قريبا عن وزارة الثقافة والارشاد القومي



داود النمل
في النهج الصهيوني المعاصر

محمد وحيد خياطة

مطالعات

قصيدة الطين

د. نذير العظمة

فلسفة الحياة
عند جيم كرو

ريتشارد رايت
ترجمة أحمد محمد عطية

قراءات غير متأنية
في النقد المعاصر
في البحث عن دور للتاريخ

عبد النبي اصطيف

داود الـمَـلـك
في النهج الصهيوني المعاصر

محمد وحيد خياطة

« مبارك الرب اله اسرائيل من الازل والى الابد » المزمور ١٠٦

« الذي ضرب امما كثيرة وقتل ملوكا اعزاء » المزمور ١٣٥

« واعطاهم اراضي الامم وتعب الشعوب ورثوه » المزمور ١٠٥

« يرسل الرب قضيب عزل من صهيون ... مـلأ جثثا ارضا واسعة سحق رؤوسها » المزمور ١١٠

حكاية شعبية شائعة :

كانت احدى المدن في مكان ما من هذا العالم الواسع ، ترقد في امان واطمئنان ، لا يعكر صفوها شيء ، ولا ينغص على ابنائها منغص . وكان لهذه المدينة ملك طاعن في السن ، طيب وودود وكان له ابنة جميلة تقدم لطلب يدها الكثير من الامراء والملوك ولكن لم يحظ احد منهم بها زوجة له .

وفي يوم من الايام ، اعتدى على هذه المدينة عملاق مخيف احال حياة ساكنيها الى رعب دائم وخوف شديد . وعجز امام هذا الجبار كل ابطال الملك . فقدم الملك ابنته لتكون زوجة لمن ينقذ المدينة من هـذا الخطر الداهم . وكان ان تقدمَ فتى مغمور من عامة الشعب وقتل الجبار وتزوج الامـيرة .

حكاية توراتية مماثلة :

« فقال رجال اسرائيل . ارايتم هذا الرجل الصاعد . ليعـير اسرائيل هو صاعد . فيكون ان الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنـى جزيلا ويعطيه ابنته ويجعل بيت ابيه حرا في اسرائيل .. » ولما رجع داوود مـن قتل الفلسطيني اخذه ابنير) قائـد جيش شاؤول الملـك واحضره امام شاؤول وراس الفلسطيني بيده . فقال له شاؤول ابن من انت ياغلام . فقال داوود ابن عبدك يى البيتلحمي . صموئيل الاول ١٧»

شعب بلا ارض ولا تاريخ يتغنى ببطل اسطوري :

لو عدنا الى اصول هذه الحكاية الشعبية المتداولة على السنةالاجداد والجدات وهم يروونها للاحفاد . نرى جذورها موغلة في القدم ومنتشرة لدى كافة الشعوب . وقد انتقلت من الشرق الى الغرب عبر الاساطير اليونانية والرومانية وتاثر بها كتبة التوراة الذين عانوا مرارة الذل والهزيمة على ضفاف دجلة والفرات خلال فترة السبي البابلي في اواخر القرن السـادس قبل الميلاد . فكان لابد من وجود بطل يحرك العواطف ويهيج المشاعر القومية ويستفز النفوس المقهورة ويمسح الدموع عـن الاعين الباكية .

« على انهار بابل هناك جلسنا . بكينا ايضا عندما تذكرنا صهيون ـ المزمور ١٣٧ » .

من بعيد (لشعب الله المختار) مجده ؟ من يبني لرب الجنود هيكلا الذي هو فوق جميع الآلهة .... و « الذي ضرب أبكار مصر من الناس الى البهائم . المزمور ١٣٥ » .

من ينتقم من اشور ونينوى وبابل ؟

« يا بنت بابل المخربة طوبى لمن يجازيك جزاؤك الذي جازيتنا . طوبى لمن يمسك اطفالك ويضرب بهم الصخرة ، المزمور ١٣٧ » .

ان داوود احد أهم الشخصيات التي ابتدعتها الروايات التوراتية لتجسد البطولة الاسطورية « لشعب الله المختار » وقد اختار انبياء المنفى البابلي ارمياء وحزقيال هذه الشخصية لينسجوا من حولها هالة من الامجاد والبطولات وحكايا شعبية تتوق الى سماعها عموم افراد الشعب واعتمدتها الحركة الصهيونية في بناء ايدلوجيتها العنصرية اليوم لاغتصاب الارض العربية .

من قتل جالوت الفلسطيني ؟

هل هو داوود كما يرد في سفر صموئيل الاول ١٧ . أم ان القاتل هو شخص آخر يدعى الحانان من بيت لحم كما يرد في سفر صموئيل الثاني ؟

« ثم كانت أيضا حرب في جوب مع الفلسطينيين فالحانان بن يعري ارجيم البيتلحمي قتل جليات (جالوت) الجتي وكانت قناة رمحه كنول النساجين ٢١. : ١٩ » .

وهناك رواية توراتية إخرى تدعي ان الحانان لم يقتل جالوت من مدينة جت الفلسطينية وانما قتل اخاه « وكانت أيضا حرب مع الفلسطينيين فقتل الحانان بن ياعور لحمي اخا جليات الجتي . وكانت قناة رمحه كنول النساجين . أخبار الايام الاول ٢٠ : ٥ » .

اي سفر من اسفار التوراة نصدق ؟

ان المتعصبين لصحة الروايات التوراتية لا تعوزهم الحيلة في التبرير والتفسير لهذا التناقض المروع في سرد الحوادث بالرغم من تواجد هذا التناقض في سفر واحد . لقد اثبت الفيلسوف الهولندي « سبينوزا » الذي كان أول من درس التوراة دراسة نقدية في القرن السابع عشر ، ان التوراة (كتب موسى الخمسة) بما فيها سفر يوشع، كتبت لاول مرة في القرن الخامس قبل الميلاد (فترة السبي البابلي) وان مزامير داوود لا تمت الى داوود وعصر داوود بصلة وان المبالغات قد اقحمت حول شخص داوود لتجعل منه ملحمة اسطورية تروي ظمأ الخيال الشعبي .

داوود كما يرد وصفه في التوراة :

جاء وصف داوود في سفر صموئيل كما يلي : [يحسن الضرب (على العود) وهو جبار بأس ورجل حرب وفصيح ورجل جميل والرب معه ١٦ : ١٧] .

ولم يكن لاسرائيل ملك كبقية الشعوب فاجتمع شيوخها وطلبوا من صموئيل (احد قضاة بني اسرائيل) ان ينصب عليها ملكا « فالآن اجعل لنا ملكا يقضي لنا كسائر الشعوب . صموئيل الاول ٨ : ٥ »

فتم اختيار شاؤول ليكون أول ملك يحكم اسرائيل من قبل يهوه رب القبائل اليهودية التي لم تعرف المدنية والاستقرار على عكس الشعوب المجاورة التي عرفت الحكم والتنظيم والتشريع منذ آلاف السنين . وقد ورد في احد الفهارس الملكية التي تتضمن اسماء الملوك الذين حكموا جنوب الرافدين ، قبل وبعد اسطورة الطوفان البابلي ، ان الملكية حق الهي منحه الرب انليل الى اناس يحكمون باسمه على الارض . وكانت اريدو(١) أول من عرف الملكية .

كان شاؤول قد اصيب بمرض عصابي في أواخر ايامه فاصبح قلقا سوداوي المزاج (روح كريهة حلت به من قبل الرب كما ورد في سفر صموئيل الاول ـ توراة) وقد اختير داوود الشاب ليروح عن نفس شاؤول بالعزف على العود فوجد في عيني الملك استحسانا واقام في بلاطه وتوثقت العلاقة بينه وبين أحد ابناء الملك . وكان هذا اللقاء اول لقاء يتم بين الملك شاؤول وداوود العازف والمغني الذي جاء بوصفه طبيبا « نفسانيا » لمعالجة الملك المريض . ولم يكن داوود شاعرا مرهف الحس يجيد العزف والغناء فحسب بل كان فارسا مهيبا له صولات وجولات . وهنا تبدا قصة اخرى لا تمت الى الاولى بصلة ، رغم سردها في نفس السفر التوراتي .

تبدا القصة كما يلي : وحدث في ايام شاؤول ان قائدا فلسطينيا من مدينة جت مهيب الخلقة يثير الرعب والفزع في النفوس « طوله ست اذرع وشبر . وعلى راسه خوذة من نحاس وكان لابسا درعا حرشفيا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس . وجرموقا نحاس على رجليه ومزراق بين كتفيه . وقناة رمحه كنول النساجين وسنان رمحه ست مائة شاقل حديد . صموئيل الاول ١٧ : ٤ ـ ٨ » .

ويعرض الملك ابنته ميكال زوجة لمن يقتل هذا الطاغوت العملاق . ويتقدم الفتى الراعي والشاعر الناعم الرقيق من الملك ويطلب منازلة جالوت . ووفق هذه الرواية يتعرف شاؤول على داوود لاول مرة بمحض الصدفة وكان ذلك اثناء الطعام لإخوته الجنود في جيش شاؤول.

وكان هو ـ اي داوود ـ أصغرهم سنا واضعفهم بنية ويعمل راعيا لماشية أبيه ولا علاقة له ببلاط الملك . وكان ان حدثت المعجزة وانتصر داوود المغني على جالوت الذي طول رمحه كنول النساجين واصبح داوود قائدا لجيش الملك بعد أن استطاع أن يصرع جالوت

بحصى المقلاع (انظر النص التوراتي في سفر صموئيل الاول : الفصل ١٧) غير ان انتصار داوود لم يكلل بزواج الاميرة بنت الملك بل اثــار الغيرة والاثرة في نفس شاؤول الملك لاسيما وان الغواني بدان ينشدن لداوود « وكان عند مجيئهم حين رجع داوود من قتل الفلسطيني ان النساء خرجت من جميع مدن اسرائيل بالغناء والرقص للقاء شاؤول بدفوف وبفرح وبمثلثات . فاجابت النساء اللاعبات وقلن ضرب شاؤول الوفه وداود ربواته فاحتمى شاؤول (اي ثار غضبه) جدا ، وساء هذا الكلام في عينيه ـ صموئيل الاول ١٨ : ٦ ـ ٨ » .

ورغبة من شاؤول في التخلص من داوود على يد الفلسطينيين . طلب منه مهرا لابنته مئة غلفة (الجزء المقتطع بعد عملية الختان) منهم . وداوود الذي يتحلى بكل صفات البطولة الاسطورية لا يعجزه ذلك : « حتى قام داوود وذهب هو ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتي رجل وأتى داوود بغلفهم فاكملوها لمصاهرة الملك فاعطاه شاؤول ميكال ابنته امرأة . صموئيل الاول ١٨ : ٢٧ » .

وتنتهي هذه القصة بهروب داوود من وجه الملك الى اعدائه الفلسطينيين بعد ان شعر بالمكائد التي اعدها له شاؤول .

أخلاق ملك اسرائيل :

من يقرأ صموئيل الاول والثاني يطلع على النفسية الاسرائيلية المتجسدة حاليا في شخصي الزعامة الصهيونية مناحيم بيغن واريل شارون . اصبح داوود ملكا على جميع القبائل الاسرائيلية وجعلها مملكة قوية مهيبة الجانب بالغدر والخداع والمكر فقد دبر مقتل شاؤول وقائد جنده والملك الجديد ابن شاؤول . ثم اقام المناحات والاضرحة الفخمة لضحاياه . وغنى داوود اجمل مراثيه الشعرية لمن اغتالهم غدرا واشترط داوود على قائد جند شاؤول الذي عرض عليه خيانة ملكه ان تقدم له

ميكال ابنة الملك زوجة له كبرهان على صدق اخلاصه له وخيانته لملكه. فاختطفها هذا الاخير من أحضان زوجها(٣) .

« فارسل ابنير (قائد جيش شاؤول) من فوره رسلا الى داوود قائلا لمن هذه الارض . يقولون اقطع عهدك معي وهو ذا يدي معك لرد جميع اسرائيل اليك . فقال حسنا انا اقطع معك عهدا الا اني اطلب منك أمرا واحدا وهو ان لا ترى وجهي ما لم تأت اولا بميكال بنت شاؤول حين تأتي لترى وجهي . فارسل ايشبوست (ابن شاؤول)واخذها من عند رجلها ـ وكان رجلها يسير معها ويبكي وراءها ، صموئيل الاول ٣ : ١٣ ـ ١٦ » .

ولن تكون هذه المرة الاولى والاخيرة للملك صهيون في خطف النساء المتزوجات رغم كل ما يملكه من مئات الجواري والسراري في قصره ولا يتورع هذا الملك التقي الذي يتكلم يهوه ـ رب اسرائيل ـ بلسانه من قتل احد جنوده الاوفياء ليحظى بزوجته الفاتنة ويجعلها تحمل منه سفاحا وهو الذي يقضي في بني اسرائيل باسم الرب .

« وكان في وقت المساء ان داوود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدا ... فارسل داوود رسلا واخذها فدخلت اليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت الى بيتها . وحبلت المرأة فأرسلت واخبرت داوود وقالت اني حبلى » وتنتهي الرواية بمقتل اوريا الحثي « فلما سمعت امرأة اوريا انه مات رجلها ندبت بعلها ولما مضت المناحة ارسل داوود وضمها الى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا . صموئيل الثاني : ١١ » هذا هو رجل الرب داوود الذي يرقص فرحا بادخال تابوت الرب الى مدينته وكانت ميكال ابنة شاؤول تعرف رجل الله داوود جيدا « ولما دخل تابوت الرب مدينة داوود اشرفت ميكال بنت شاؤول من الكوة ورأت الملك داوود يطفر ويرقص أمام الرب فاحتقرته في قلبها . صموئيل الثاني ٦ » .

اخلاق الابناء من اخلاق الآباء :

ليس غريبا ان يعتدي داوود الملك ، داوود الرب ، داوود الراعي لبني اسرائيل على حرمة النساء المحصنات ويختطفهم من احضان ازواجهم وهو القدوة والمثل والرمز « لشعب الله المختار » ليس غريبا ان يكون نسله اكثر تطرفا واكثر مجونا واكثر عبثا بالمحرمات .

عشق امنون بن داوود ـ اخته ثامارا ووصل العشق به حد المرض . وعندما علم بامره احد حكماء اليهود الاذكياء اشار عليه بحيلة يتمكن من خلالها من مضاجعة اخته ونجحت الحيلة وتمكن امنون من ان يقضي من اخته وطرا . وينتقم اخوها الثاني ابشالوم لشرفها بقتل اخيه غيلة ويحزن داوود ويغضب لمقتل ولي عهده امنون .

داوود ملك اسرائيل في التوراة فقط :

عبثا يحاول كل من يجهد نفسه في البحث عن شخصية الملك داوود تاريخيا خارج اطار نصوص العهد القديم اذ لا توجد اية وثيقة تاريخية تساعدنا على رسم ملامح هذه الشخصية . فنصوص العهد القديم ذاتها تتضارب فيما بينها ولا تعطينا صورة واضحة .

فهل يا ترى كان داوود نبيا حقا الى جانب النبي ناثان الذي كان يعيش معه في القصر والذي وبخه على فعلته الشنعاء مع زوجة أوريا الحثي ؟ وهل يلوم نبي نبيا ؟ وهل يتواجد نبيان في مكان واحد ؟ أم كان داوود كاهنا الى جانب عدد كبير من الكهنة ؟ أم قائدا لجيش الرب إله اسرائيل ؟ أم ملكا فقط ؟ أم جمع داوود كل هذه الميزات في شخص واحد ؟

ان احدا من المتخصصين في اللاهوت التوراتي لا يمكنه اقناعك باجابة واحدة . وقد اجمع المؤرخون غير التوراتيين على ان لفظة (داوود) ليست إسما علما في حد ذاتها بل صفة غلبت الاسم بعد ان لازمت هذه

الصفة صاحبها وطغت على الاسم الحقيقي وقد اطلق لفظ داوودم في نصوص مدينة ماري(٣) على رئيس مجموعة من الجنود المرتزقة ولم يذكر على الاطلاق كاسم علم .

تاريخ توراتي :

ان نصوص العهد القديم تجعل من اسرائيل في عهد داوود اكبر دولة في المنطقة الواقعة بين الامبراطوريتين الكبيرتين الآشورية والمصرية . فبعد ان جعل داوود القدس(٤) عاصمة للمملكة المتحدة (يهوذا واسرائيل) امتد بنفوذه حتى وصل اطراف الفرات واخضع الحكام الآراميين في صور ودمشق وحماة وجعلهم اتباعا له يقدمون له الجزية .

أليس غريبا عدم ذكر داوود الملك العظيم في اية وثيقة من الوثائق المكتشفة سواء في مصر او في بلاد الرافدين ؟ واذا قبلنا التفسير القائل بان مصر كانت في عصره منشغلة بالاصلاح الديني وتنازع الأسرة الحاكمة فيما بينها (الأسرة الحادية والعشرين) وضعف بابل بعد حكم الغرباء (الكشيون) وعدم ظهور سلطة قوية في آشور وآسيا الصغرى بعد سقوط الدولة الحثية ـ اذا قبلنا بكل هذا ـ فكيف نعلل ذكر اسماء الحكام الصغار في صور وحماة ودمشق الذين هم اقل شأنا من داوود ملك اسرائيل العظيم ؟

واسرائيل اليوم اكثر تحرقا من اي يوم مضى للكشف عن حصن صهيون واسوار القدس القديمة والقدس الآن بين ايديها . فاين المكتشفات المذهلة التي تزيح الستار عن مؤسس صهيون واسرائيل الكبرى ؟ منذ أكثر من نصف قرن مضى والمحاولات جارية للتنقيب في القدس القديمة . وقد ظهرت كل المدنيات المتعاقبة على هذه المدينة الا مدينة داوود وعصر اللهم الا اذا عاش داورد الملك وشعبه تحت الخيام وترك السكن المبني لاهل المدينة الاصلاء !!

الصهيونية اليوم :

اعتمدت الصهيونية وما زالت تعتمد في بث ايديولوجيتها العدوانية ذات النزعة العنصرية الفاشية ، على كتب التوراة ، وخاصة على ما يسمى بأسفار العهد القديم ، مستغلة في ذلك التعاطف الديني العاطفي لجميع المتدينين في العالم المسيحي والاسلامي .

وقد ساعدهم في ذلك عدم وجود فكر نقدي موضوعي لتبيان مزاعم الفكر اليهودي المتجسد في الحركة الصهيونية اليوم .

وقد عمموا مزاعمهم على العالم كله باصالة الفكر اليهودي وعراقته الممتدة الى جذور التاريخ ، لفترة غير قصيرة وكان ذلك بتسييس مباشر او غير مباشر من قبل الدعاة الى الفكر الديني اللاهوتي . واتخذ هذا التسييس اشكالا متعددة واسماء مختلفة لمضمون واحد هو الفكر التوراتي .

لقد اراد اقطاب الفكر اليهودي منذ زمن بعيد أن يبتدعوا مسيحا على هو اهم على غرار مناحيم بيغن واريل شارون ، وسيفا مسلطا على رقاب الشعوب أو ملكا متوجا على عرش ، يقهرون به الامم او زعيما لا نبيا يقتل وينهب ويستلب الاراضي من مالكيها دون حق ويغتصب النساء المحصنات . وباختصار ملكا دنيويا يقود « شعب الله المختار » على جثث بني الانسان .

ولكن فقد جاء المسيح بروحانية مغايرة لمادية الفكر اليهودي وهذا عكس ما كانوا يتصورون .

وبمجيئه عاد الوجه الحضاري المشرق للمنطقة العربية مهد حضارة الانسان .

جاء المسيح مسيحيا لا يهوديا فاستقطب الانسان كائنا من كان ، آشوريا وبابليا وكنعانيا وآراميا ويونانيا ورومانيا . جاء المسيح ليعيد اصالة الفكر الحضاري للانسان ولم يأت زعيما لعشيرة او شيخا لقبيلة او ملكا يتبعه الباحثون عن مجد ارضي .

وانتصر مسيح السلام بحضارة الشرق العريقة اقدم مدنيات التاريخ. الا ان القتلة ، أسلاف بيغن وشارون صلبوه وقتلوه انتصارا للشيطان ولفكرهم ذي الأفق المحدود(٥) .

واستطاع دهاقنة التوراة ان يؤثروا في كثير من معتقداتنا وذلك في بث واشاعة الفتن الفكرية وطمس معالمنا الحضارية عبر شروحهم التلمودية وتفسيراتهم التوراتية التي لم تزل تعيش في ادبنا الشعبي حتى هذا اليوم .

لقد اساؤوا الى جوهر الاصالة الفكرية لحضارة الوطن العربي . وما الفكر المشوش الذي نشهده اليوم الا نتاج العقلية اليهودية الحقودة .

انهم ينتقمون الآن من صارغون وسنحاريب ونبوخذ نصر والمسيح ومحمد بسيف يهوه رب الجنود ، الرب القاتل . فكانت مجازر صبرا وشاتيلا . ومن يدري اين سيحلون بتابوت يهوه هذه المرة بعد صور وصيدا وبيروت ؟ والى اي مكان سيتقدم هذا التابوت احدث اجهزتهم الاميركية المدمرة الحاصدة لكل ذي نسمة من انسان وحيوان ونبات .

واذا كنا نعتمد اليوم على التاريخ لنشرح مقومات حضارتنا وأسس فكرنا القومي الانساني فلأنه لدينا ما يثبت ذلك عبر الوثائق والشواهد التي خلفها لنا الاجداد على صفحات التاريخ المقروء والمنظور . ففي التاريخ المقروء هناك مكتبات تعود الى الألف الثالث والثاني والأول ق . م (مكتبات إبلا وماري واوغاريت ونينوى) . اما التاريخ المنظور فتشهد به

متاحف العالم التي عبث من كنوزنا ما يفوق الوصف . إن أعمال التنقيب التي تجري في أرجاء الوطن العربي تثبت كل يوم بالدليل المادي المحسوس والقاطع اصالة هذه الأمة وعراقتها ومكانتها في التاريخ .

ولا نغالي ابدا اذا قلنا مع هيرودوت أبي التاريخ « ان الضوء مصدره الشرق » .

اما اعداء الامة العربية من صهاينة وتتار فليس لديهم تاريخ مادي محسوس ، وعبثا يحاول هؤلاء ان يجدوا عبر التنقيبات الاثرية ما يثبت ادعاءاتهم التوراتية وشروحهم التلمودية . ولقد صاغت حفنة من كهنتهم الحاقدين الذين تواجدوا في بابل خلال سبيهم تاريخهم . وبثت في هـذا التاريخ الفكر اليهودي الناقم على الأمم تبكي فيه أمجاد صهيون ـ امجاد داوود وسليمان ـ .

وتحت ضربة كل معول ورفش تتكشف اصالة الحضارة العربيـة وينزوي الفكر اليهودي التوراتي المقنع بلبوس الكهنوت داخل تابوت يهوه في الكنيست الاسرائيلي . فيتعرى أمام الامم ويظهر زيف حقيقته .

الحواشـي :

(١) إريدو : احدى اهم المدن الحضارية في جنوب العراق كشفت اعمال التنقيب فيها ١٩ طبقة سكنية يعود اقدمها الى الالف الخامس ق . م .

(٢) ميكال ابنة شاؤول التي تزوجها داوود بمئتي غلفة من الفلسطينيين نجدها في هـذه الرواية زوجة لرجل آخر غير داوود .

(٣) ماري ـ تل الحريري ـ بالقرب من البوكمال على الحدود العراقية كشفت التنقيبات فيها عن أكثر من عشرين الف رقيم كتابي .

(٤) ذكرت القدس في نصوص اللغة المصرية من بداية الالف الثاني ق.م كما ذكرت في نصوص تل العمارنة في النصف الثاني من الألف الثاني ق . م وكانت عاصمة لعبدي حيبا احد الأمراء الكنعانيين .

(٥) سواء صلب المسيح أو لم يصلب فان نية الصلب كانت موجودة واختفى بسببها السيد المسيح من على الأرض .

اعتمد البحث على المراجع التالية :

١ ـ مرغريت سوزمان : شرح الشخصيات التوراتية زوريخ ١٩٥٥ .

٢ ـ فولفرام فون زودن : عالم الشرق المجلد ١ الجزء الثالث ١٩ .

٣ ـ مارتن نوت : عالم العهد القديم .

٤ ـ ادوارد ماير : نشوء اليهودية ١٨٩٦ .

٥ ـ هـ . فيلربش : تزييف الوثائق في المراجع اليهودية الهلنستية ١٩٢٤ .

٦ ـ مجموعة من المؤلفين : موسوعة الكتاب المقدس . ميونيخ ١٩٧٢ .

٧ ـ سلسلة فيشر الالمانية : امبراطوريات الشرق القديم ـ الجزء الثالث . فرانكفورت أم ماين ١٩٦٧ .

مطالعات

قصيدة الطين

د. نذير العظمة

صدر للشاعر محمد عمران عن وزارة الثقافة والارشاد القومي مجموعته الشعرية السابعة بعنوان « قصيدة الطين » (١٦٦) صفحة من القطع الصغير وهي عبارة عن سبع وثمانين مقطوعة في مناخ قصيدة واحدة .

ومحمد عمران من شعراء الحداثة المتمرسين بأساليب القصيدة العربية في أشكالها المتنوعة وان كان يؤكد باصرار في (قصيدة الطين ، ومن قبلها (الملاجة) على قصيدة النثر .

ومضمون كلا المجموعتين هو العشق ، العشق للأرض في الملاجة والعشق للجسد في قصيدة الطين ، انهما نبض واحد في ايقاعين مختلفين .

الملاجة تعبر عن ايقاع الأرض في ذات الانسان وقصيدة الطين تعبر عن ايقاعات الجسد ، والحب هو وحدة الايقاعين في الأرض والجسد .

والارض هي رحم الحب في كلا العملين ، يختلج به جسد العاشقين وتتحرك روحهما . انه الشمس التي تشرق في رونق الجسد وحمرة الطين .

انه الكلمة القصيدة التي تخرج من القلب لا الحنجرة .

يقول الشاعر في اول مقطوعة من قصيدة الطين :

كانت الأرض حجراً
خرج اسمك من الحجر
وردة أحرف ملونة
. . .
. . .
هطلت تفاحة على الحجر
فتحول الى كلمة
وكان ذلك البدء .

إلا ان الشاعر لا يكتفي « بوردة الاحرف الملونة » التي تخرج من الحجر ، وحبذا لو فعل ، بل انه يتوسع فيها بالتشكيل لا الوصف :

بنت للحرف جناحان
انتشر الريش الأرجواني في صمت
الهواء
صار غمائم ،
وأقواس قزح
وأغصان مطر خضراء

ثم يقفل القصيدة بما يشبه التدوير بالعودة الى الحجر والثقافة المقابلين للحجر والاسم في اول القصيدة .

هكذا اقرأ القصيدة كما ثبتها على الورق في المفتتح ، من « كانت الأرض حجراً » الى « وكان ذلك البدر » واستغني عن التشكيل « ينبت للحرف جناحان » بالوثب والنبض والكثافة المركزة في الاسم والحجر في الحجر والتفاحة .

إيقاعات التشكيل عند الشاعر تدخل الجسد جسد الحبيبة في الطبيعة فيمر الحجر اسما والاسم تفاحة ينبثق منهما الأول والبدء .

وتبطل الكلمات ان تكون كلمات في المقطوعة الواحدة ، وتتحول الى رموز شفافة : الحجر ، الاسم ، التفاحة ، انها رموز كما هي كلمات تتداخل إشعاعاتها بعضها في بعض ، ولروحها امتدادات . فالحجر والسقوط والتفاحة والاسم تتداخل في مناخ القصيدة كما في رحم التجربة وتشع بالوجود والشهوة والخطيئة .

فعدة الشاعر في المقطوعة كما هي في القصيدة ككل ، ليست الكلمات بذاتها بل امتداداتها ونبضها ، الوانها وظلالها المتداخلة وهذه هي روح الشعر الحق : خلق جديد للغة من نبض التجربة الانسانية ، فالكلمات غير الكلمات في المتعارف والقاموس والعلاقات غير العلاقات واذا كان النحو يعكس لنا وظائف الكلمات وعلاقاتها بعضها مع بعض في امتدادها الأفقي فالشعر يرينا ابعادها الممتدة في العمق المشعة في بشرة العبادة المتكونة تكونا جديدا في رونق بهي .

والشاعر حين يخاطب الحبيبة ، تظن انه يخاطب الملاجة او حين يخاطب الملاجة تظن انه يخاطب الحبيبة . فامتدادات الكلمات لا تختص بالكلمة المفردة بل تستوعب صيغ الخطاب الشعري فيلتبس في الكلمة

المفردة النبض بالظل ، والظل بالنبـض ، كما تلتبس صيـغ الخطاب الشعري ، ويمنح الشاعر القارىء فرصة التخمين والكشف عن خفاياه التي لا يحددها بل يقتطعها من قلبه نسيجا فيه النبض والدم والالق ، يترك للقارىء أن يتعاطى معها كما يتعاطى مع الشجرة والسنبلة يتفيأ ويدرك الحكمة والبساطة في علاقة البذرة بالثمرة والصورة بالحبة .

والجسد في مملكة محمد عمران يتناول « خبزه الاشهى على مائدة الموت » « والخبز زهرة ناحلة بيضاء وادعة تحمل مزمارها على شفة حجر أو جمرة » ويتساءل الشاعر « هل يمسك الحب الطين ؟ » ويصلي في القلب « اخرجنا من ملكوتك الاسود آمين » . ويتلفت حوله فلا يرى غير الدم والعنف الذي يصبغ زهرة الخبز الناحلة كما يصبغ أعتاب الجسد ويطرد الحب والأطفال والقصائد :

دم على الأشجار
اين تهدل الحمائم ؟
دم على الزهـر
اين يجتني عسله النحل ؟
دم على الأعشاب
اين ترعى الماشية ؟
دم في الحدائق
اين يلعب الأطفال ؟
دم على اعتاب الجسد ونوافذه
على سريره ومائدته
اين ياوي الحب الراجع من الحقول ؟
اين تتناول خبزها القصائد ؟

(ص ٣٢)

وكل مقطوعة في المجموعة تتكشف عن حالة ، والشاعر لا يقف مكتوف اليدين حيال العنف والدم اللذين يصبغان العالم كما رأينا في المقطوعة السابقة بل يحسم أمر العنف بالحب وطمأنينة التراب الذي يثق بالمواسم الآتية فالارض امتلأت جثثا ، لا وقت للتوابيت ما زال بي تراب يغني (ص ٣٣ — ٣٤) .

يتوحد العاشقان الشاعر والحبيبة بكل مظاهر الكون :

نتقدم بلا أسلحة
نحو الجسد النائم على الينابيع
ينهض ،
ويفتح لنا الجهات
فندخل ،
ونجلس في وردة الشمس
بين الكواكب الآمنة . (ص — ٤٠)

ويصير الشاعر مرآة تدخله الوجوه العاشقة ، ويصير نهرا ويصير مدارا يتوحد فيه كل شيء بالحب ويصير المتعدد واحدا .

أصير مدارا
يدخلني كوكب التراب
ولا يخرج
وأصير ترابا
تتغلغل فيَّ كواكب الجذور
قلبي ،
متهيئاً للانبات ،
يحمل أسرار خصبه
ويبكي من الفرح . (ص — ٤٤) .

وهكذا تتداخل مظاهر الكون في فرح الوحدة الصوفي فجسد الحبيبة شجرة في تفتح الموت والملاجة خبز الحب والموت في « جسدين من خضرة » (ص ــ ٥٤) .

والشاعر عـراف الظل عراف الشجر الذي لا يصلـح للتوابيت . (ص ــ ٥٦) .

يخيل الي ان الشاعر الاتباعي دائما يكتب نفس القصيدة ،الموضوع متغير والشكل ثابت وهذه هي مأساة الكلاسيكية . اما الشعر الحديث القائم على كسر النموذج والبحث عن شكل ينبع من المضمون فتتنوع اشكال قصائده بتنوع المضامين فهو دائما يكتب قصيدة جديدة .

ومما يقيد الكلاسية في الشعر هي انها لاتتخلى عن زخرف القصيدة وعمودها الفقري ، اعني بذلك القافية والوزن فالهيكل العظمي للقصيدة جاهز وما على الشاعر الا ان يكسوه الدم واللحم والبشرة .

الا ان الكلاسيين العظام تبتدى عندهم القصيدة لا من الشكل بل من النبض الذي يختار ايقاع القصيدة وشكلها . ومع ذلك هم مقيدون بالاوزان الخليلية وانساق القوافي الذي في كثرة ماتداولتـه القرائـح الشعرية اصبح باليا ، رثا . من هنا كانت ضرورة التحرر من القافية ومن هنا كانت ضرورة الخروج على الوزن عند شعراء الحداثة ، وهذاالخروج لم يتم مرة واحدة فقد جرب الشعراء صيغا شعرية كثيرة واشكالا شتى للقصيدة لكنهم فضلوا ان يخرجوا من مطلق العبودية عبودية الاوزان والقوافي الى مطلق الحرية منهما كلية والخروج الى ايقاع كيفي لايقاس ولا يوزن ولا يمت بصلة الى الايقاع الكمي الذي توارثناه عن السـلف .

حتى اللغة اصبحت مع الشاعر الحديث شيئا آخر والشاعر ليس شاعرا ان لم يبدع نحوا جديدا وبلاغة جديدة اي لغة شعرية جديدة تتنكر للغة الشعرية القديمة وتنتسب اليها في آن .

وعليه فمفهوم الشاعر الحديث للابداع قائم على هدم القديم وبناؤه بناء جديدا متصل الشرايين بالحاضر ومعاناة الشاعر الانسانية ، فاللغة الشعرية على هذا ليست مأثورا موروثا انها بدعة مبتكرة .

وتضج الشكوى من الشعر والشعراء لا من اندادهم فحسب بل من انفسهم واترابهم لانهم طالما يكتبون صدورا من التجربة فلا اتفاق اذن على مأثور يعبر عن مضمون الحاضر ، على الحاضر ان يخلق مأثوره ولغته .

ومحمد عمران يعبر عن مشكلته مع اللغة في اكثر من قصيدة ولا شيء يخرجه من يباس اللغة غير جسد الحبيبة ووجها الطفل :

انا عراف الشجر الواقف
وكواكبي لا تشرف على
الموتى (ص ٥٦)

ولا شيء اكثر عذوبة من اسعارة الماء للغة ، قديما استعاره المتنبي ، وكذلك يفعل محمد عمران لكن الافواه المريضة تخرج من حلة الوزن والصيغة المفردة في بيت المتنبي الى الجمع في مقطوعة عمران ، والماء هو الماء . يقول المتنبي :

ومن يك ذا فم مر مريض ... يرى مرا به الماء الزلالا

يقول محمد عمران :

مياهي القصية
باردة
وعذبة
تتقطر في افواه الجرار

بين الماء المنبجس من ضمير الجبل
وماء الطمي
ما لا تعرف الافواه المريضة
الجرار ، وحدها ، تدرك مسافة
العذوبة بين الماءين
لفتي لتلك الجرار .

والخطاب في كلا القصيدتين موجه الى هؤلاء الذين يعيبون الشعر على الشاعر ، وكلا الشاعرين يلجأ الى المقابلة بين امرين في وضع غير طبيعي الا ان المتنبي يعتمد على المنطق الصوري الارسطي وعمران يركن الى التداعي النفسي في مجال فولكلوري .

الماء الزلال مر في فم المريض والفرق بين الماء المنبجس من ضمير الجبل وماء الطمي لاتعرفه الافواه المريضة ، الجرار وحدها تدرك مسافة العذوبة بين الماءين .

يقول عمران :

لغتي قصية ،
لا غامضة
وهذا زمن البرك
لا الينابيع

(ص ٥٦)

انه يرد عن نفسه وعن شعره تهمة الغموض ويقابل بين الموروث من ماء البرك والمبتدع المبتكر من الينابيع ذات الماء القصي لا الغامض .

ويصيح الشاعر بأعلى صوته :

لغتي لتلك الجرار . (ص ٥٨)

لغتي للنوافذ ، لا للجدران . (ص ٦٥)

انه ينتمي « للغة التي تتنفس في الشمس »

هاربا من المنافي ، احمل لغتي

الى جسدك الاهلي

الـد قصائدي الانية

نبـاتـات

اهـز لها سرير المـاء

هنا في الشهوة الشاسعة ،

اصغ الواني

ارسـم

غد الرجل والمراة ـ النهاز

الاخضـر

لفراشة الانسان .

اللغة الشعرية في قصيدة الطين تنضح من الجسد « هذا البيت من قمح ونبيذ » في دولة الحلم :

آه ،

انـا احلـم

ما الذي يجعل كواكبك ترتجف

مثـل شجرة !

الحلم اهتزازات في المخيلة ، الكواكب اهتزازات في العين الشجرة اهتزازات في العين والبشرة فالشاعر يتدرج من الخفي الى الظاهر لكن لا شيء خارج الجسد الذي يصعد اللهب كله ولا يحترق .

يفص الجسد بالجسد وتنفتح الخزائن وتمتلىء عروق اللغة بالدم الجبلي الذي يفوح برائحة الاحراج ، فلا حرج على الشاعر ان خرج من ماء الطمي الى الماء الخارج من ضمير الجبل ولا حرج عليه من مجرى قصي غير غامض تدرك عذوبته الجرار التي تنتظر فراشة الانسان وتبشر به .

وحين يخرج الشاعر من ايقاع القديم ووزنه لا يخرج الى حالة انعدام الوزن بل يبتكر ايقاع الكيف لا الكم الذي يحس ولا يقاس ، له صيغ لا وحدة لها ولا تفعيلة

انظر في المقطوعة التالية بل اصغ الى صيغ النداء التي تسيل موسيقى بلا تفاعيل عن الجسد الذي يحمل حقوله الشاسعة الى بيدر الموت في ايقاعات متقابلة ليس لها وحدة .

لماذا ترقص اشجارك ، ايها الجسد
في حضرة الحب ؟

ايها المستوحش
يا ينبوع الكآبة
الاليف كيمامة
المذعور كسنجاني ،
يا شاطىء آخر الليل
الوديع
الصعب
يا آنية البلور والحجر

ايهـا الجسـد !
متعمرا بالحـب
تحمل حقولك الشاسعة
الى بيـدر المـوت .
(ص ٧٢ ــ ٧٣)

ولندرك جمال اللغة القصية التي يشير اليها محمد عمران ما علينا الا ان ندخل مع الشاعر الى ملكوته ، لا ان نفرض عليـه ملكوتا ولغـة موروثتين ، ونطلب منه ومن الاخرين أن يتكلموا اللغة الشعرية نفسـها كأنما الشعر عملة واحدة تطبع في مكنة واحدة ، النموذج سلفي متفـق عليـه ومفهوم الشعر وصورته لا تتغير ولا تتبدل ، بتغير الازمان والمكان وتغـير الانسـان . تتغير اللحظة ، يتغير الجسد ، تتغير التجربة ، تتغير اللغة ويتغير الشعر والفرق بين ماء الطمي وماء الجبل هو الضمير والعذوبة فلندخل مع الشاعر مقصورة النسغ ولنتناول الاسرار :

وادخل مقصورة النسـغ
حيث الجـذور تتعرى على سريرها
وتدعوني
مشتعلا بالمرايـا
يرى جسدي نفســه في حضرة التراب
ويد ، ام حلمة ، لا يذكر
تناوله
الاسرار
(ص ٧٤ ــ ٧٥)

آنذاك ، يا حبيبتي ، تشهد يدي
المنابـع القصية

لأقاليم الريـح والمطـر
حيث المـوت والحيـاة
يتعانقـان
في سريـر واحـد

(ص ٧٧)

والذي يوحد الحياة والموت في سرير واحد هو الذي يوحد جسد الحبيبة ونبض الملاجة . الحب وحده سيد العذوبة وحده النبضة الاولى التي تحيل الجسد ملاجة والملاجة جسدا ، وحده يجعل الجسد لغة واللغة جسدا نراه ونشمه نسمعه ونتحسسه ونقفز اليه بالحدس مـن مفارق الحواس فيتوحد الانسان بالطبيعة والطبيعة في الانسان مـن خـلال الجسـد :

واذ ، على يدي ، ينسكب شعرك
يجري في أصابعي الضوء
والشـجر
والمـاء
والحنطة

اشم الشيح الجبلي
والزعتـر
ورائحـة الدموع المعتقة
والنبيـذ

واسمع نبض الملاجـة
يسيل بين الاصبع والاصبع
اخضر ، متدفقا بالاطفال
والقبـلات

تصير اصابعي طرقات تمشي
الى النبضة الاولى
في قلب الملاجة
تصير يدي
مفارق للانباض

(ص ٧٨ – ٧٩)

الذين يبحثون عن القافية والوزن في مثل هذا الشعر لا يزالون يتعاطون مع الشعر بآذانهم لا بقلوبهم ، حين تكون كل الحواس منبهة ومفتوحة بالوجد الذي يوحد الارض بالحبيبة والحبيبة بالارض علينا ان تكسر عكازة الايقاع ونحمل الشعر صولجان الحواس التي تتوهج بشعلة الحب الذي يحول الجسد لغة واللغة جسدا .

عمران في قصيدة الطين لم يشف من عشق الملاجة رغم انه اختصها بمجموعة شعرية ، الملاجة تطارده بالتداعي : فانا جسد الحبيبة هي ، وانا هي ؛ جسد الحبيبة ، وهكذا يختلط حب الارض بالجسد وحب الجسد بالارض في نزعة صوفية تلعب فيها الحواس الجمالية الدور الاكبر فيلتبس الامر على القارىء هذا الالتباس الحلو ، فمرة يلبس الكلام الحبيبة ومرة يلبس الملاجة وعلى حين يخيل الى القارىء انه يخاطب الحبيبة تقفز الملاجة فجأة بحضورها الغامض البهي فكأن كليهما : الملاجة والحبيبة علامة الاخر واشارته السرية :

من أين لشعرك هذه الاسرار كلها
هذا الحزن الذي يجري من أول الماء
هذا الماء الذي يجري من اول التراب
هذا التراب الذي من اول الضوء
يدي ، التي انفمرت ،

تغوص في الطينة الاولى
في النسيج الخفي
حيث زهرة الحلم تغزل
تكوين الملاجة

ص (٨٣)

فالشاعر يستعين بالعناصر : الماء والتراب والضوء على الحياة ليغزل صورة الجسد بمغزل الحواس .

وينتقل الشاعر من صوت الحبيبة الى وجهها الى جسدها ، يتكلم عن الشعر والعينين عن نكهة الصوت برمزية صوفية تذكرنا بمبدأ مقابلات الحواس عند الرمزيين بودلير واترابه ، فالصوت ليس سمعا فحسب انه صور ورؤى بعضها يتسلل الى النفس عبر العين وبعضها عبر الذوق ، وتتداخل الحواس تداخلا حلوا يغني القصيدة ويدل على وحدة الطبيعة والنفس الانسانيتين في تجربة الشاعر :

أخيرا ، الصيف
وصوتك الذي نزل من غمامة
وسكن نبض عنقود
مبتلا بالالق العسلي
اتنشق في ظل سنديانة
حيث الخضرة تعلق قمصانها
على النهار
والنهار يرمي خفيه القصيتين
ويركض على عشب المساء
صوتك ، ايضا ، يلملم
رياحينه ، ويأوي الى حجر .

ص (٨٤)

انظر ايضا المقطوعات رقم (٣٧ — ٣٨ — ٣٩ — ٤٠ — ٤١ — ٤٢) حيث ايحاءات الصوت صوت الحبيبة تتلون بالحواس الاخرى بين وردة النحاس والذهب ورغيف الهواء الساخن واسراب اللفات المثقلة بالمناقير والعناقيد ووشم الغابات ونبيذ الصنوبر. والمخيلة الشعرية الفنيةبالصور المتقابلة في هذه المقطوعات تعطينا شعرا من اجمل ما يقرأ عن الصوت في شعر الحداثة .

وهكذا فالشاعر يتكلم كالرمزيين وما هو بالرمزي عن الصوت مـن خلال العين وعن الرائحة من خلال الطعم وعن المرئي من خلال المشمـوم والملوس في شعر للحب . يقصر عنه الغزل التقليدي الذي لا يزال زخرف الحس بينما يتوغل بنا محمد عمران في الوجدان وفي النفس الانسانية من خلال جمالية الجسد وايحاءاته ومؤثراته في مخيلة الشاعر التي تقـرن الطبيعة بالجسد والجسد بالطبيعة في صور مبدعة .

ومخيلة الشاعر عمران الابداعية رغم اعتمادها على الدفق الشعري من الداخل الا ان الفنان في الشاعر يبني من هذا الدفق صورة كليـة للحب والارض للجسد والنفس للطبيعة والوجدان ، والقصائد التـي يمكن ان يستشهد بها على ابداع المخيلة الشعرية في المجموعة عديـدة نكتفي منهـا بالتالية .

سالتني الارض قميصـا
فاشرت الـى جسدك
كان معلقـا في الدهشـة
على شـجرة حمـراء
لبسـته ،
وخلعتـه
سالتني آخـر
اشـرت الى جسـدي

كان منشورا على الظلمة
بين الشهوة والمـوت

لبسـتـه
وخلعتـه
سالتني آخـر
لم اجد ما أشير اليه
وتركت صدرهـا
يمـوت مـن البـرد
(ص ١٤٠ ـ ١٤١)

انظر ايضا مقطوعة رقم ٣٢ التي استشهدنا بها في مكان اخر من هذه المقالة . والصور المتوهجة المضيئة لهذا الابداع التخيلي اكثر مـن ان تحصى... مسافران في الماء والضوء مسافران في الولادة(ص١٠٥) لا ايقاع لنا نحن الخطا التي تصنع ايقاع الطريق (ص ١٠٦) ولا طريق الى الجبل سوى ما تفتح اقدامنا العارية (١٠٧) ومقطوعة رقم (٥٢) عن الصخرة التي تصير مرآة . ومقطوعة (٥٥) التي نود ان نثبتها كلها لولا ضيق المكان وتتكلم عن الليل بصورة تخيبلية تذكرنا بليل امرىء القيس ولكنه تخييل آخر يصح ان يكون نموذجا من نماذج الحداثة في الوصف . ومقطوعـة (٧١) لاتزال مذهولة بوهج الجسد ذهول مقطوعة (٧٤) بوهج الارض . وتتحول المقطوعات الى صلوات تفوح بعبق الحب والارض والايماءات القصية كما في الخاتمة مقطوعة رقم (٨٧) :

استطيع القول ان الشعر عندنا بخير لكن مفهوم الشعر قد تغير كما تغير الانسان والزمان ، فالنقد الفوقي الذي يريد من الشعراء أن يكتبوا بطريقة واحـدة هو نقد جاهل وغبي .

وان ندخل الى مملكة الشاعر بمعايير سلفية وفوقية ــ نحمل مسطرة نظن اننا بها نقيس الشعر يعني هذا اننا نريد أن نذبح الشاعر لا أن نقيمه.

وخير وسيلة للتقييم هي الاستقراء استقراء المادة الشعرية بأمانة ومعرفة وذوق حتى نستطيع الخروج منها بنتيجة لا بأحكام نطبقها على مادة شعرية اخرى .

وبهذا المعنى لكل شاعر مملكة وعلينا ان ندخل ملكوت الشاعر بخطانا لا بخطا الاخرين .

والمحبة ضرورية للنقد والناقد المسلح بالكراهية لا يمكن أن يضيف شيئا على النقد .

لشعر عمران إن في « الملاجة » أو في قصيدة الطين « قدرة ممتازة على التوصيل فالخبرة الشعرية والمعاناة لا تظل في قفص القصيدة بل تمر الى وجدان الاخر .

لكن مفهوم عمران الشعري يمكن ان يثير الجدل والذين يتجاوزون عملية الاستقراء الى جدل المفاهيم وحدها لا يريدون ان يقرؤوا .

لقد أضاف محمد عمران غزلا جديدا على شعر الحب عندنا رغم اختلاف المفاهيم الشعرية . مفارق الحواس هي طريق مخيلته الشعرية المبدعة انه لا يدغدغ احاسيسنا بل يثير الوجدان والنفس ويجعلنابالحس ندرك اننا جزء من كل جمالي هو الجسد / الارض والارض الجسد .

قد لا تسعفه اللفظة المفردة احيانا كما في استخدامه لفظة «الشساعة» الا ان الصورة الكلية تستجيب .

وقد تتمدد العبارة فتخل بوحدة التأثير فيضيف عناصر زائدة على الصورة الاساسية كما في المقطوعة الاولى التي اشرنا الى رغبتنا في كيف يجب أن تكون في مفتتح هذه المقالة ، الا ان هذا لا يتكرر فيمقطوعاتكثيرة .

وتظل المخيلة الشعرية مسيطرة تقرن الكثافة بالشفافية والصدق بالانفعال وهذا سر قدرة التوصيل لقصيدة الطين ومن قبلها الملاجة .

فلسفة الحياة عند جيم كرو

ريتشارد رايت
ترجمة أحمد محمد عطية

- ١ -

كان أول درس تلقيته في كيف اعيش كزنجي عندما كنت لا أزال صغيرا كنا نعيش في اركاناس . وكان منزلنا مقاما بجوار خطوط السكك الحديدية وكان فناؤه الضيق مغطى بقطع من بقايا الفحم الاسود . ولم ينم أي شيء أخضر في هذا الفناء . كانت اللمحة الوحيدة من الخضرة التي يمكننا رؤيتها بعيدا بجوار الخطوط الحديدية حيث تعيش عليها جماعات البيض. لكن بقايا الفحم كانت تكفيني للعبي ولم أمس ابدا تلك الاشياء الخضراء النامية . وعلى أي حال كانت بقايا الفحم تصلح كأسلحة خفيفة . ففي الامكان دائما شن حرب حامية رقيقة ببقايا الفحم السوداء الضخمة .

* مصطلح يقصد به النموذج الزنجي الامريكي المذل .

وما عليك الا ان تنحني بجوار اعمدة المنزل الحجرية وبداك ممتلئتان بحفنات من مسحوق الرصاص . وتفرغهما على اول راس ذات شعر اسود ناعم تراها ــ من جانب صف اخر من الاعمدة تجعلها درعك الواقي . لقد بذلت ما بوسعك لتنتصر . وكانت تسلية عظيمة .

ولم اتحقق بالمرة من مخاطر لعبة الفحم السيئة هذه حتى حدث ان وجدت ثلة من الاولاد ــ اصدقائي ــ وجدت نفسها مشتبكة في حرب مع الاولاد البيض الذين يعيشون بجوار الخطوط الحديدية وكالمعتاد صببنا سيلا من الفحم ظانين بأن ذلك سيطوح بالاولاد البيض بعيدا لكنهم قابلوه بمزيد من الزجاجات المكسورة . فضاعفنا من سيل فحمنا المنهمر لكنهم اختباوا بجوار الاشجار والاسوار وجسور احواضهم الخضراء المنحدرة . ونظرا لانه لم يكن لدينا مكان نحتمي به . فقد تقهقرنا الى اعمدة منازلنا الحجرية . وفي اثناء الانسحاب اصابتني زجاجة لبن مكسورة بجانب الاذن مسببة جرحا عميقا أخذ يدمى بغزارة واحدث منظر الدم المتدفق على وجهي اثرا سيئا في معنويتنا . فتركني زملائي في المعركة واقفا بلا حراك وسط الفناء وتناثروا متجهين الى منازلهم . وشاهدني جار طيب واسرع بي الى طبيب حاك لي ثلاث غرز في رقبتي .

جلست على اطراف قدمي . ممرضا جرحي ومنتظرا عودة امي من عملها واحسست بأن جورا خطيرا قد نالني ، لم يكن هناك شيء ضار في القاء قطع الفحم ، فاقصى ما تسببه قطع الفحم من اذى هو ان تخلف تورما . لكن الزجاجات المكسورة كانت خطيرة فهي تخلفك ممزقا ، داميا ، وفاقد الامل .

عندما هبط الليل . عادت امي من مطعم البيض . فاندفعت هابطا الى الشارع لاقابلها . وشعرت في اعماقي بانها ستفهم كل شيء . وكنت اعرف انها ستخبرني بالضبط بما يجب علي ان افعله بعدئذ . فتعلقت

بيدها وحكيت لها ـ بسذاجة ـ القصة بأكملها . ففحصت جرحي ثم صفعتني بكفها وسألتني :

ـ كيف لم تختبىء ؟ ما الذي اخرجك بعيدا لتتعارك ؟

كنت محطما واخذت اصرخ بأعلى صوتي . واخبرتها والرغاءيتصاعد حول فمي بأنه لم يكن لدي أشجار أو أسوار لاختبىء بجانبها . ولم يكن هناك شيء استطيع ان استخدمه كخندق . ولا يمكن ان تطوح بقذائفك بعيدا عندما تكون مختبئا بجوار اعمدة منزل حجرية . فاخذت غطاء برميل خشبي ودفعتني الى المنزل . واجلستني على ركبتي واوثقتني بحبل وظلت تضربني حتى انتابتني حمى بلغت درجتها اثنتين بعد المائة . وضربتني على مؤخرتي بغطاء البرميل وبينما كان جلدي لا يزال ينضح بالالم اخذت تقص علي نوادر « جيم كرو » (الزنجي المضطهد بين البيض) الحكيمة . فلم اكن ابدا ابدا لاتعارك مع البيض مرة ثانية ـ وتحت اية ظروف ـ وقد كانوا مصيبين تماما في قذفي بزجاجة اللبن المكسورة .

لم اكن اعلم بانها تعمل في مطاعم البيض الحارة لتحصل على نقود تعيننا على العناية بتربيتي ؟ الم اكن اذهب لاتعلم لاصبح ولدا ممتازا ؟ وقالت لي أنها لا تستطيع ان تقلق نفسها بمعاركي . وانهت نصائحها باخباري بأنني يجب ان اشكر الله طوال ما حييت على انهم لم يقتلوني .

وظللت اهذي طوال هذه الليلة ولم أستطع النوم . وكلما اغمضت عيني رأيت وجوها بيضاء قبيحة منبثقة من سقف الحجرة تحدق في بعيون شريرة .

وابتداء من هذا الوقت فصاعدا . اختفت جاذبية فناء منزلناالفحمي وصارت الاشجار الخضراء والاسوار المنسقة . والاحواض ذات الازهار المثمرة صارت مجرد علامة . وحتى اليوم عندما افكر في البيض اجد

الخطوط الحادة المحيطة بمنازل البيض محاطة بالاشجار واحواض الزهور والاسوار لا تزال راسخة بعض الشيء في قرارة عقلي ، وخلال السنين اخذت هذه الاشياء تنمو في دائرة مميزة من الخوف .

ومضى وقت طويل قبل ان اصبح على علاقة وثيقة مع البيض مرة ثانية . انتقلنا من اركاناس الى المسيسبي . وهنا أصبح لدينا حظ سعيد بالا نعيش بجوار خطوط السكك الحديدية او ملتصقين بجيران بيض . سكنا في قلب دائرة السود المحلية . كانت هناك كنائس للسود وقس أسود ومدرسون سود . وبقالون سود وموظفون سود . في الحقيقة كان كل شيء اسود تماما حتى انني لمدة طويلة لم افكر في البيض المسالمين في فترات طويلة قاسية . لكن هذا لم يكن من الممكن ان يستمر الى الابد . فكلما ينمو الانسان يأكل مزيدا من الطعام وتزداد تكاليف ملابسه . فعندما اكملت تعليمي المتوسط ، كان علي ان اذهب لاعمل . ولم تتاخر امي طويلا في تزويدي باحتياجاتي والباقي ، وهي في عملها بالمطبخ .

لا يوجد سوى مكان واحد حيث يستطيع الصبي الاسود الذي يعرف اية حرفة ، ان يجد عملا . وهذا يتوافر حيث المنازل والوجوه بيضاء حيث الاشجار واحواض الزهور والاسوار خضراء . كان عملي الاول في شركة لصناعة النظارات في جاكسون بالمسيسبي وفي صباح اليوم الذي طلبت فيه . وقفت مشدودا ونظيفا امام المدير مجيبا على كل اسئلته بكلمتين واضحتين : « نعم يا سيدي » « لا يا سيدي » وكنت حريصا على نطق « يا سيدي » بكل وضوح حتى يعرف انني مهذب وانني اعلم اين انا . كما اعلم انه رجل ابيض . واردت هذا العمل لدرجة سيئة .

وتفحصني كأنما كان يختبر كلبا انيقا مهدى اليه . وسألني بدقة عن دراستي وبمزيد من الدقة عن مقدار ما تعلمته من الحساب . وبدا مسرورا جدا عندما اخبرته بأنني تلقيت دروس الجبر لمدة سنتين .

سألني :

ـ يا غلام ، ما مدى حبك لمحاولة تعلم شيء مما يدور حولك هنا ؟

فاجبته بسعادة :

ـ انني لأحب ذلك كثيرا يا سيدي .

كانت لدي تخيلات في شق طريقي في الحياة فحتى الزنوج لهم تخيلاتهم !

قال :

ـ حسنا تعال .

فتبعته الى المصنع الصغير .

وقال لرجل ابيض في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره :

ـ « بيز » هذا « ريتشارد » انه سيعمل لحسابنا .

فنظر الى « بيز » واوما براسه .

واقتادني الى صبي ابيض في حوالي السابعة عشرة :

ـ « موري » هذا ريتشارد الذي سيعمل لحسابنا .

فاثنى عليّ موري قائلا :

ـ ماذا ترى في ذلك ياغلام .

اجبته :

ـ رائع .

واصدر المدير تعليماته الى هذين الاثنين ليساعداني ويعلماني ويعطياني اعمالا أؤديها ويتركاني اتعلم ما استطيع تعلمه في اوقات فراغي .

كان اجري خمسة دولارات في الاسبوع .

وعملت بجد محاولا ان احوز الرضى . ومنذ الشهر الاول وفقت في عملي تماما وبدا لي ان كلا من بيز وموري يحبانني لكن شيئا واحدا كان يضايقني . وظللت افكر فيه . فلم اكن اتعلم اي شيء ولم يتطوع احد لمساعدتي وعندما ظننت انهما نسيا ما يجب علي من تعلم بعض الشيء عن آلات صناعة المصابيح الزجاجية . سالت موري ذات يوم ان يحدثني عن العمل . فاحمر كيانه وسالني :

ــ ما الذي تريد ان تفعله ايها الزنجي كن مهذبا ؟

فقلت :

ــ انني الآن احاول ان اكون مهذبا .

ــ حسنا . لا تحاول . اذا كنت تعرف ما يفيدك .

كنت متحيرا . فبما لم يكن يريد ان يساعدني فقط كما اعتقدت فذهبت الى بيز .

سالني بيز وقد تصلبت عيناه الرماديتان :

ــ قل لي هل انت مجنون ايها اللقيط الاسود ؟

فتحدثت مذكرا اياه بما قاله المدير من انه يجب منحي فرصة لاتعلم بعض الشيء .

ــ ايها الزنجي اتظن انك ابيض . الا تظن ؟

ــ لا ياسيدي .

ــ حسنا انك تفعل تماما كما يفعل الرجل الابيض .

ــ لكن يامستر بيز قال المدير ..

فسدد بيز قبضته الى وجهي قائلا :

ــ ان ماحولك هنا هو عمل الرجل الابيض ويحسن ان تراقب نفسك .

ومنذ ذلك الحين تغيرت معاملتهما . فلم يعودا يلقيان الي بتحية الصباح . وعندما اكون بطيئا قليلافي اداء عمل ما . كنت اسمى بالاسود الكسول ابن الكلبة .

وفكرت مرة في أن اقص كل هذا على المدير . لكن مجرد الفكرة بما قد يحدث لي اذا علم بيز وموري بأنني شكوت اوقفني وعلاوة على هـذا فان المدير رجل ابيض ايضا .. فما الفائدة ؟

واكتملت حلقات الحوادث في ظهر يوم صيف . ناداني بيز الى المنضدة التي يمارس عليها عمله . وكي اصل اليه كان علي أن اذهب بين منضدتين ضيقتين واقف مسندا ظهري الى جدار .

قلـت :

ـ نعم ياسيـدي .

ابتدا بيز حديثه بمرور دون أن يرفع نظره عن عمله قائلا :

ـ ريتشارد اريد أن اسألك عن شيء ما .

فقلت مرة ثانية :

ـ نعم ياسيدي .

قفز موري آتيا سادا الممر الضيق بين المنضدتين وثنى ذراعيه محدقا في برزانة .

قلبت النظر من شخص الى الآخر . شاعرا بان شيئا ما سيحدث

فقلت للمرة الثالثة :

ـ نعم ياسيـدي .

فرفع بيز نظره لاعلى وتكلم بمنتهى البطء :

ـ ريتشارد اخبرني مستر موري هنا بأنك ناديتني باسم بيز مجردا .

فتصلبت وبدت هوة تفتح من داخلي . عرفت ان هذه هي بداية المعركة . كان يعني انني فشلت في مناداته بمستر بيز ، نظرت الى موري. كان قابضا على قضيب من الصلب بين يديه . وفتحت فمي لاتكلم لاحتج لأؤكد لبيز انني لم اناده ابدا ببساطة باسمه مجردا من الالقاب وانني لم يكن لدي ابدا قصد بان افعل ذلك عندما جذبني موري من ياقتي ضاربا براسي في الحائط .

زمجر موري كاشفا عن انيابه :

ـ الآن . كن حريصا ايها الزنجي فقد سمعتك تناديه بيز مجردا . والآن اذا قلت انك لم تفعل ذلك فانك اذن تسميني كاذبا . انظر .

ولوح بالقضيب الصلب مهددا .

اذا قلت لا يا سيدي مستر بيز انا لم اناديك ابدا بيز مجردا فانني بذلك اكون قد سميت موري آليا كاذبا . واذا قلت نعم يا سيدي مستر بيز اهانة يمكن ان يوجهها زنجي الى رجل ابيض في الجنوب . فوقفت مترددا محاولا ان اكون اجابة طبيعية .

قال بيز :

ـ ريتشارد سأسألك سؤالا .

كان الغضب قد بدا يتسلل الى صوته .

فقلت بحذر :

ـ لا اذكر انني سميتك بيز مجردا يا مستر بيز . واذا كنت قد فعلت فاني واثق انها لا تعني . .

ـ انت ايها الاسود ابن الكلبة . لقد سميتني بيز بلا لقب اذن ؟ وظل يصفعني حتى ملت جانبا على منضدة كان موري واقفا فوق رأسي قائلا :

الم تسمه بيز ؟ اذا قلت انك لم تفعل سأمزق امعاءك الدقيقة بهذا القضيب . ايها العجوز الماكر . لا يمكن ان تسم رجلا ابيض بالكذب ، والآن اخرج باكذوبتك . ايها الاسود ابن الكلبة .

فشحب لوني ورجوتهما الا يضايقاني ، وكنت اعلم ما يريدانه ، ان اغادر المصنع .

فوعدت قائلا :

سأغادره كلية الآن .

فمنحاني دقيقة لمغادرة المصنع . وحذرت من أن اشاهد مرة أخرى او ان اخبر المدير .

وذهبت .

وعندما اخبرت عشيرتي في المنزل بما حدث اعتبروني غبيا. واخبروني بانني يجب الا أحاول مرة ثانية تجاوز حدودي . فعندما تعمل من اجل البيض كما قالوا . يجب ان تتمسك ببقائك في مكانك اذا اردت ان تظل تعمل .

- ٢ -

استمر تعليمي « كجيم كرو » في عملي التالي الذي كان حمالا في مخزن ملابس . وفي ذات صباح بينما كنت المع النحاس الامامي هبط المدير وابنه ذو العشرين عاما من عربتهما . وبنصف ركلة ونصف شدة ادخلا امراة زنجية داخل المخزن ونظر جندي بوليس كان واقفا في الركن وهو يلف عصاه الليلية واخذت اراقب بعيني من الركن دون ان المع النحاس بقطعة الشاموآه التي بيدي . وبعد دقائق قليلة سمعت صرخات عصبية آتية من مؤخرة المخزن . واخيرا تدحرجت خارجة دامية صارخة ممسكة بمعدتها . وعندما وصلت الى نهاية المخزن امسك بها رجل البوليس واتهمها بالسكر . وبهدوء لاحظته وهو يلقي بها في عربة بترول .

عندما ذهبت الى مؤخرة المخزن كان المدير وابنه يغسلان ايديهما عند حوض المياه . كانا يبتسمان . كانت الارض غارقة بالدماء وممتلئة بقصاصات الشعر والملابس . ولا بد انني ظهرت بشكل من روع لهذا المشهد ، حتى ان المدير صفعني على ظهري وقال ضاحكا :

ـ يا غلام . هذا ما نفعله بالزنوج عندما لا يريدون دفع فواتير حسابهم . ونظر ابنه الي وابتسم قائلا :

ـ خذ . هذه سيجارة لك .

ولم اعرف ماذا افعل بها لكنني اخذتها . واشعل سيجارته وامسك بعود الثقاب لأشعل سيجارتي . كانت هذه لمحة من الرقة تعبر بانهما رغم ضربهما للعجوز المسكينة فانهما لن يضرباني اذا عرفت فقط كيف احتفظ بفمي مغلقا .

قلت :

ـ نعم يا سيدي .

ولم اسأل اي اسئلة .

وبعدما ذهبا جلست على طرف صندوق مربط في الارض الدامية حتى انتهت السيجارة .

وفي هذا اليوم عند الظهر بينما كنت اتناول طعامي في حلقة الزملاء اخبرت زملائي الزنوج الحمالين بما حدث . فلم يبد على اي منهم الدهشة . وسألني زميل بعد ان ابتلع لقمة كبيرة وتحول الي قائلا :

ـ ماذا ، هل هذا كل ما فعلاه بها ؟

فسألت .

ـ نعم . الم يكن ذلك كافيا ؟

ـ حسنا . يا رجل لقد كانت كلبة محظوظة .

وقال وهو يغمر شفتيه في الطعام السائل :

ــ يا للجحيم انه لامر غريب جدا انهما لم يرقداها عندما صارا داخل المخزن .

ـ ٣ ـ

كنت اتعلم بسرعة . لكن ليس بسرعة كافية . وفي ذات يوم بينما كنت اسلم الحزم في الاحياء خرقت عجلة دراجتي . فسرت طوال الطريق الحار المغبر غارقا في عرقي وساحبا دراجتي من عجلة القيادة .

وتباطأت دراجة بجانبي . وناداني رجل ابيض قائلا :

ــ ماذا حدث يا غلام ؟

فاخبرته بأن دراجتي كسرت وانني كنت عائدا على الاقدام الى البلدة .

قــال :

ــ هذا في منتهى السوء . اركب العربة السريعة .

واوقف السيارة . وامسكت جيدا بدراجتي بيد واطبقت بالاخرى على جانب السيارة .

ــ كل شيء معد ؟

اجبتــه .

ــ نعم يا سيدي .

وواصلت العربة سيرها . كانت ممتلئة بشبان بيض . كانوا يشربون وراقبت « الفياسكا » وهي تمر من فم الى فم .

سأل احدهم :

ــ اتريد ان تشرب يا غلام ؟

فضحكت عندما صفعت الريح وجهي . وبطاعة فطرية لنصائح امي الاخلاقية النضرة قلت :

ــ آه . لا .

خرجت الكلمات من فمي بصعوبة قبل ان اشعر بشيء صلب بارد يتدفق بين عيني . كانت زجاجة ويسكي فارغة ورايت النجوم . وسقطت متراجعا في العربة الجارية في تراب الطريق ، واشتبكت قدماي بأسلاك دراجتي الصلبة ، واطل الرجال البيض ووقفوا حيث كنت .

سألني الرجل الذي ضربني :

ــ ايها الزنجي الم تتعلم تصرفا افضل من هذا بعد ؟ الم تتعلم ان تقول يا سيدي عندما تخاطب رجلا ابيض ؟

وبقبساء جمعت كل قواي ونهضت على قدمي كان كوعاي وساقاي ينزفان دماء . فتجمعت القبضات وتقدم الرجل الابيض وركل دراجتي بعيدا عن الطريق .

قال احدهم :

ــ آه . اترك اللقيط وحده . لقد نال كفايته .

ووقفوا ينظرون الي فمسحت عظام ساقي محلولا وقف تدفق الدم . وشعروا دون شك بنوع من الشفقة الممزوجة بالاحتقار . لان احدهم سألني :

ــ اتريد الركوب الى البلدة الآن ايها الزنجي ؟ .

هل تعتقد أنك تعرف الكفاية لتركب الآن ؟

فقلت ببساطة :

اريد ان امشي .

ربما كان تأثير هذه العبارة مضحكا . فضحكوا .

ــ حسنا . امش ايها الاسود ابن الكلبة .

وعندما تركوني أراحوني بقولهم :

ــ ايها الزنجي يجب ان تكون مسرورا لأنك تكلمت بهذه الطريقة ولم تنلك اللعنة . انك لقيط محظوظ لأنك اذا كنت قد قلت هذا الكلام لأي شخص آخر لصرت في عداد الزنوج الأموات .

- ٤ -

الزنوج الذين عاشوا في الجنوب يعرفون الفزع الذي يحدث عند الامساك بالزنجي وحيدا وسط الشوارع في احياء البيض بعد غروب الشمس في وضع بسيط كهذا فان حالة الزنجي في أمريكا تكون مميزة بوضوح . فبينما كان الفقراء البيض ــ ربما ــ يتخذون طريقهم وسط هذه الاحياء محاولين الحصول على منزل فانهم يستطيعون ان يمروا دون ان يكونوا ملحوظين . لكن لون جلد الزنجي يجعله مميزا بسهولة . ويجعله موضعا للشكوك ويضعه في مأزق بلا دفاع .

ففي ليلة متأخرة ليوم سبت كنت اسلم بعض الحزم الى احياء البيض. وكنت ادير دراجتي عائدا الى المخزن بأقصى سرعة ممكنة . عندما حادت عربة بوليس عن الطريق متجهة نحوي ودفعتني داخل الرصيف . وامرني رجال البوليس قائلين :

ــ انزل وارفع يديك .

ففعلت فتسللوا خارجين من السيارة ، ببنادق معدة وسحن مقلوبة وتقدموا ببطء وامروني :

ــ ابق ساكنا .

فرفعت يدي لأعلى ارتفاع . وبحثوا في جيوبي وحزمي . وبدوا غير مكتفين بهذا عندما لم يتمكنوا من ضبط ما يشكل جريمة . وأخيرا قال لي احدهم :

ــ ايها الصبي . قل لمديرك الا يرسلك خارجا في احياء البيض بعد غروب الشمس .

وكالمعتاد قلت :

ــ نعم يا سيدي .

ــ ٥ ــ

كان عملي التالي كخادم صالة في فندق وهنا اتسع تعليمي ك « جيم كرو » وتعمق . فعندما يكون الخدم مشغولين كنت انادى غالبا لأساعدهم ولما كانت اغلب الحجرات في الفندق تشغلها العاهرات فكنت كثيرا ما انادى لأحمل اليهن الخمر والسجائر . وكن عاريات معظم الوقت . ولم يكن يضايقن بخصوص الملابس حتى ولا لوجود الخدم . عندما تدخل في حجراتهن يطلب اليك ان تخلع ما يستر عراهن مقابل « بقشيش » ما دامت رؤيتهن لا تثير دهشتك اكثر مما تفعله زهرية زرقاء او بساط احمر . فوجودك لا يثير فيهن اي احساس بالخجل لانه لا ينظر اليك كانسان . فاذا كن وحدهن . يمكنك ان تختلس اليهن نظرات جانبية خاطفة من عينيك . لكن اذا كن يستقبلن رجالا يجب الا تبدو من جفونك هزة واحدة .

واذكر حادثا حيا . شغلت امراة جديدة بيضاء الجلد وشقراء حجرة في الطابق الذي اعمل به . فارسلت في طلبي لأقوم بخدمتها . كانت في الفراش مع رجل ثقيل السحنة . وكان الاثنان عاريين وبلا غطاء . وقالت انها تريد بعض الخمر وانزلقت من السرير وتبخترت على الارض لتحضر

النقود من درج دولاب الملابس فراقبتها . فسألني الرجل الابيض . رافعا نفســه على كوعيه :

ــ ايها الزنجي ما الذي ــ بالجحيم ــ تنظر اليه ؟

فاجبت وانا انظر لاعماق اميال في جدار الحجرة الاملس :

ــ لا شيء .

قــال :

ــ احفظ عينيك في مكانهما اذا اردت أن تظل سليما .

ــ نعم يا سيدي .

- ٦ -

كان احد خدم الفندق ممن أعرفهم في هذا الفندق على علاقة صداقة وطيدة بأحدى الوصيفات الزنجيات وعندما كانت السماء صحوة صعــد البوليس الى منزله وقبضوا عليه متهمين اياه باقامة علاقة غير شرعية ؛ واقسم المسكين بأنه لم يقم اي علاقة غير شريفة بالفتاة فلم يعيروا كلامــه ادنى انتباه واقتادوه ليتزوجها وعندما وصل الطفل اتضح بخفة لون البشرة أن أي من الاثنين المفترى عليهما ، ليس من الابوين الشرعيين . وجعل الرجال البيض حول الفندق منها نكتة كبيرة . فروجوا اشاعــة بأن بعض البقرات البيضاء لا بد انها اصابت الفتاة المسكينة بجرح مميز بينما كانت تحمل الطفل . واذا كنت في مكانهم عندما اذيع هذا التعليل . كان عليك أن تضحك .

- ٧ -

قبض على احد خدم الفندق في الفراش مع عاهرة بيضاء وضرب حتى تفجرت شرايينه وطرد الى خارج البلدة . وبعد حدوث هــذا في الحال ، جمع جميع خدم الفندق وخدم الصالات ، جمعنا معا وحذرنا

وكان علينا أن نفهم ان الصبي الذي ضرب كان لقيطا قويـا محظوظا . وارغمتنا على السكوت حقيقة ان ادارة الفندق لن تكون مسئولة فيما بعد عن حياة الزنوج من مثيري المتاعب . فسكتنا .

- ٨ -

في ذات ليلة بينما كنت على وشك العودة الى المنزل قابلت احـدى الخدم الزنجيات . كانت تسكن في جهتي وهبطنا لنسير جزءا من الطريق معا . وما ان مررنا بجندي المراقبة الليلي الابيض حتى ضرب الخادمة على مؤخرتها فاستدرت حولي مذهولا . ونظر الي جندي المراقبة نظرة طويلة قاسية . وفجأة جذب بندقيته وسألني :

ــ ايها الزنجي الا تشبهها ؟

فترددت .

فسأل ثانية . وقد خطا طويلا :

غمغمت :

ــ نعم يا سيدي .

ــ تكلم مثلها . اذن .

قلت ما تمكنني به شجاعتي من عدم الرهبة :

ــ أوه . نعم يا سيدي .

وسرت خارجا مع الفتاة خجلا من مواجهتها .

فتماسكنا سويا وقالت :

ــ لا تكن غبيا . انك لا تستطيع ان تفعلها .

ان لجندي المراقبة هذا ان يفخر بقتله زنجيين في حالة دفاع شرعي.

الا انه رغم كل هذا كانت حياة الفندق تجري برقة مدهشة . وكان من المستحيل على الغريب ان يكتشف اي شيء فالخادمات وخدم الفندق وخدم الصالة كانوا جميعا يبتسمون . كان عليهم ان يفعلوا ذلك .

- ٩ -

لقد اتقنت دروس « جيم كرو » جيدا حتى انني احتفظت بعمل الفندق الى ان غادرت « جاكسون » الى « ممفيس » وفي ممفيس حدث ان اخترت لعمل في فرع شركة النظارات . كنت مؤجرا . ولسبب ما بقدر ما عملت هناك لم يحاولوا ابدا اثارة ماضي ضدي .

وهنا اتخذ تعليمي ك « جيم كرو » شكلا مختلفا تماما لم يكن بالغ القسوة بل قسوة ناعمة . هنا تعلمت ان اكذب وان اسرق وان اخدع . تعلمت ان العب ذلك الدور المزدوج الذي يجب على كل زنجي ان يلعبه اذا اراد ان يأكل وان يعيش . فمثلا ، كان من الصعب غالبا ان تجد كتابا تقراه . فقدكان مقررا انه بعد ما يتجرع الزنجي ذلك التعليم المدرسي القليل في الولاية فانه لم تعد به حاجة للكتاب . كنت دائما اقترض الكتب من الرجال في العمل . وفي يوم انست في نفسي الشجاعة الكافية لاطلب من احد الرجال أن يسمح لي بأخذ الكتب من المكتبة تحت اسمه . وكان امرا مدهشا ، ان يوافق . ولم اصدق ، بل اعتقدت انه وافق لانه روماني كاثوليكي ويحس عطفا غامضا للزنوج لكونه هو نفسه عومل بكراهية . وحصلت على الكتب ، وانا مسلح ببطاقة استعارة بالطريقة الآتية : كنت اكتب مذكرة لامين المكتبة ، قائلا : « ارجوك دع هذا الصبي الزنجي يأخذ الكتب الآتية » ، واوقع عندئذ باسم الرجل الابيض . كلما ذهبت الى المكتبة ، كنت اقف امام المكتب ، والقبعة في يدي ، محاولا ان اظهر كمن لا يحب الكتب قدرالامكان . وعندما اتسلم الكتب المطلوبة كنت آخذها الى المنزل . واذا كانت الكتب التي في القائمة معارة خارج المكتبة ، كنت

انسحب الى الممر ، وازور بطاقة جديدة . ولم اعط اي فرصة للكتبي الابيض كي يخمن بما يطلبه الرجل الابيض الوهمي ليقرأ . فلا ريب اذا شك احد المستعيرين البيض في ان بعض المجلدات التي يحبونها كانت في منزل زنجي فلم يكونوا ليقبلوا ذلك لحظة واحدة .

كانت قوة مصنع شركة النظارات في « ممفيس » اضخم بكثير من مثيله في « جاكسون » واكثر تمدينا . فعلى الاقل كانوا يحبون التحدث وقد يشتركون في محادثة الزنجي ومساعدته بقدر ما يمكن وبهذا وجدت ان هناك موضوعات كانت بعيدة عن مستوى نظر الرجل الابيض . ومن بين الموضوعات التي لا يحبون الخوض فيها مع الزنوج كانت هذه الموضوعات : « النساء الامريكيات البيض، الكوكلوكس كلان »(١) ، فرنسا وكيف ان الجنود الزنوج ناجحون هناك ، النساء الفرنسيات ، جاك جونسون ، الجزء الشمالي باكمله من الولايات المتحدة ، الحرب القاسية، ابراهام لنكولن(١) ، جرانت الولايات المتحدة(٢) الجنرال شيرمان ،

(١) . « كوكلوس كلان » ، عصابة ارهابية لارهاب الزنوج وقتلهم شنقا على فروع الاشجار، تكونت في اعقاب حرب تحرير الزنوج في امريكا سنة ١٨٥٦ ويرتدي اعضاؤها الطراطير مرسوما عليها الجماجم بالفوسفور شعوذة وارهابا للزنوج ولها فروع في جميع انحاء الولايات المتحدة ما زالت تمارس نشاطها الارهابي الى اليوم .

(١) « ابراهام لنكولن » اول رئيس امريكي ينجح على اساس تحريم الرق في الولايات الجنوبية ، في ٤ من نوفمبر ١٨٦١ ، مما تسبب في نشوب الحرب الاهلية في الولايات المتحدة ، وانتهت بانتصار قوى التحرر على انصار العبودية . وفي اثناء المعارك الحربية اصدر « لنكولن » اعلان تحرير العبيد الشهير الذي جاء فيه « انه في اليوم الاول من شهر يناير ١٨٦٣ ، يصبح جميع الاشخاص الذين يعاملون كعبيد في اي ولاية او جزء معين من ولاية يكون سكانها او سكانه في ثورة ضد الولايات المتحدة ـ يصبحون منذ ذلك الحين والى الابد احرارا » .

(٢) الجنرال جرانت ، القائد العام الذي احرز النصر في حرب تحرير العبيد وقد سمي جرانت الولايات المتحدة لان اول حرف من كل من اسميه يشبه اول حرف من كلمتي الولايات المتحدة (باللغة الانجليزية) .

الكاثوليك ، البابا ، الحزب الجمهوري ، العبودية ، المساواة الاجتماعية ، الشيوعية ، الاشتراكية ، التعديلات الـ ١٣ والـ ١٤ للدستور(٣) أو أي موضوع للمعرفة اليقينية او الدفاع الشرعي الانساني عن قضية الزنوج. كانت الموضوعات الاكثر روجا هي الجنس والعبادة .

كانت هناك اوقات عديدة عندما كان عليّ ان اختبر مجموعة من سبل المهارة في الابتعاد عن المتاعب . انها عادة جنوبية تلك التي تقضي بأن يخلع كل الرجال قبعاتهم عندما يدخلون المصعد . وعلى الاخص بالنسبة لنا نحن السود بما يجب علينا من اطاعتها بقوة قاسية . وفي يوم خطوت داخل المصعد وذراعاي ممتلئتان بالحزم . فكنت مجبرا على الركوب وقبعتي فوق رأسي . فحدق فيّ رجلان ابيضان ببرود . ثم رفع احدهما قبعتي برقة ووضعها على ذراعي الممتلىء بالحزم . والآن فالاجابة المعقولة غالبا بالنسبة لزنجي في مثل هذه الظروف هو ان ينظر الى الرجل الابيض بنظرة جانبية ويبتسم . ولكي تقول : اشكرك . ستجعل الرجل الابيض يعتقد انك فكرت بأنك تتقبل منه خدمة شخصية . فلمثل هذا العمل رأيت زنوجا يتلقون ضربة على الفم . ولما وجدت الاجابة الاولى كريهة تماما ، والثانية خطيرة ، ضربت على نغمة معقولة جاءت سليمة بين هاتين الاجابتين المتطرفتين . وفي الحال ، بمجرد ما رفعت قبعتي تظاهرت بأن حزمي كانت على وشك ان تنهال ، واظهرت الما عميقا باحتفاظي بها على ذراعي ، وبهذه الطريقة المبتكرة تجنبت الظهور بمعرفة خدمته ، وعلى الرغم من الظروف المعادية ، فقد افتديت بقايا ضئيلة لكبرياء شخصي .

---

(٣) التعديلات التي اضافها الرئيس الامريكي « ابراهام لنكولن » الى الدستور ، والقاضية باعلان تحرير العبيد .

كيف يحس الزنوج بالطريقة التي يجب ان يعيشوا بها؟كيف يناقشونها بين انفسهم عندما يكونون وحدهم ؟ اظن ان هذه الاسئلة ، يمكن ان يجاب عليها بجملة مفردة . وذات مرة قال لي صديق يعمل في مصعد :

ــ يا رجل . . لو لم يكن البوليس قد خلق من اجلهم بما فيهم جماعات الاغتيال لم يكن هنالك شيء سوى ان ينقلب الصراخ الى الحضيض هنا .

البحرين

قراءات غير متأنية في النقد المعاصر

٤

في البحث عن دور للقارئ

عبد النبي اصطيف

اذا مارغب المرء بالنظر الى العمل الادبي على انه نص او انشاء يحمل رسالة ما ، فانه ومن منطلق توصيلي يمكن ان يقع على جملة من العناصر التي تسهم في تحقق عملية التوصيل :

اولها : هو مصدرهذا النص ــ مع شيء من الحذر ــ او منشئه او منتجه وهو ما يمكن ان يشار اليه على انه المؤلف .

وثانيها : هو النص الذي انشاه المؤلف او الشيء المنتج والذي يحمل رسالة مايتوجه بها منتجه نحو مستقبل ما .

وثالثها : هو المخاطب او المتلقي او المستقبل ، وهو الجهة التي تتلقى هذا النص او الخطاب او الانشاء .

وحتى تتم عملية التوصيل فانه لابد لهذا المخاطب ان يستطيع تفكيك الرموز والاشارات والعلامات التي تحمل دلالات النص . وبالطبع فانه في تفكيك هذه الشفرة يلجأ الى اعراف وتقاليد ونظم معينة خلقتها المواريث الثقافية للغة التي يستخدمها النص ، ولاحاجة الى الاشارة هنا الى ان المرسل والمستقبل ينبغي ان يشتركا في معرفة هذه الاعراف والتقاليد والنظم اذا مااريد لعملية التوصيل ان تتم .

ومن خلال منظور آخر يمكن القول ان النص المبدع (اذا ماجاز استخدام هذا الوصف) الذي انتجه المؤلف ، هو تجربة فنية بالقوة ، وان العنصر الوحيد القادر على تحويلها الى تجربة فعلية هو المتلقي او مستهلك هذه التجربة ، وبالتالي فان للمتلقي او للقارىء دورا هاما ربما يقارب في اهميته اهمية دور منتج هذا العمل ، وان دراسة العمل الادبي لايمكن ان تكون كاملة مستوفية لاهم جوانب العملية الادبية مالم تتطرق — ربما بتفصيل — الى هذا الدور الذي يلعبه القارىء في تحويله التجربة الفنية من دور القوة الى دور الفعل .

لقد دأب النقد الى عهد قريب على اهمال دور القارىء ، ورغم انه في احايين كثيرة تنبه الى العنصر المنتج (المؤلف) عندما حاول دراسة نفسيته ودورها في تشكيل العمل الادبي من خلال منطلق نفساني ،وتنبه الى العنصر المنتج (بفتح التاء) الذي هو النص ، فاهتم به واعاره كل الاهمية فدافع عن استقلاليته وعن ضرورة القراءة المتمعنة له والتي تنظر اليه كبنية منعزلة عما حولها ، وتحاول دراسة عناصره وشبكة العلاقات التي تنسجها بين مكوناته من خلال منطلق شكلي بحت ، فانه نادرا

ماناقش دور المتلقي او المستقبل او القارىء ، باستثناء الحديث عن تطور الذوق الفني في عصر من العصور او فترة من الفترات في هذا القطر او ذاك ، وضمن ادب‌معين او آخر ، او تناول منحى تطور ـ او تدهور ـ سمعة مؤلف معين في بلد معين كدراسة سمعة شكسبير في فرنسا في فترة محددة على سبيل المثال .

* * *

ويبدو ان هذا الدور بدا ياخذ مكانته من جديد تحت انظار النقد الاوربي والامريكي المعاصرين اللذين اخذا بالحديث عنه بشكل جاد رغم اختلاف منظورات تناوله من ناقد لاخر ومن قطر لاخر ومن تقليد لتقليد .

وقد ظهرت مؤخرا مجموعة من الكتب النقدية تتناول هذا الدور كما تشير الى ذلك عناوينها ككتاب **« دور القارىء : استكشافات فيسيميائيات النصوص »**(١) لـ (اومبرتو اكو) السيميائي الايطالي المعروف ، و **« نقد استجابات القارىء من الشكلية الى ما بعد البنيوية »**(٢) من تحرير الناقدة الامريكية (جين م تومبكينز) و **« القارىء في النص ، مقالات في الجمهور والتفسير »** (٣) من تحرير (سوزان روبين سليمان و انج كروسمان) ، و **« العين في النص : مقالات في الاستقبال من المتكلف حتى الحديث »**(٤) لـ (ماري آن كوس) ، و **« فعل القراءة : نظرية للاستجابة الفنية »**(٥) و **« القارىء الضمني : انساق التوصيل في النثر القصصي من بونيان الى بيكيت »** (٦) للناقد الالماني (ولفانغ ايزر) وكتب اخرى عديدة ليس ثمة مجال لذكرها هنا .

ولاشك ان دراسة هذا التيار من تيارات النقد المعاصر دراسة متانية امر مفيد ، ليس للقارىء العربي المهتم بالنقد العالمي فقط ، بل ربما للناقد العربي ايضا اذا ماكان لهذا التيار ان يسهم في توسيع آفاق التجربة النقدية المعاصرة واغنائها ، خاصة في هذه المرحلة الهامة التي

يبحث فيها النقد العربي عن هويته الخاصة به والتي يمكن له من خلالها ان يكون نقدا وعربيا في ان واحد ، نقدا ينهض للمقارنة مع التقاليد النقدية المعاصرة الاخرى ، وعربيا يكون استجابة حقيقية للنتاج الادبي المعاصر ، لانسخا ومسخا للتقاليد الاخرى التي يلخذ عنها . ولكنه لما كان من غير المتيسر الاحاطة بتيار كهذا في صفحات قليلة ، فانني سأكتفي باشارة موجزة الى احدث ماصدر من كتب هذا التيار اشارة غايتها مجرد التنبيه الى الامكانيات التي ينطوي عليها ، لعل من يعنيه الامر ، ممن يملك القدرة والوقت ، ان يساهم في مناقشتها وتقديمها تقديما نقديا يفاد منه . وعلى اي حال فانني لم اقصد بسطوري هذه اكثر من ان تكون نظرة خاطفة ،وهي بالتاكيد قراءة غير متانية .

اول ماتجدر الاشارة اليه هو ان البروفيسور اومبرتو اكو من ابرز سيمائي ايطاليا ، ان لم يكن ابرز السيمائيين في العالم ، وهو استاذ السيمائيات في قسم الفلسفة والاداب في جامعة بولونيا بايطاليا ، ويكفي للدلالة على اهمية اسهاماته الى حقل السيمائيات ان تذكر ان كتابه « **نظرية السيمائيات** » (٧) ، قد ظهر بشكل او باخر باللغات الانكليزية والفرنسية والاسبانية والسويدية واليوغوسلافية والبولونية والبرتغالية اضافة الى نسخته الايطالية وهو يشكل مرجعا رئيسيا في قائمة مراجع كل من يدرس النظريات اللغوية والنقدية الحديثة .

والكتاب الذي بين ايدينا « **دور القارىء : استكشافات في سيمائيات النصوص** » ، هو الكتاب الثاني الذي يظهر له بالانكليزية ، وهو عبارة عن مجموعة من الفصول عددها تسعة نشرها المؤلف بين عامي ١٩٥٩ و ١٩٧١ يحاول من خلاله ان يستكشف عن طريق ادواته السيمائية افاق دور القارىء في عملية التفسير ، ويسبر اغوارها من خلال منهج يسعى لتطوير نفسه باستمرار .

يقع كتاب اكو في ثلاثة اقسام ومدخل مطول . فأما القسم الاول فيضم ثلاثة فصول هي :

١ ـ « الفن الشعري الخاص بالعمل المفتوح » ويعود تاريخه الى عام ١٩٥٩.

٢ ـ « علم دلالة الاستعارة » ويعود تاريخه الى عام ١٩٧١ .

٣ ـ « حول امكانية توليد رسائل جمالية في لغة عدنية » (نسبة الى عدن) ونشر عام ١٩٧١ .

وهذا القسم هو مناقشة مطولة ومفصلة لمجموعة من النصوص المفتوحة لفظية وغير لفظية ، ويحاول فيه المؤلف ان يدرس ظاهرة النص غير المنتهي في الفن المعاصر وفي النظرية الجمالية ، ذلك النص الذي يجعل من القارىء شريكا في خلق النص اذا ماشاء المرء استخدام تعبير الناقد الفرنسي رولان بارت ، اضافة الى دوره في تحقيق التجربة الجمالية التي يولدها النص .

واما القسم الثاني فيشتمل على ثلاثة فصول أيضا هي :

١ ـ « اسطورة السوبرمان » ويعود تاريخه الى عام ١٩٦٢ عندما نشر للمرة الاولى .

٢ ـ « بلاغة اسرار باريس » ، ليوجين سو وايديولوجيتها ونشر عام ١٩٦٥ .

٣ ـ « البنى السردية في روايات ايان فلمنغ » ونشر عام ١٩٦٥ .

وهو في مجمله دراسة لمجموعة من امثلة النصوص المغلقة من الثقافة الشعبية ، ويحاج فيه اكو ، ان دور القارىء في تفسير هذه النصوص التي اريد بها الاستهلاك الجماهيري الواسع ليس واضحا الوضوح الذي تفترضه النصوص نفسها لانه يخضع بالطبع لاعتبارات خارجة عن النص.

واما القسم الثالث فيتضمن فصلين هما :

١ ـ « بيرس والاسس السيمائية للانفتاح : العلامات نصوصا والنصوص علامات » ، ويعود تاريخه الى عام ١٩٧٦ .

٢ ـ « قارىء في الغابيولا : استراتيجية نفعية في النص السردي » ونشر عام ١٩٧٧ .

(ومن الجدير بالذكر ان « الغابيولا » هي مجموعة المتخللات«الموتيف» في تتابعها المنطقي الزمني ، مقابل العقدة او « السوجيت » حسب استخدام الشكليين الروس ، والتي تعني مجموعة المتخللات حسب ورودها في العمل الفني) .

ويحاول المؤلف في هذا القسم تقديم اطار نظري لفهم الاستراتيجيات السيمائية في النصوص المفتوحة والمغلقة .

وهكذا فان المقالات في مجموعها تركز على دور القارىء في تفسير النص ، وتقترح استراتيجية جدلية بين النصوص المفتوحة ، او ذلك النمط من الاعمال الفنية التي تسعى لشغل القارىء وعلى نحو فعال في انتاج نصوصها ، وبين النصوص المغلقة ، او ذلك النوع من الاعمال الفنية التي تبقي القارىء حيث هو ، وتسعى الى اثارة استجابة محددة ومحدودة فيه .

ورغم ان كتابات اكو ـ اذا ماقيست بغيرها ـ تتسم بمقدار معتبر من الوضوح ، الا ان كثرة المصطلحات السيمائية التي يولدها ، والتي يزدحم بها نصه ، بل يكاد ينوء بعبئها ، تجعل من قراءته امرا ليس على قدر يسير من السهولة ، وكما قيل في التقديم له **« انه يجمع بين افكار مختلفة بطريقة جسورة وخيالية ، مجبرا ايانا على تامل افكارنا فيما يحدث عندما نقرا »** وخاصة عندما نواجه نصا ك **« دور القارىء ، استكشافات في سيمائيات النصوص »** . بل ربما كان السؤال الاكبر

الذي يثيره نص كهذا في نفس القارىء هو : ماجدوى الكتابة اذا ماحيل بينها وبين استقبالها ؟ ان جدواها متوقف بالتأكيد على استقبالها ، وعلى مشاركة القارىء بدور ايجابي في عملية التوصيل . ولعله لايمضي وقت طويل قبل ان يتنبه الادباء والنقاد في وطننا العربي على حد سواء الى ذلك الدور .

هوامش

(*) هذه المقالة هي الرابعة ضمن سلسلة المقالات الموجزة التي يعدها صاحب هذه السطور بغرض تعريف القارىء العربي بآخر تطورات النقد الغربي ، وانظر :

عبد النبي اصطيف :

آ ـ « لهجات جديدة والبنيوية والسيماليات : سلسلة جديدة وبداية واعدة » في الموقف الادبي (دمشق) ، العدد ١٠٠ ، آب ١٩٧٩ ، ص ١٣٩ـ١٤٢ .

ب ـ « قرارات غير متأنية في النقد المعاصر : النظرية الماركسية في الفن » في المعرفة (دمشق) ، العدد ٢١٨ ، نيسان ١٩٨٠ ، ص ٢٣٣ـ٢٤٠ .

جـ ـ « ماذا بعد البنيوية ؟ » في الموقف الادبي (دمشق) ، العدد ١١٦ ، كانون الاول ١٩٨٠ ، ص ١٣٣ـ١٣٧ .

(١) مكتبة جامعة هوتشونسون ، لندن ١٩٨١ .

(٢) مطبعة جامعة جون هوبكنز ، بولتيمور ولندن ، ١٩٨٠ .

(٣) مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٨٠ .

(٤) مطبعة جامعة برنستون ، ١٩٨١ .

(٥) مطبعة جامعة جون هوبكنز ، بولتيمور ولندن ، ١٩٧٨ .

(٦) مطبعة جامعة جون هوبكنز ، بولتيمور ولندن ، ١٩٧٨ .

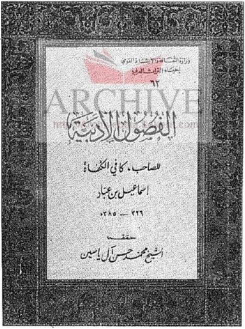
(٧) مطبعة جامعة انديانا ، ١٩٧٦ .

وليد كمال الدين



صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي




وزارة الثقافة والإرشاد القومي
إحياء التراث العربي
٦٢
الفصول الأدبية
للصاحب « كافي الكفاة »
إسماعيل بن عباد
٣٢٦ — ٣٨٥ هـ
حققه
الشيخ محمد حسن آل ياسين

صدر حديثاً عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي

